



Johann Wolfgang von Goethe

جوته

GOETHE

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الرابع من المجلد الثمانين

٢٥ ذي القعدة سنة ١٣٥٠

١ أبريل سنة ١٩٣٢

من الخلايا الحية الى السدم اللولبية

العلماء واسرار الكون

حديث لطائفة من كبار العلماء عن مشكلات العلم الحديث

ليس ثمة ناحية من نواحي الكون والحياة ، لا تجد فيها أثراً للعلماء او للبحث العلمي . فعلماء الفلك والطبيعة يرودون رحاب الفضاء وقيسون سرعة العوالم الجزرية التي تبعد عنا عشرات الالوف من سني الضوء وتبتعد عنا بسرعة تفوق تصور البشر — نحو ١٢٠٠٠ ميل في الثانية — وينفذون من ناحية اخرى الى قلب الذرة فيعدون الآلات الكهربائية الضخمة لتحطيم النواة ومعرفة اسرارها . وعلماء الاحياء يستطلعون سر الحياة في بناء البروتوبلازم وخفايا التطور والنشوء واثر مفرزات الغدد الصماء في افعال الجسم الحيوية . وعلماء الكيمياء يرودون الشقة الكائنة بين الكيمياء العضوية والبيولوجيا فيرون في المواد الغروية صلة ، تستحق البحث ، بين الحي وغير الحي . والمشتغلون بالعلوم الارضية همهم فهم تاريخ الارض الجيولوجي على وجهه الصحيح ومعرفة اسرار الزلازل وخفايا التقلبات الجوية . وعلماء السيكلولوجيا يحاولون النفوذ الى دخائل العقل والنفس والغريزة والسلوك لاقامتها على اساس متسق معقول . بل ان العلماء لم يكتفوا بذلك فتعدوا حدودهم الى ميدان الفلسفة فأدلتهم وجيز وهو تهديد واينشتين يجمعون في اشخاصهم بين العلم والفلسفة . فاهي اعظم المسائل التي يعنى العلماء بمجاولها الان في مختلف هذه النواحي ؟ ان الاجابة عن هذا السؤال تصح

ان تكون فصلاً في «اغراض العلم الحديث ووسائله» ، وتقتضي زيارة طائفة كبيرة من العلماء في معاملهم لاستطلاع آرائهم والاطلاع على مباحثهم . وقد نذبت جريدة نيويورك تيمز احد كتّابها العلميين لهذه المهمة فكتب مقالة تلخصها فيما يلي : —

قال الدكتور هو-تشي مدير معامل البحث في الشركة الكهربائية العامة : (تذكر ان الباحثين — او جمهور الناس — قلما يدركون قيمة مسألة علمية تحت البحث . فباحث فراداي في الكهرباء المغنطيسية كانت اعظم المباحث العلمية في عصره ومن اعظمها في كل العصور . ولكنها لم تسترع العناية ، ولا فراداي نفسه ادرك قيمة بحثه . فالعناية كانت حينئذ متجهة الى المواصلات المائية وشعار العصر كان استنباط الوسائل لاستعمال اشعة اكبر واقوى مما كان مستعملاً حينئذ ، وشق الترع لوصل المدن التي في داخلية البلدان بالبحر . فالمشكلات التي كانت تشغلهم هي مشكلات المواصلات المائية — وهذا صرف اذهانهم عن فراداي ومباحثه الخطيرة . وعلى مثال ذلك قد نقول اليوم ان مسائل «النسبية» و«الكونتم» و«الميكانيكيات الموجية» هي اخطر المشكلات التي يعنى بها علم الطبيعة . ولكن قد يثبت في المستقبل ان خطرها «نسي» فقط ، وان ثمة مسائل لا نلتفت اليها تفوقها شأنًا . «من ثمارهم تعرفونهم») على انه لا بد لنا من الاعتماد على حكم العلماء المعاصرين في معرفة قيمة المباحث العلمية الجارية الآن ، راجين ان يكون اتساع خبرتهم ، وطول عهد الناس بقيمة المباحث العلمية ، وكثرة الحقائق المقابلة مما يعهد لهم سبيل الوصول الى حكم صائب

علوم الاحياء

اخفى اسرار العلوم من الوجهة الانسانية ، سرُّ اصل الحياة وطبيعتها . هل البروتوبلازم (المادة الحية) ترتيب خاص من الكهارب والبروتونات ، والذرات والدقائق ؟ او هل تجد فيه ، شعلة لا ارتباط بينها وبين الالكترونات ، مستقلة عن حركتها ، قائمة من وراء مقاييس الكيمياء والطبيعة ، شعلة سمّتها مبدأ الحياة او قوة الحياة ؟

ان هذه المسألة من صميم المشكلات التي تعالجها علوم الاحياء . فاذا عرفنا كيف تنشأ الخلايا وكيف تحيا ، فقد نتمكن من السيطرة على الخلايا الناشئة التي تحدث السرطان . واذا نفذنا الى سرّ النمو الخلوي فقد نكشف عن خفايا اعادة الشباب ، وتأخير الشيخوخة والتحكم بالوفاة . واذا عرفنا كيف تتوارث الخلايا الصفات المتباينة فقد نتمكن من استنباط الوسائل لرفع مستوى المواليد صحة وعقلاً ، ووضع اساس لتحسين النوع البشري

وبعض الباحثين مكبسون على جلوما يتعلق بالمادة الجامدة ومجاعة تصرّفها لتصرف المادة الحية . وقد اسفرت هذه المباحث عن حقائق تبعث على الدهشة . فقد صنعت «خلايا

صناعية» في بعض معامل البحث ، لها بعض صفات الخلايا الحية . فهي تتناسل انشطاراً وتتغذى امتصاصاً وتتصرف اذا سمّت او اثّرت بمثير ما ، تصرف الخلايا الحية والحيوانات الدنيا (البروتوزوى) ولكن لم يدّع احدٌ من هؤلاء الباحثين انه خلق الحياة في المعمل . وجل ما يدعونه يبدو في تصريح الدكتور د. ت . مك دوغل احد اعضاء معهد كارنجي في قوله :
انها تبين الطريق الذي يجب ان نسلكه لفهم طبيعة المادة الحية فهماً أوفى

اما المذاهب العامة لتعليل الحياة تعليلاً طبيعياً فاهما مذهبان . الاول يرى الحياة ظاهرة كهربائية او ظاهرة تصحبها افعال كهربائية . فبعض اصحاب هذا المذهب تتبعوا الجسم بمقاييسهم يقيسون قوته الكهربائية ومقاومته للتيار الكهربائي من لدن تدرك الوفاة الجسم الى ان يعفو اثر هذه الظواهرات الكهربائية فيه . وغيرهم غني بالخلية الحية فحاس قوتها الكهربائية وخرج من بحثه بان كل خلية انما هي بطرية كهربائية صغيرة . وغيرهم وجد ارتباطاً بين الكهربائية والنمو فالخلية تنمو عادة في جهة التيار الكهربائي الموجب الذي تولده هي ، فلما صوب اليها الباحث تياراً كهربائياً قوياً متجهاً في جهة مقابلة لجهة التيار الذاتي الدقيق اتجه نمو الخلية اليها . وما زالت هذه المباحث في كهربائية الخلية موصولة الحلقات

اما المذهب الآخر فيرى اصحابه ان التوازن الحيوي الكيماوي في الجسم لا يحفظ الا بواسطة تلك السوائل الخفية التي تفرزها الغدد الصماء وتعرف بالهرمونات . فالمنظنون انها الوسائل المستعملة لتمكين الاعضاء في الجسم الواحد من المشاركة والاتساق وانها تسيطر على حالات النمو الشاذة كالضخامة والقزامة والسمنة والغواتر . ثم يقال ان لها اثرآ في بعض الصفات العقلية ، فالبلادة أثر من آثارها وشدة الاحساس وتوتر الاعصاب اثر آخر . وقد صرح احد العلماء مؤخراً امام ا카데미ة العلوم الاميركية بما يؤيد هذا القول الاخير ، فذكر انه وجد ان فقد عنصر المنغنيس من طعام الجرذان يتبعه تحوّل في تصرف الوالدات من الجرذان . فلها لا تبني اوجاراً ولا تعنى بصغارها ، وتنصرف عن ارضاعها ، فتموت الصغار اما من هذا الاهمال او من فقد المنغنيس في جسم الام . ثم ثبت ان الهرمونات التي تفرزها الغدة النخمية لها اثر في الافعال العقلية ، وانه لامندوحة عن المنغنيس في هذه الغدة لكي تفرز هرموناتها — افلا يمكن ان يؤخذ هذا على انه اساس او تعليل كيماي للخلق الانساني ؟

واذا هذين المذهبين الذين يحاول اصحابهما تعليل الحياة تعليلاً ميكانيكياً نرى مدرسة «حيوية» Vitalist من زعمائها الجنرال سمطس رئيس مجمع تقديم العلوم البريطاني في سنة ١٩٣١ فانه في خطبة الرأسة التي خطبها حينئذ وصف هذا المذهب الكلبي Holism بقوله «ليست الحياة وحدة» ، مادية او غير مادية ، بل هي نوع من الانتظام . فاذا اختل هذا الانتظام في كائن ما لم يبق لدينا قطع حية بل كائن ميت . وشبه ذلك بالكونتم وهو وحدة الطاقة التي قال بها العلامة الالماني

بلانك ، فانه يتعذر عليك ان تجد نصف كونهم او ثلث كونهم . ثم ان دقيقة الماء مثال بسيط على هذا الانتظام . فانك اذا حللت جزيء الماء الى مقوماته لم تحصل على دقيقتين من الماء كل منها نصف جزيء وانما تحصل على غازين هما الاكسجين والهيدروجين

ولما سألت الدكتور فرانك للي (Lillie) مدير المعمل البيولوجي البحري وعميد قسم علوم الاحياء بجامعة شيكاغو عن رأيه في مشكلات هذه العلوم أبان لي ان هذه العلوم متجهة الآن اتجاهاين رئيسيين . فثمة اولاً بيولوجيا الفرد وتشتمل على علم الاجنة ، وعلم وظائف الاعضاء ، وغيرهما من المباحث التي ترتبط بالفرد وحاله كالعلوم التي يقوم عليها الطب والعلوم التي تستند اليها الزراعة . وثمة ثانياً بيولوجيا السلالة البشرية وهي تنصرف الى الشعوب والسيطرة على الاتجاهات التاريخية ، مثل الوراثة والتناسل من الوجهة العامة . فالمسألة التي لها المقام الاول عند طائفة كبيرة من علماء الاحياء هي التوفيق بين الاتجاهين . فالبيولوجيا الفردية الآن لها المقام الاول في المعاهد ومعظم ما ينفق من الاموال لتوسيع نطاق البيولوجيا انما ينفق في هذه الناحية الخاصة لان من ثمارها تقدم الطب وارتقاء الزراعة . ولكن اذا نظرنا الى المسألة من ناحيتها القومية والدولية ، وجدنا ان بيولوجيا السلالة ، لاتقل مقاماً عنها ويجب ان يوقف عليها من الاموال ما ينفق ومكانها

العلوم الارضية

ان بناء الارض وحركتها موضوع العلوم الارضية . فاذا عرفنا ما بنيت الارض في داخلها وخارجها ومتى تكونت سهل علينا حل كثير من غوامض الجغرافيا والجيولوجيا والظواهر الجوية والاقيانوغرافيا والمساحة الجيولوجية واستنباط المعادن بالطرق الجيوفيزيكية وغيرها من المسائل العلمية المجردة والاقتصادية الخطيرة

ان هذه المسائل لا تحصى . فما الاصل في منخفضات سطح الارض ومرتفعاته ، وما سبب تجمع سداسل الجبال ؟ هل القارات طافية سابحة — كركام الجليد في البحار القطبية — على سطح محيط من الصخور الثقيلة المائعة تحت القشرة الارضية ؟ هل كانت قارة اميركا الشمالية والجنوبية متصلتين بقارتي اوربا وافريقيا ؟ وكيف نشأ المحيط الاطلنطي ؟ هل احوال الجو ظواهر ارضية بحتة أو هي تتأثر بتقلب الافعال الكونية ؟ ما مصدر المغناطيسية الارضية ، ولماذا تختلف اختلافًا لا ضابط له ؟ وما هو الشفق القطبي والضوء البرجي ؟ وما اسباب البراكين والزلازل ؟ اذا استطعنا ان نعرف اسباب الزلازل الحقيقية قال الدكتور وليم بوي Bowie — وهو الجيودسي^(١) الاول في مصلحة المساحة الساحلية والجيودسية بالولايات المتحدة — هانت علينا اكثر المسائل الجيولوجية الاخرى

فعلاوة على الارصاد التي تدونها المحطات السزمية^(٢) نجد العلماء مكبين على البحث

(١) Geodesy علم يتناول شكل سطح الارض ومساحة بعض بقاعه (٢) السزمية Seismological

في انتقال الاهتزازات الارضية في الصخور باحداث اهتزازات مصطنعة بتفجير الديناميت في مكان عرف بناؤه الجيولوجي ثم درس انتقال الاهتزازات في الجهات المختلفة . وغيره معنى بدرس « التحوّل الردي » كما يبدو في الصخور العميقة التي تظهر على أثر تفتت الطبقات التي تغطيها . وغيره منصرف الى البحث في كتل الصخور النارية — التي من اصل لابي — المدفونة في الاعماق وكانت المباحث السابقة فيها قد انحصرت في ما وجد منها عند سطح الارض . ويأمل علماء الجيولوجيا ان تسفر هذه المباحث عن توسيع نطاق معرفتهم ببناء قشرة الارض وما ينشأ منها من الحركات . وفي فبراير الماضي قامت البعثة الجيولوجية الدولية الى جزائر الهند الغربية — وهي بعثة اعدتها جامعة برنستن الاميركية وأيدتها وزارة البحرية الاميركية ومصلحة المساحة الجيولوجية الاميركية والجمعية الملكية بلندن . ومن معدات هذه البعثة غواصة جهّزت تجهيزاً خاصاً لمسح بقعة من قعر البحر حوالي تلك الجزائر مساحتها ٥٠٠٠ ميل مربع واعداد خريطة لها . ثم فيها آلات خاصة كالتي تستعمل في تقدير وزن الارض لتقدير وزن الجزائر المختلفة . ومما سوف تعنى به هذه البعثة حفر آبار عميقة في احدى جزائر بهاما لمعرفة بنائها الجيولوجي

وفي سنة ١٩٣٢ كذلك يحتفل « بالسنة القطبية الدولية » فتنشأ ٤٣ محطة في المنطقة القطبية الشمالية وخمس محطات في المنطقة القطبية الجنوبية عدا محطة دائمة في جزائر اوركني الجنوبية . ثم هنالك ٢٦ محطة اخرى يشترك مدبروها والمشتغلون فيها برصد تقلب الرياح واختلاف درجات الحرارة ، والمغنطيسية الارضية ، والشفق القطبي ، وارتفاع طبقة هيفيسيدكني^(١) ، وتكوّن الجليد والصقيع وغيرها من مقومات الجو الارضي

الكيمياء

قال الاستاذ تريت جنسن احد علماء جامعة ياييل « لست تجد اليوم حداً فاصلاً بين الكيمياء والطبيعة » . وقال الدكتور سدجوك الاستاذ بجامعة اكسفورد : « ان كان الحد الفاصل بين الرياضة والطبيعة قد اصبح غامضاً ، فالحد الفاصل بين الطبيعة والكيمياء قد زال . وكلا العلمين يُعنى الآن بدرس مسائل واحدة » ولكي ادل على نوع هذه المسائل التي تعنى الكيمياء بدرستها اسوة بعلم الطبيعة اذكر الموضوعات الكيميائية التي هي رهن البحث الآن في معمل من اشهر معامل البحث الحديث : — الغرويات ، الكيمياء الكهربائية ، فعل الضوء الكيميائي ، امتصاص الضوء — الاشعة التي ترى منه والاشعة التي فوق البنفسجي وهي لا ترى — واستعمال اشعة اكس في معرفة بناء البلورات ، والمواد التي

(١) طبقة هيفيسيدكني هي طبقة فوق سطح الارض من الهواء المكهرب تفعل كما كس للامواج الاسلكية تمنعها عن الانطلاق في رحاب الفضاء

تسرع الاستعمال الكيميائية من دون ان تنفذ فيها ^(١) والاثار الكيميائي للانبعاثات الكهربائية في الغازات ، وامتصاص الاشعة التي تحت الاحمر وعلاقته ببناء الجزيئات وتشتت الضوء في السوائل وغيرها . ويندر ان تجد مبحثاً من هذه المباحث الكيميائية مهماً عند العلماء الذين يبحثون في معامل البحث الطبيعي

ثم ان الفاصل بين الكيمياء العضوية وعلوم الاحياء اصبح رقيقاً ولكنه يزول في الكيمياء الحيوية Biochemistry في معامل البحث التابعة للشركة الكهربائية العامة حيث يشترك علماء الطبيعة وعلماء الكيمياء في استكشاف مجاهل الكهربائية ، لقيت عالماً يجرب تجاربه باطلاق الاشعة اللاسلكية القصيرة على ذباب الفاكهة والصراصير معرفة اثر هذه الامواج في الاحياء . وفي معمل البحث البيولوجي بجامعة تكساس يقيم الدكتور ملسر الذي اثبت ان اشعة اكس تحدث تحولاً فجائياً mutation في ذباب الفاكهة وقد اعدوا لذلك مصباحاً قوياً لتوليد اشعة اكس واستعمالها في سبيل هذا البحث . ورغم ما نشهد من الاشتراك بين علماء الطبيعة وعلماء الكيمياء في معالجة موضوعات واحدة نستطيع ان نتبين ثلاث مباحث رئيسية يغلب فيها الاتجاه الكيميائي البحث على الاتجاه الطبيعي البحث وهي فيما يلي :

١ — المادة في الحالة الغروية . خوالي عام ١٨٦٠ جرب جراهم الانكليزي تجارب كثيرة الغرض منها درس انتشار المواد المذابة فثبت له ان دقائق الاملاح والمرتكبات المذابة تنتشر في السائل اي تنتقل من مكان الى آخر بسرعات متفاوتة . ثم ان بعض هذه المواد في استطاعتها ان تنفذ من خلال مسام الرق والاعشبة الحيوانية ، وبعضها لا يستطيع ذلك رغم كونه مذاباً في محلول رائق شفاف . فاطاق على الاولى اسم بلوريات Cryatalloids لانه وجد معظمها من المواد القابلة للتبلور مثل السكر والملح واطلق على الثانية اسم غرويات Colloid وهي مشتقة من الكلمة اليونانية Kolla ومعناها غراء لانه وجد اغلبها من المواد الغروية كالغراء والنشاء والجلاتين وجلسها ينتفخ اذا بُلّ بالماء ولا تظهر عليه علامة من علامات التبلور . فهذا الفرع من الكيمياء اصبح ذا شأن عظيم في الصناعة التركيبية ^(١) . ثم ان له شأناً خطيراً جداً في معرفة طبيعة المادة الحية اذ وجد ان المادة الحية مركبة من مواد غروية ومستحلبات . فالاحياء من الاميبا الى الانسان لا تخرج عن كونها مجموعة من المواد الغروية وخاضعة للكيمياء الغروية

٢ — الوسيط الكيميائي Catalyst لبعض المواد اثر في الافعال الكيميائية كاثر الوسيط بين متخاصمين . فهي تمهد السبيل لاتحاد عنصر بآخر او مادة بأخرى او هي تسرع هذا الفعل وهي مع ذلك لا تدخل في الفعل ذاته ، اي لا تتحد بالمواد المشتركة فيه . وتراها بعد تمام الفعل الكيماوي هي لم يصبها تغير قط . ولا تزال طبيعة هذه المواد الكيميائية

(١) تعرف هذه المواد بالانكليزية باسم Catalyst (٢) راجع مقالة الغرويات في مقنطف دسبر

الغريبة غامضة . ولما كان علماء الاحياء والكيمياء الحيوية قد اخذوا يظنون ان الهرمونات (مفرزات الغدد الصماء) والفيتامينات هي في افعال الجسم الحيوية «كالكاتالست» في الافعال الكيميائية ، فالنفوذ الى سر هذه المواد يصبح ذا شأن كبير الخطر

٣ - فهم التفاعل الكيميائي من وجهته الميكانيكية . كيف تتوازن السوائل ، وما يحدث الجزيئات في التغيرات الكيميائية ، وما حقيقة الالفة الكيميائية ، وكيف تفعل فعلها - ان هذه المسائل القديمة التي لم تفهم على حقيقتها بعد ، تنتظر من يطبق نظرية « الكونتم » والميكانيكيات الموجية على جزيئات المادة لعلها يمكننا من فهم ما خفي من امرها

الطبيعة

بين المسائل التي تشغل اذهان علماء الطبيعة ترى في المقام الاول استنباط وسائل لتوليد قوى كهربائية كبيرة (اي ذات ضغط عال جداً) يسمو الى نحو ١٠٠ مليون فولط واعظم ما ولد حتى الآن مليوناً فولط) واستعمالها . ثم تحديد طبيعة القوى التي تربط بين الذرات في الجزيئات والبلورات . فسألت الدكتور كارل كهطن رئيس معهد مستشوستس الهندسي الفني عن رأيه في أعظم المشروعات العلمية التي اعدّها علماء الطبيعة لسنة ١٩٣٢ فقال : توليد القوة الكهربائية ذات الضغط العالي لانها تجهزنا بوسيلة يمكننا من معالجة مسألتين من اعوص مسائل الطبيعة الحديثة وهما - ما هي الاشعة الكونية ؟ وكيف نستطيع اطلاق طاقة الذرة ؟ فقد اقترحت آراء مختلفة لتفسير سر الاشعة الكونية ولكن الحقائق اللازمة لبناء الآراء الصحيحة قليلة . ثم ان بين الاشعة الكونية التي تأتي من رحاب الفضاء والاشعة التي نستطيع توليدها في المعمل الطبيعي (كاشعة غما) هوة بعيدة . فالاشعة الكونية اقصر امواجاً واشد نفوذاً من اشعة غمما . واذاً فلا يمكن تكوين رأي قريب من الصواب عن الاشعة الكونية من مقابلتها باشعة غمما . فاذا بني انبوب من انابيب اشعة اكس ، يولد كهربائية ضغطها يتراوح بين ٥٠ مليون فولط و ١٠٠ مليون فولط استطعنا ان نولد اشعة تقرب في قصر امواجها من قصر امواج الاشعة الكونية . وهكذا نستطيع من درس كل الاشعة - من الاشعة اللاسلكية الى الاشعة التي تحت الاحمر الى الاشعة المرئية الى الاشعة التي فوق البنفسجي الى اشعة اكس واشعة غمما والاشعة التي تتوسط بينها وبين الاشعة الكونية . واذا عرفنا طول الموجة تمكنا بتطبيق معادلة اينشتين ان نحسب الطاقة التي تحتوي عليها الموجة . هذه المعارف تمكنا من الاختيار بين قول جينز بان الكون سائر الى النفاد والموت وقول ماركس بان الكون في سبيل التكون بتولّد العناصر فيه وان الاشعة الكونية رُسُل حاملة لنا هذا النبأ وقد اثبت السر ارنست رذرفورد امكان تحويل العناصر باطلاق دقائق الفا على ذرات

النروجين فحوّله الى ايدروجين ، مع ان المقادير ضئيلة جداً ولا يمكن الآن استعمال طريقته لاجراج قدر كافٍ للتحليل الكيميائي . فاذا تمكنا من بناء آلات مولدة لكهربائية عالية الضغط — كما تقدم — استطعنا ان نطلق بعض الايونات بسرعة تتباين من ٥٠ الى ٦٠ الف ميل في الثانية ، واطلاقها بهذه السرعة يوسع نطاق معرفتنا بتحويل المادة واطلاق القوة المدخرة في الذرة اما المسألة الثانية فهي استكشاف داخل الذرة والبلورة ، وذلك يمكننا من توسيع نطاق معرفتنا ببناء الجوامد — وهو ضيق جداً اذا قيس بنطاق معرفتنا ببناء السوائل والغازات فالبحث في الجوامد يقوم الآن بتعريض المواد التي قيد البحث لدرجة حرارة واطئة — ٣٠٠ تحت الصفر بميزان سنتغراد — وحركة الجزيئات عند هذه الدرجة من البرد تبطئ كثيراً . فالذرتان اللتان يتكوّن منهما جزيء الايدروجين تهتزّان وتدوران اذا كان الجزيء على درجة من الحرارة العادية . فاذا هبطت حرارته الى درجة الهواء السائل وقفت الذرتان عن الدوران فالاهتزاز ، ولكن اهتزاز الالكترونات داخل الذرتين يستمر . فاذا « تجمد » الجزيء كذلك اطلق عليه الباحث الكترونات فيحدث اشعاع يحلّ بالسبكتروسكوب ويستخرج منه كيفية بناء الجزيء . وهذه الطرق نفسها التي اسفر تطبيقها عن نتائج خطيرة في بناء الذرات تطبق الآن لمحاولة معرفة بناء الجزيئات والبلورات في الجوامد

الفلك وبناء الكون

المسألة الجامعة لعناية الفلكيين هي الوصول الى معرفة حاسمة فيما يتعلق بحجم الكون وبنائه والعناصر التي يتألف منها . وهذه المسألة العظيمة ككل المسائل العلمية الكبيرة تتشعب الى مسائل اخرى لا تحصى

واحدث هذه الفروع واقواها اثرًا في اتجاه علم الفلك الحديث هو البحث في ابتعاد السدم اللولبية عنا بسرعات عظيمة تبلغ نحو ١٢ الف ميل في الثانية . ونتائج هذا البحث حملت اينشتين نفسه على ان يغير رأيه في السنة الماضية في نظريته الى بناء الكون ^(١) . فهو يسلّم الآن بالرأي الذي اقترحه فريدمان اولاً سنة ١٩٢٢ ثم ذكره الاب ليمتر على حدة سنة ١٩٢٧ وهو ان الكون آخذ في التمدّد كفقاعة صابون تنفخ فيها

وقد قال لي هارلو شابلي مدير مرصد جامعة هارفرد واحد اعلام الفلكيين المعاصرين ان اعظم مشكلة يواجهها الانسان في هذه الناحية هي استنباط وسيلة جديدة لحل هذا الغز الكوني . فهذه المجموعة الغروية الغريبة التي ندعوها الانسان يجب ان تخلق ادوات رياضية جديدة ونظاماً جديداً من الميكانيكا لفهم هذه المفارقة الغريبة والتوفيق بين طرفيها — كون نهاي ولكنّه مع ذلك آخذ في الاتساع !

(١) راجع تفاصيل هذا الموضوع في مقطف ديسمبر ١٩٣١ تحت عنوان « ما وراء المجرة »

الاعداد العلمي ومستقبل النشء

للككتور على مصطفى مشرفة

وكيل كلية العلوم واستاذ الرياضة التطبيقية فيها

شرع الجمع المصري للثقافة العلمية في طبع كتابه السنوي الذي يشتمل على المحاضرات التي القيت في المؤتمر السنوي الثالث برئاسة الدكتور شاهين باشا . ولما كان موضوع التعليم ومستقبل المعلمين من أعقد المشكلات التي نواجهها رأينا ان نشر جانباً كبيراً من محاضرة الدكتور مشرفة

لنفرض أن رجلاً من أهل القرون الوسطى بُعث من مرقده اليوم فقلب نظره في مظاهر حياتنا واسباب عمراننا ثم لنفرض أننا وجهنا إليه هذا السؤال « ما الفرق بين أحوال أهل الأرض في القرن العشرين وبين أحوالهم في حياتك الأولى ؟ »

أظن أنه إذا حاول الإجابة عن هذا السؤال لأول وهلة فإن جوابه يكون على النحو الآتي « إنني أجد أحوالكم تختلف عما كانت عليه حياتنا في كثرة الآلات التي تستخدمونها وفي تنوع الأدوات التي تصنعونها وفي عظم الابنية التي تشيدونها والمبتدعات التي قد توصلتكم إلى انشائها مما تغلبتم به على الطبيعة إلى حد يحار فيه لي » . ولا شك في أن هذا الجواب يمثل إلى حد ما حقيقة الفرق بين حياتنا في القرن العشرين وحياتنا يوم أن كنا نمتطي الانعام ونستنير بالزيوت . فمدنيتنا الحديثة في ظاهرها مدنية عُدَدِ وآلات، مدنية قاطرات وسيارات، مدنية ناطحات السحاب وانفاق في جوف الأرض، مدنية طيارات وغواصات، ومن منا لا يفتخر بمحونا للمسافات الشاسعة باللاسلكي وانتصارنا على الظلام بالانوار الكهربائية الساطعة وقهرنا للجراثيم بالمصال الواقية والعقاقير الشافية ؟ أقول إن جواب صاحبنا يمثل الحقيقة إلى حد ما لأنه لا يمثل الحقيقة كلها بل هو يمثل سطح الحقيقة — إن جاز لي أن استعمل هذا التعبير — أما قلب الحقيقة فأعمق مما عن لصاحبنا لأول وهلة . ف وراء هذه المظاهر التي تدركها حواسنا لمدنيتنا الحديثة يوجد العامل المحدث لها جميعاً والسبب الأولي الذي إليه مرجع وجودها . هذا العامل المحدث والسبب الأولي هو العقل البشري . والفرق الحقيقي أيها السادة بين القرن العشرين وبين القرون الوسطى هو الفرق بين العقل البشري في القرن العشرين والعقل البشري في القرون الوسطى . وإذا أردنا أن نفهم سر مدنيتنا الحديثة فهنا حقيقة

فعلينا أن نفهم التطور الذي حدث في تفكير البشر . أما القاطرات والسيارات واللاسلكي والامصال والاصباغ فهذه إن هي الا نتائج لتطور العقل البشري وصنائع استحدثتها عقولنا فالعقل هو الصانع وهذه الاشياء هي المصنوع ، العقل هو المكيف وهي المتكيف .
 بم إذن يمتاز العقل الحديث ؟ وما هي المزايا التي اكتسبها والتي مكنته من تشييد هذه المدنية التي نفخر بها ؟ الجواب على هذا أن العقل الحديث يمتاز بصفيتين أساسيتين هما الاعتماد على النفس وتنظيم التفكير . هاتان هما الصفتان اللتان مكنتانا من بناء سفننا وطياراتنا ومن التخاطب مع اقاصي الارض دون اتصال ظاهر ومن كل ما إلى ذلك من مظاهر حضارتنا . فأما الاعتماد على النفس فعناه أن يؤسس العقل معارفه وسائر مجهوداته على ما يتوصل العقل إليه بنفسه من الخبرة البشرية دون التسليم بما عده . فمثلهُ مثل الرجل يشرف على اموره بنفسه ولا ينقاد إلى غيره . وأما تنظيم التفكير فعناه ترتيب المجهودات الفكرية أولاً في حالة الفرد بأن يُجعل لها نظام واضح متناسق فينشأ عقل الفرد مهذباً متفقاً والمنطق الصحيح . وثانياً في حالة المجموعة البشرية بأن تتعاون عقول الافراد على تنظيم مجهوداتها المتعددة وبذلك تنشأ وحدة متماسكة منها جميعاً يصح أن يطلق عليها اسم عقل المجموعة أو العقل البشري المنظم .
 أيها السادة : إذا شئتم أن ينشأ اولادكم وإخوتكم وبناتكم واخواتكم بحيث يظلمون بمسئولياتهم في الحياة الحديثة إذا شئتم أن يواصلوا مجهودات الجيل الذي سلفهم في تقدم الحضارة وأن يتسلموا منهم علم مدينتنا فيرفعوه ويعلموا من شأنه إذا شئتم ان يحافظوا على التراث الذي سيرثونه وأن يزدوا عليه وينموه ، اذا شئتم هذا كله فعليكم قبل كل شيء آخر أن تعلموهم كيف ينظمون تفكيرهم وكيف يتعاونون بينهم ويتعاونون مع غيرهم من نشء الامم الاخرى في هذا التفكير المنظم . أو بعبارة اخرى عليكم بإعداد نشئكم إعداداً علمياً صحيحاً ومصر على وجه الخصوص في اشد الحاجة إلى هذا الاعداد العلمي لنشئها . فنحن كما تعلمون وإن كان اجدادنا قد قاموا بقسطهم وزيادة في تقدم العمران ورفع لواء الحضارة إلا أن أهل جيلنا يشعرون شعوراً حقيقياً بانهم مقصرون في تأدية هذا الواجب الاسمي نحو الاسرة البشرية ولذا فهم جادون في تدارك ما فاتهم عاملون على زيادة مجهوداتهم وأنا كواحد من هذه الامة مستبشر خيراً بما عساه ان يكون في المستقبل القريب رغم ما يعتورنا في طريقنا من العقبات فليست ثمة عقبة لا تتغلب عليها العزيمة الحقة المقرونة بالصبر والاناة

لذلك أردت أن أتحدث اليكم الليلة عن هذا الموضوع الحيوي وارتباطه بمستقبل النشء لعل بعض ما اثيره من البحث وما تعرض له من النقد والتحليل يساعد بعض المساعدة في التغلب على العقبات التي تقف اليوم في سبيلنا نحو تحقيق اغراضنا
 أولاً كيف نعد نشئنا إعداداً علمياً صحيحاً . أو بعبارة اخرى كيف نعوّدهم التفكير

الحزب المنظم ونحيطهم علماً في الوقت ذاته بنتائج تفكير الاجيال السالفة لكي يقفوا على ما قام به السلف وتكون عندهم الملكة على مواصلة مجهوداتهم . لا شك في ان التربية المدرسية والتربية الجامعية التي تليها هما — إذا صحَّتا — من اهم وسائل هذا الاعداد العلمي . ولست اريد في محاضرتي هذه ان تعرض لنظم التربية الحديثة او ان ابحث في عيوب المدارس المصرية . لست اريد التعرض لشيء من هذا أولاً لأن كثيرين غيري قد وقفوا انفسهم لخدمة هذا الغرض وثانياً لسبب ربما ادهشكم ان تسمعه من معلم احتك بالمدارس المصرية والجامعات الاجنبية طوال حياته . هذا السبب هو انني لا اعتقد ان نظمنا المدرسية والجامعية تنطوي على عيوب اساسية تستحق اثاره الرأي العام في شأنها . ربما ادهشكم ان تسمعون هذا مني ولكن مع ذلك اقوله كراي قد كونه بعد خبرة طويلة وتمهل كثير في ابدائه . فدارسنا وجامعاتنا في نظري والحمد لله بخير وعافية . ليس معنى هذا انها قد جمعت صفات الكمال ولكني اعتقد ان ما بها من عيوب كلها امور ثانوية تستطيع الامة ان تترك مداواتها للقائمين على ادارتها وان تثق بمقدرتهم على زيادة تحسينها وتنميتها بما يتفق والوظيفة التي تؤديها للامة . وفي رأيي ان المساعدة الحقة التي تستطيع الامة ان تسديها الى دور التعليم في مصر تكون عن طريق آخر غير طريق النقد الفني . فاذا نحن قارنا مركز دور العلم في مصر بمركزه في الامم الاخرى فإن الفرق الظاهر والمحسوس بينها انما هو النقص الواضح في مجهودات افراد الامة المصرية نحو مساعدة هذه الدور المساعدة الكافية . فكم من المصريين قد وقف جانبا من ماله على انشاء المدارس او معاهد التربية العالية أو على البحث العلمي ؟ كم من اساتذتنا ومعلمينا تدفع لهم مرتباتهم أو مكافآتهم من اموال وقفت على هذا الغرض ؟ هل يوجد في مصر قرش واحد خصص ريعه للبحث العلمي ؟ هل تقدم احد من المشتغلين بالزراعة في مصر بهبة ينفق ريعها على البحث الزراعي العلمي أو مول صناعي بانشاء معهد لتعليم صناعي أو هندسي ؟ أو محسن بانشاء كرسي في الجامعة لدراسة الكيمياء والعلوم الطبية أو علوم النبات ؟

ولننتقل إلى غير دور التعليم من وسائل الاعداد العلمي . تعلمون حضراتكم ان الجمعيات العلمية هي من انجع الوسائل في تثقيف الامة نشأ وكهلاً وذلك بما تنظمه من المحاضرات العلمية وما تنشره من الصحف والمجلات التي تتداولها ايدي الشبيبة فتعمل على رفع مداركهم وزيادة ثروتهم الفكرية وتعويدهم اساليب التفكير الصحيح . كما ان المجلات العلمية الصبغة تؤدي مثل هذا الغرض . ومصر الى الآن مفتقرة الى كثير من مثل هذه الجمعيات وهذه المجلات ، يُنشأ لا في القاهرة وحدها ولكن في سائر مدن القطر المصري بل وفي القرى والمجهد الذي اقوم به الآن من القاء هذه المحاضرة عليكم هو نتيجة من نتائج تأليف جمعية علمية من هذه الجمعيات لم يحضر بعد على تأليفها ثلاث سنوات ومع ذلك فقد

قامت بخدمات تذكر نحو نشر الثقافة العلمية في مصر

وهناك اداة اخرى للاعداد العلمي لا تقل شأنًا عن سابقتها ألا وهي المكاتب العامة. فقديمًا قيل ان الكتاب خير صديق وأنا اصارحكم القول بأن عادة الاستفادة من المكاتب العامة عادة غير مألوفة في مصر حتى ولا بين خيرة المتعلمين من المصريين . فكثيراً ما يدهشني ان اتحدث الى صديق متعلم فأجد انه لا يكاد يقرأ شيئاً سوى جريدته اليومية وبعض المجلات الخفيفة الروح ولا شك في ان هذا راجع إلى حد ما الى قلة ما يكتب باللغة العربية من الادب العصري والعلم المتبسط في شرحه . ومع هذا فاني أرى ان انشاء المكاتب العامة في مختلف انحاء القطر سيعمل على ترغيب الجمهور في القراءة والاستفادة من الكتب لا سيما اذا اختيرت الكتب التي من شأنها ان تستثير اهتمام الناس وترغيبهم في قراءتها

الى هنا انتهى كلامي عن الاعداد العلمي ووسائله وبقي ان اتعرض للشطر الثاني من عنوان محاضرتي وهو المرتبط بمستقبل النشء بعد ان يُعَدُّوا هذا الاعداد العلمي . لنفرض إذن انه اتيح لنا ان نجهز دور تعليمنا ومكاتبنا العامة بسائر وسائل الاعداد العلمي واننا انشأنا الجمعيات العلمية وأصدرنا المجلات لنشر الثقافة العلمية في طول البلاد وعرضها بل واننا نجحنا فعلاً في تخريج شبان قد تثقفت عقولهم وتدرّبوا على التفكير العلمي الصحيح وعرفوا ما وصل اليه الجيل الحاضر في مختلف العلوم البحت منها والتطبيقي فكان منهم الاخصائيون كل في فرعه فمن كيميائي الى طبيعي الى رياضي الى مهندس الى طبيب وهكذا . هل نعتبر حينئذ نحن ابناء الجيل الحاضر اننا قمنا بواجبنا نحو نشئنا ؟ وبعبارة اخرى هل يكفي ان تفكر في اعداد النشء دون ان تفكر في مستقبلهم ؟ ان واجب الجيل الحاضر نحو الجيل القادم ايها السادة ليس مقصوراً على تدريبهم في الادوار الاولى من حياتهم بل يجب ان يشمل قيادتهم في ميدان الحياة ذاتها والا لكان مثلنا مثل قائد الجيش يشرف عليه في تمرينه ثم يتخلى عنه حين يشتبك في المعركة . هذا مثلٌ على نقصه — وكل مثل يقف عند حد من الحدود — يمثل لنا الموقف تمثيلاً يساعدنا على فهمه . فعقلاء الامة ومفكروها الذين يجب ان يكونوا قادتها عليهم واجب التفكير في مستقبل ابنائهم ومن يقومون على ارشادهم وذلك بتوجيههم في مرافق الحياة توجيهاً يتفق مع مصلحة الامة والاقتصاد في مجهوداتها . فعليهم ان ينشطوا المجهودات التي من شأنها أن تعمل على تقدم الامة وزيادة فلاحها وأن يهيئوا اسباب توافر هذه المجهودات وتوافر وسائلها حتى اذا خرج النشء من دور التدريب والتعليم مكوّنين تكويناً علمياً صالحاً وجدوا امامهم سبلاً يسلكونها في خدمة أممتهم وفي خدمة الانسانية ولم يلقوا انفسهم في مأزق تتخرج بهم فتزل في نفوسهم اليأس وتحل القنوط والتخاذل مكان الأمل والنشاط وربما كان من اهم المشاكل التي تواجهنا اليوم في مصر هذه المشكلة مشكلة ابنائنا المتعلمين.

تحدث اليّ احد الاخوان الذين يتعرضون لمشاكلنا الاجتماعية والاقتصادية — وكثير ما هم — فقال انه يرى ان التعليم في مصر قد زاد عن الحد بحيث اصبح خطراً يخشى منه على نظام المجتمع . هذا مثال من الآراء التي نسمعها كل يوم ، مثال من المغالطات التي تنطلي على كثير من لا يكلفون انفسهم مؤونة درس ما يلقى عليهم . أيتكلم عن خطر التعليم في بلد لا يزال أربعة ائماس سكانها أميين ، بلدها ١٤ مليون نسمة فيها جامعة واحدة ومدرسة واحدة للهندسة . بلد زراعية ليس فيها إلا مدرسة واحدة عليا للزراعة ؟ انني أؤكد لحضراتكم أن لا خطر على مصر من زيادة تعليم ابنائها تعليماً أولياً أو ثانوياً أو متوسطاً أو جامعياً إنما الخطر في ان لا نضطلع بمسئولياتنا نحن ابناء الجيل الحاضر فنهمل امر مستقبل شبابنا ونتركهم وشأنهم ، جلبهم على غاربهم . وبعبارة اخرى ان لا يتمشى تنظيمنا لأعمالنا الاقتصادية والزراعية والفنية مع سياستنا في التعليم . فكما أن علينا ان ننشئ المدارس ونفتح ابواب الجامعات كذلك علينا في الوقت ذاته أن نوجد المصانع والمعامل والمراسد والمستشفيات وسائر الأعمال الفنية وعلينا بعد هذا كله أن نوجه النشء في إعدادهم العالمي توجيهاً يتناسب مع الحاجة إليهم في هذه المصانع وهذه المراسد وهذه الأعمال الفنية . إن المهمة أيها السادة مهمة ليست بالسهلة محتاج الى امعان الفكر والروية كما محتاج الى الخبرة والحكمة والبعد عن كل مؤثر إلا مصلحة الامة ذاتها . ومن سوء الحظ أن تطوّر مصر في السنوات الاخيرة كان تطوّرأ متقلباً لا يسمح بوجود سياسة داخلية ثابتة تعمل سنين متوالية حتى يظهر أثرها . وقد نشأ عن ذلك تضارب بين المشروعات التي ترمي إلى اعداد النشء والمشروعات التي تحتاج الى خدماتهم . مثال ذلك انني سألت صديقاً لي يشرف على مصلحة فنية من مصالح الحكومة هل هو بحاجة الى خدمات بعض خريجي كلية العلوم بالجامعة المصرية ممن تخصصوا في علوم مصطلحته فقال إنه يأسف لأنهم أرسلوا إلى أوروبا عدداً من المصريين ليتخصصوا في نفس هذه العلوم وهم إذا عادوا سيسدون حاجة هذه المصلحة تماماً بحيث لا يكون هناك مكان لخريجي جامعتنا . ألا ترون حضراتكم ان مثل هذا التضارب كان يمكن تلافيه لو أننا فكرنا في سياسة مشتركة بين من يعدون النشء من ناحية ومن يحتاجون إلى خدماتهم من ناحية أخرى بحيث يمكن التوفيق بين مجهودات الطرفين بما ينفع ومصلحة البلاد ؟

أريد أن يكون مفهوماً في حديثي إليكم الليلة انني لا ألتقي لوماً على أحد ولا أتعرض لماضي على أنه مضي . وإن كان هناك لوم فهو ولا شك موزع علينا جميعاً بحيث لا يخص الفرد منا منه إلا نصيب ضئيل لا يستحق الذكر . إلا أن الماضي يجب ان يكون عبرة للمستقبل وأمل ان أكون بالقائي كلتي هذه الليلة قد قمت بخدمة ضئيلة ايضاً لا تستحق الذكر لعلها خدمة موجبة — لا لوم سلمي — نحو خدمة قضية التعليم في مصر وأثره في تقدم الامة ورفاهيتها

قصة رفيق الشعري



ليس « رفيق الشعري » موضوع هذه القصة من رجال الحب المشهورين كابن ابي ربيعة ودون چوان ولا هو من ابطال اصحاب الخيال في الآداب العالمية كهملت والملك لير وغيرها في مآسي شكسبير، وكان فلجان ودافيد كورفيلد واندريه كورنيليس وبسبت في روايات هوغو ودكنز وبورجو وسنكلير لويس . بل ان رفيق الشعري لا يمت الى الانسانية الا بحبل ضئيل من الضوء لا تبيّنه الا عدسة التلسكوب، لانه نجم صغير لا تراه العين المجردة على مقربة من الشعري اليمانية في كوكبة الكلب الاكبر . ومع ذلك له قصة تجتمع فيها نواحي بعض القصص البوليسية من بحث عن « غامض » والمكر والدهاء في استجلائه . والشعري ابهى الكواكب في القبة الزرقاء ، ولذلك رصدها علماء الهيئة من اقدم العصور واستعملوها كما استعملوا غيرها من الكواكب المتألقة لضبط الوقت . ولكن ثبت لدى مراقبتها وموالاته رصدها انها لا تصلح لضبط الوقت قط ، لأنها تتقدم في شروقها وغروبها رويداً رويداً في بعض السنين ثم تتأخر في الاخرى . وفي سنة ١٨٤٤ فسر بسل (Bessel) سبب هذا الاختلاف بقوله ان الشعري تسير في فلك اهليلجي . واذا كانت تسير فعلاً في فلك اهليلجي فلا بد من وجود جسم في احد محترقي هذا الفلك تدور حوله . وعليه قال العلماء بوجود كوكب مظلم داخل ذلك الفلك لم يره احد من قبل ومن المشكوك ان احداً في اواسط القرن الماضي كان يظن ان رؤيته مستطاعة . ودعي هذا الكوكب رفيق الشعري . ويظن السر ارثر ادنجتون انه اول كوكب خفي عن الابصار اعترف العلماء بوجوده . ومع ذلك لا يصح ان يحسب وجود كوكب كهذا من قبيل الافتراض . فخواص المادة الميكانيكية اهم جداً من مجرد كونها ظاهرة لعين الانسان — اي ان عدم ظهورها لعين الانسان لا يمكن ان يؤخذ دليلاً على وجودها او عدمه . فاننا مثلاً لا نستطيع ان نحسب وجود لوح زجاجي صافي الاديم وجوداً مفترضاً لاننا لا نستطيع ان نرى الزجاج . واذا سلم العلماء بوجود شيء على مقربة من الشعري له صفة من اخص صفات المادة وهي صفة جذب المادة المجاورة له . وهذا الجذب ابعد أثراً في اثبات وجود جسم من مجرد المقدرة على رؤيته ومع ذلك لم تنقُض ثمانى عشرة سنة على افتراض وجود رفيق الشعري حتى رآه الثن كلارك صانع التلسكوبات الاميركي المشهور . واكتشافه لهذا الكوكب كان غريباً في بابه . فان الثن كلارك كان يرصد الشعري لا لشدة عنايته بها ولكن لانها نقطة لامعة من الضوء في كبد السماء يستطيع ان يضبط بها اتقاف الصقل في عدسة جديدة كان في سبيل صنعها . ولعله

لما رأى نقطة ضئيلة من الضوء قرب الشعري تأسف شديد الاسف حاسباً ان وجودها سببه خطأ او خلل في صقل العدسة. فاعاد الكرة على عدسته مدققاً في صقلها ولكن النقطة الجديدة من الضوء على مقربة من الشعري لم تزل. وقد ثبت بعدئذ انها تمثل رفيق الشعري المذكور ان رؤية رفيق الشعري الآن بالتلسكوبات الحديثة امر ميسور، وقد اتسع نطاق معرفتنا به في العهد الاخير، فثبت انه كوكب لا تقل كتلته عن كتلة الشمس، وعند التدقيق ان كتلته تبلغ $\frac{1}{4}$ كتلة الشمس. ومع ذلك فانه يبعث بضوء لا يبلغ الا جزءاً من ٣٦٠ جزءاً من ضوء الشمس. وضآلة ضوئه هذه لم تدهش الباحثين في اول عهدهم به لانهم لم يكونوا قد توصلوا الى معرفة علاقة الكتلة بمقدار الضوء فحسبوا انه من النجوم التي لم تبلغ في حموها الا اول درجة الحمرة، ولذلك فضوؤها ضئيل

ولكن في سنة ١٩١٤ وجد الاستاذ ادمز من علماء مرصد جبل ولسن — وهو مديره الآن — ان رفيق الشعري ليس نجماً احمر، بل انه بلغ درجة البياض لشدة حرارته. وهذا مدهش. اذا كانت كتلة هذا النجم مقاربة لكتلة الشمس، فلماذا لا يشرق بضوء قريب من ضوئها؟ لا بد ان يكون حجم النجم اذاً صغيراً جداً. لانه اذا كانت كتلته من رتبة كتلة الشمس، ولمعان ضوئه من طبقة لمعان ضوئها، فلا بد ان تكون مساحة سطحه صغيرة ازاء مساحة سطحها، ولذلك لا ينبعث من هذا السطح ضوء يتفق وكتلة النجم وشدة حرارته. وحسب قطر النجم فاذا نصف قطره يجب ان يكون $\frac{1}{4}$ من نصف قطر الشمس واذا كرتة صغيرة قريبة من كرة سيار لا من كرة شمس. ولما دقق العلماء في تعيين مقاييسه وجدوا انه متوسط في حجمه بين الارض واورانوس ولكن... ولكن اذا شئت ان تضع مادة وزنها من قبيل وزن الشمس، في كرة لا تفوق حجم الارض كثيراً، وجب ان تحشكها حشكاً. والواقع ان كثافة المادة في كرة رفيق الشعري تبلغ ٦٠ الف ضعف كثافة الماء اي ان كل بوصة مكعبة من مادته تزن طنّاً! وعلماء الفلك لا يستطيعون ان يعلموا شيئاً عن النجوم الا بالنقاطهم الاشعة الواصلة منها وتفسير ما تحتوي عليه من الانباء. وهم اذا حلوا رموز الانباء الواردة الى الارض من رفيق الشعري كان مؤداها: «انا رفيق الشعري مبني من مادة تفوق ثلاثة آلاف ضعف ا كثر مادة عندكم. ان طنّاً من مادتي لا يزيد على سبيكة صغيرة نستطيعون وضعها في علبة من علب عيدان الكبريت» وأي جواب يستطيع العلماء ان يجيبوا به على هذه الرسالة؟ ان جوابهم في سنة ١٩١٤ كان: «هذا كلام لغو»

ولكن في سنة ١٩٢٤ اخرجت النظرية القائلة بأن ذرات المادة في الاوساط التي بلغت حرارتها درجة عالية جداً — كحرارة قلب نجم — تتجرد الكترولونات عن النوى وحينئذ تحت ضغط كتلة النجم يمكن حشك الالكترولونات والنوى حشكاً يجعل مادة قلب النجم شديدة

الكثافة، شدة لاعهد لنا بمثلها على الارض. فلما اخرجت هذه النظرية استعداد العلماء ذكر الرسالة الواردة من رفيق الشعري بعد ما صدفوا عنها حاسبين انها كلام لغو . ولكن لم يسلموا في الحال بصحة ما تنطوي عليه . انما هموا بالانصراف الى امتحانها والتدقيق في تطبيق النظرية على محتوى الرسالة . وهو ما لا نفعله عادة « بكلام لغو »

ولا بد من القول هنا ، بأنه كان متعذراً على العلماء ان يهملوا مؤدى الرسالة كل الاهمال . فلا ريب قط في ان كتلة رفيق الشعري تبلغ $\frac{1}{3}$ كتلة الشمس ، لأنها قيست بأبرع الوسائل المستعملة في قياس كتل النجوم . ثم انه بديهي ان تكون كتلته كبيرة جداً ، لأنه استطاع ان يحرف الشعري عند مسيرها . اما قياس قطره فتم بطريقة غير مباشرة ولكنها مع ذلك دقيقة جداً . وقد امتحنت قبلاً وصحّت . فقد قيس بها قطر منكب الجوزاء ، ولما استنبط ميكلصن آلتة المعروفة « بالانتر فرومتر » وقاس بها قطر منكب الجوزاء قياساً مباشراً تطابق القياسان . ثم ان رفيق الشعري ليس النجم الوحيد الذي يمتاز بهذه الكثافة في مادته . فمئة نجمان معروفان يشبهانه في هذا . واذا حسبنا حساباً لضعف وسائل الرصد التي نملكها لم نستبعد ان تكون هذه « الاقزام البيضاء »^(١) كثيرة بين النجوم

ولكن يجب الا نكتفي بأول تعليل يخطر لنا ، لئلا يقودنا الى الخطأ . لذلك عني الاستاذ ادمز في سنة ١٩٢٤ بامتحان هذا التعليل بطريقة جديدة . ذلك ان نظرية اينشتين في الجاذبية تقتضي ، اذا حلّ ضوء نجم بالسبكتروسكوب ، حدوث انحراف في خطوط طيفه الى جهة اللون الاحمر ، اذ قوبلت بالخطوط الممثلة للعناصر الارضية . وهذا الانحراف في خطوط الطيف الشمسي ضئيل جداً ، يكاد يتعذر قياسه . ولكن الباحثين اجمعوا على ان هذا واقع ، مع ان بعضهم ظن اولاً ان ادلة تنافيه . الى هنا كانت نظرية اينشتين عند الفلكي ، شيئاً يحتاج الى امتحان بالطرق الفلكية ، ولكنه في هذه الحالة يستطيع ان يثبت صحتها في حالة غير منتظرة اذا خرجت مقتضياتها النظرية مطابقة للنتائج المشاهدة . فانحراف الخطوط الطيفية نحو اللون الاحمر (وهو ما يعرف بفعل اينشتين) يختلف باختلاف كتلة النجم مقسومة على نصف قطره . ولما كان نصف قطر رفيق الشعري صغيراً جداً ازاء كتلته فالانحراف يجب ان يكون كبيراً . وهذا يجعله قابلاً للمشاهدة . على ان المشاهدة شديدة الصعوبة لان رفيق الشعري ضئيل الضوء كما مر ولان ضوء الشعري يكاد يخفيه لشدة لمعانه . على ان الاستاذ ادمز صرف سنة في حلّ ضوء رفيق الشعري وقياس انحراف الخطوط الطيفية فيه فخرج بنتيجة متوسطة ١٩ في حين ان نظرية اينشتين تقتضي ٢٠ فاصاب الاستاذ ادمز بقياسه هذا عصفورين بحجر واحد . ففي الناحية الواحدة امتحن نظرية النسبية العامة امتحاناً جديداً ثم انه اثبت ان في العالم النجمي مادة كثافتها ٢٠٠٠ ضعف كثافة البلاتين

(١) دعيت اقزاماً لاصغر حجمها وبياض لشدة تألقها وحموها البالغ درجة البياض

المذاهب الحديثة في بناء المادة

للمستتر فندرسيل

استاذ الطبيعة في الجامعة الاميركية بالقاهرة

بشعور يخلط فيه الاقدام بالاحجام اقف اليوم امامكم لبسط بعض نواحي هذا الموضوع . فانا مقتنع كل الاقتناع بأنه بحث فتنان ، وانما يقعدني ، عجزي عن الاحاطة بنواحيه في اربعين دقيقة ، يقعدني ، سعة نطاق البحث والعجز عن تفسير الا جانب ضيق منه . ثم اني لا اعرف مدى معرفة السامعين بالطبيعة والرياضة ، فليعذروني بعضكم اذا اطلت الوقوف قليلاً ببعض النواحي ، لتفسير امور يعرفونها

لما اشرف القرن التاسع عشر على ختامه ، كان علم الطبيعة علماً كاملاً تقريباً . كان العلماء قد استخرجوا بعض الاحكام العامة الخطيرة ، في اثناء ذلك القرن او قبله ، اشهرها « ثبات الكتلة أو الجرم » و « حفظ الطاقة » و « ناموس الجاذبية » و « نظرية الضوء الكهرمغناطيسية » و « ناموس حفظ المادة » . فلم يبق حينئذ الا التدقيق في القياس والوزن للحصول على ادق ما يمكن الحصول عليه من درجات « الحرارة النوعية » و « عامل التمدد » . ولكن لم يكد القرن التاسع عشر يشرف على ختامه حتى اخذت تدب اليه عوامل التحوّل . وقد انقضت الآن ست وثلاثون سنة ، مذ بدت طلائع هذا التحوّل ، اجيبت في اثنائها مسائل كثيرة غامضة ، ووجهت مسائل اخرى . وافتن ما حدث في هذه الحقبة يدور حول بناء المادة . وفي الوقت الذي عيّن لي لا استطيع الا الاشارة الى اعظم الحوادث التي وقعت . فالاستاذ ملكن يذكر ٢١ حادثاً خطيراً في هذه الناحية تمت بين (١٨٩٦ — ١٩٢٦) ولكن بعض الحوادث التي وقعت بعد ١٩٢٦ لا تقل في خطورتها عن اخطر ما ذكره ملكن . وعليه فسوف أدير الحديث حول سبع مسائل هي مصدر حيرة لبعض الناس ، وصعوبة لاولئك الذين يحاولون التعمق في درسها والمسائل التي سوف نعرض لها على عجل هي : (١) — نظرية الكونتم ليلانك (٢) — الترابط بين الكتلة والطاقة (٣) — تحويل العناصر والمادة (٤) — بناء الذرة بحسب رذرفورد وبور (٥) — الميكانيكيات الموجية لشرويدنغر (٦) — مبدأ هيزنبرج في «عدم التثبيت» وعلاقته « بالسبب والمسبب » أو « بالعلّة والمعلول » (٧) — الناموس الثاني في علم « الثرمودينامكس » ومستقبل الكون وبوجه خاص الارض

في سنة ١٨٩٥ كشف رنتجن عن اشعة اكس (الاشعة السينية) وهي ضوء لا يرى بالعين يخترق المواد الكثيفة. وفي سنة ١٨٩٦ اكتشف بكرل فعل الاشعاع الذي فسر بعدئذ بأنه ناشئ عن انحلال المادة انحلالاً ذاتياً—اي من دون تسليط اي عامل خارجي عليها. ومن غريب ما يذكر في هذا الصدد ان فعل الاشعاع لا يمكن إسرأه ولا إبطأه في معمل البحث الطبيعي بوسيلة من الوسائل. فلا اقل درجات الحرارة التي يمكن الحصول عليها من الضوء الكهربائي القومي، ولا ادنى درجات البرد في الهواء السائل ولا درجات الضغط العظيم أو الفراغ الشديد، لها اي أثر ظاهر في سرعة انحلال الراديوم مثلاً. ومع ذلك فنحن نعلم ان هذا لا يصدق قط على الافعال الكيميائية العادية

كان الباحثون قد عرفوا اشعة المهبط (السالبة) والاشعة الموجبة، ولكن طمس (J. J.) قال في سنة ١٨٩٧ ان اشعة المهبط مؤلفة من دقائق تحمل كل دقيقة منها شحنة كهربائية سالبة. فهذه الاشعة تنحرف بفعل مجال كهرومغناطيسي (ويعرف هذا بفعل زيمان) ثم حسبت النسبة بين شحنة الذرة وكتلتها. ثم اثبت لورنتر (العالم الهولندي) ان الدقائق المتموجة التي تقتضيها نظرية مكسول الكهرومغناطيسية (التي نشرت سنة ١٨٦٤) تتصرف تصرفاً يقتضي النسبة التي اثبتها طمس لدقائقه (اي نسبة الشحنة الى الكتلة) ثم اطلق لورنتر على دقائق طمس الاسم الذي اقترحه «ستوني» Stoney وهو «الالكترون» فلما انبلج فجر القرن العشرين كان علم الطبيعة على طريق الانقلاب والحوادث تسير سراعاً أخذ بعضها برقاب بعض، ففي سنة ١٨٩٨ اكتشفت مدام كوري الراديوم ثم تلا ذلك اكتشاف العناصر المشعة من الاورانيوم الى الرصاص. هذا هو فاتحة العصر الجديد في علم الطبيعة

بلاك ونظرية الكونتم

لم تكتشف ظاهرات طبيعية جديدة فقط، وانما شرع بعضهم يعاينها تعليلاً فيه خروج على مبادئ الطبيعة المستقرة. وابعثها على العجب، وامعنها في الثورة على القديم، تعليقات ماكس بلانك التي نشرها سنة ١٩٠٠ اذ قال ان اشعاع طاقة الحرارة ليس عملاً متصلاً، ولكنه يحدث حدوثاً متقطعاً. فالطاقة التي تحتوي عليها موجة من الضوء تعادل عدد اهتزازاتها مضروباً في مقدار دقيق محدود يرمز اليه بحرف (h) وهذا المقدار على دقته ثابت لا يتغير. حيث تجد اشعاعاً فقوته من اضعاف هذا المقدار (h). ان وحدة القوة العادية هي «وط». والمصابيح الكهربائية العادية تستعمل الطاقة بمتوسط ٤٠ واطاً. و«الوط» ١٠ ملايين «ارغ» في الثانية. و«الارغ» هو وحدة «العمل» أو «الطاقة» وهو قدر صغير جداً لذلك لا يستعمل الا «الجول» في الشؤون الصناعية وهو عشرة ملايين «ارغ». ولكن «الارغ» على دقته صغير جداً اذا قوبل بمقدار بلانك (h). انه كقطرة

ماء ازاء مقدار كبير من الماء . تصوروا الماء المتصرف من خزان اسوان في فصل الفيضان فانه يبلغ نحو ٧٧٠٠ طن من الماء في الثانية. فاذا حسبنا ان هذا المقدار من الماء مضى يتصرف من الخزان ثانية فاخرى مدة ١٠٠٠ ٠٠٠ ١٦٣٣٢ — وهو نحو نصف الزمان الذي انقضى على الارض منذ تكونت سياراً مستقلاً — فلا ريب في ان مقداراً كبيراً جداً يتصرف منه . ان نسبة قطرة واحدة من هذا المقدار الى كل قطرته هي كنسبة مقدار پلانك الى « الارغ » . ومع ذلك فكل مصباح من هذه المصابيح الكهربائية ينفق الف مليون « ارغ » في الثانية فمقدار پلانك وحدة « عمل » دقيقة ولذلك دعاه « Quantum » ومعناه اصلاً مقدار فلما قال پلانك بانفصال الطبيعة لثق الفلاسفة، وتحير علماء الطبيعة في صحة قوله وما يفسر عنه من المفارقات، وظلوا كذلك حتى جاء بور النابغة الذمركي سنة ١٩١٣ وفسر الضوء، وبناء الذرات، بمقتضى نظرية پلانك . وسوف نعود الى هذا ، اذ نتكلم عن «بناء الذرة بحسب رذرفورد وبور»

الكتلة والطاقة

يتعذر ان نذكر اينشتين من دون ان نطيل المكث معه . وانما اريد ان اوجه عنايتكم الى نقطة واحدة جلستها «نظرية النسبية» — وهي العلاقة بين سرعة الضوء وسرعة جسم متحرك وكتلة ذلك الجسم وطوله . فلا ريب في ان كتلة الاجسام التي تستطاع رؤيتها بالعين او بالمكسر سكوب ثابتة وكذلك مقاييس اي جسم جامد فهي ثابتة اذا كان الجسم بمعزل عن قوى مشوّهة . ثم ان اينشتين اثبت ضرورة حسابان سرعة الضوء سرعة ثابتة لاعلاقة لها بالمشاهد، او بحركة المشاهد والمشهد . ثم انه علل التقلص الحادث في الاجسام المتحركة ، الذي قال به لورنتز وفترجرالد^(١) ومن الواضح انه اذا كان سرعة الاجسام نحو $\frac{1}{10}$ من سرعة الضوء فالتعديلات التي ادخلها اينشتين لا يمكن ان تدرك بالآلة او بحسب ، ولا اثر لها في الحسابات العملية . ولكن اذا كان جسم من الاجسام يسير بسرعة تعدل $\frac{1}{10}$ سرعة الضوء او تسعة اعشارها فتعديلات اينشتين كبيرة الاثر ويؤخذ من معادلات اينشتين انه اذا كان جسم من الاجسام سائراً بسرعة الضوء فانه يتقلص الى ان يصبح طوله صفراً وكتلته لا حد لها (اي ان كتلته تزيد بزيادة سرعته وطوله ينقص وفقاً لهذه الزيادة) فاذا سار الجسم بسرعة تزيد على سرعة الضوء اصبح طوله كمية سالبة (اي اقل من صفر) وكتلته اقل من اللانهاية (infinity) وكلاهما مما لا يتصوره العقل فينتج من ذلك انه يتعذر على اي جسم ان يسير بسرعة معادلة لسرعة الضوء او تفوقها

(١) يقول هذان العالمان ان طول جسم متحرك ينقص وان نقصه يعدل طوله وهو مستقر مضروباً بجذر المالى (١ — $\frac{\text{سرعة}}{\text{سرعة الضوء}}$) وان كتلة جسم متحرك تعدل كتلته وهو مستقر مقسومة على الجذر المالى (١ — $\frac{\text{سرعة}}{\text{سرعة الضوء}}$)

ولكن هل ثمة اجسام تسير بسرعة تضاهي سرعة الضوء؟ نعم. فاشعة المهبط والالكترونات تسير بسرعات تضاهي سرعة النور الثابتة. فان اشعة المهبط اذا مرت في حقل كهربائي انحرفت عن سيرها المستقيم انحرافاً يختلف باختلاف كتلتها وسرعتها. وكتلتها تزداد بازدياد سرعتها وبازدياد كليهما يقل انحرافها بالجذب الكهربائي. على ان انحرافها يختلف كذلك باختلاف شحنتها الكهربائية. وقد قاس طمس انحراف هذه الاشعة فوجد ما اثبت صحة رأي اينشتين في التقلص الذي قال به لورنتز وفنرجرالد

ان طاقة الحركة في دقيقة متحركة تعدل ١/٢ كتلتها مضروبة في مربع سرعتها. فبدأ «حفظ الطاقة» لا يمكن ان يكون له كيان مستقل بعد التطور الحديث، بل هو متصل بثبات الكتلة. وافعال الاشعاع تبين ان المادة ليست مستقرة على حال واحدة وان ذراتها تتفتت وتتجمع وتتحول الى طاقة — والرايوم اشهر الامثلة على ذلك — ففي هذا العصر زال من علم الطبيعة القول «بمحفظ المادة» واعيد القول «بثبات الكتلة» في شكل جديد وتحديد معنى «حفظ الطاقة»

نحوّل المادة

في القرن التاسع عشر، اقتنع علماء الكيمياء والطبيعة بان ما تصوّره اصحاب الكيمياء القديمة، من تحويل عنصر الى آخر، فعل مستحيل. فلما اكتشف الاديوم، وانحلال ذراته وتحويلها بعد نفاذ اشعاعها الى رصاص، دبّت الحياة في ذلك التصور القديم. والواقع ان الحلم باستخراج الذهب من الزئبق لم يتم. اما العلماء الذين يبحثون عن الحقيقة اكثر من بحثهم عن الذهب، فقد كشفوا عن حقائق كثيرة ذات بال. فانه على اثر مباحث رذرفورد وموزلي وبور، صنع مثال لبناء «الذرة». ولا يتسع المقام هنا الا لبعض نواحيه. فرذرفورد تصوّر الذرة مبنية من نواة صغيرة ثقيلة فيها تستقر الكهربية الايجابية، وتحيط بها دقائق من الكهربية السالبة. ثم جاء بور وجعل هذه الدقائق السالبة في افلاك حول النواة (لنعود الى هذا الموضوع) وتلاه موزلي فأبدع وهو لا يزال في ميعة الشباب، ناموس الاعداد الذرية وبحسبها رتب العناصر من الايدروجين الى الاورانيوم ترتيباً مشابهاً لترتيبها في جدول مندليف الدوري، وانما جعلها ارقاماً، كل رقم يمثل عنصراً — فالايديروجين (١) والاورانيوم (٩٢) — وكل رقم يمثل كذلك عدد الشحنات الموجبة في النواة الفائضة عن الشحنات السالبة. كما يمثل عدد الالكترونات حول النواة في ذرة كل عنصر واليك المثل:

الايديروجين	الهليوم	السكروم	الزئبق	الوزن الذري
١	٤	٥٢	٢٠٠	العدد الذري
١	٢	٢٤	٨٠	البروتونات في النواة
١	٤	٥٢	٢٠٠	الشحنات الموجبة الفائضة في النواة
١	٢	٢٤	٨٠	الالكترونات في النواة
١	٢	٢٨	١٢٠	الالكترونات حول النواة
١	٢	٢٤	٨٠	

اذ لا يخفى ان نواة الذرة مؤلفة من عدد من الالكترونات وعددها البروتونات. ولكن عدد البروتونات اكبر فشحنة النواة اذاً موجبة فتعدها الالكترونات السالبة التي خارج النواة وقد أثبت رذرفورد ان أشعة الفا ما هي الا ذرات هليوم مكهربة (او هي ايونات هليوم) وايون الهليوم هو ذرة هليوم فقدت الكترونيها الذين حول نواتها ، فظلمت نواة فيها اربعة بروتونات والكترونان واذاً فشحنتها الكهربائية «موجبة مزدوجة». فاذا اطلقت ذرة دقيقة من دقائق الفا ، فهذه الدقيقة يجب ان تكون قد انبعثت من النواة لان النواة هي المكان الوحيد في الذرة الذي فيه كهربائية موجبة. ويجب ان تنبعث من النواة اضعف مما كانت فيه. وهكذا تتحول الذرة من ذرة عنصر معين الى ذرة عنصر آخر. كذلك اذا انبعثت اشعة بيتا من ذرة ما تحولت تلك الذرة ، لانه ثبت بالتجربة ان دقائق بيتا لا يمكن ان تنبعث الا من النواة وذلك بترك النواة وفيها شحنة موجبة زائدة. وبوجه عام اذا انطلقت دقيقة الفا من ذرة عنصر كان الوزن الذري للعنصر الجديد اقل (٤) من العنصر الذي نشأ منه وكان عدده الذري اقل (٢) من الاول . واذا انطلقت دقيقة بيتا كان الوزن الذري للعنصر الجديد مساوياً للعنصر الذي نشأ منه وأما عدده الذري فيزيد (١) عن الاول. فتحول الزئبق الى ذهب مستحيل واما تحول الذهب الى زئبق فممكن — نظرياً على الاقل والراديوم يتحول فعلاً الى رصاص. فاذا كان اصل الراديوم من الثوريوم (عدده الذري ٩٠) انحل الى رصاص له وزن ذري معين . واذا كان اصله من الاكتينيوم (٩١) انحل الى رصاص كذلك ولكن الوزن الذري لهذا الرصاص يختلف عن الوزن الذري للرصاص الاول . واذا كان اصله من الاورانيوم (٩٢) انحل الى رصاص من صنف ثالث ذي وزن ذري يختلف عن الاثنين السابقين . ولكنها كلها رصاص وتحتوي على ٨٢ شحنة ايجابية في نواتها . وانما عدد البروتونات في الذرة الواحدة من الرصاص الاول ٨٢ وفي الثاني ٨٢ وفي الثالث ٨٢ ، اي ان الاوزان الذرية في الاصناف الثلاثة مختلفة ولكن الخواص الكيميائية واحدة . هذه الاصناف المختلفة من الرصاص تعرف بالنظائر (Isotopes) وكلمة ايسوتوب مؤلفة من لفظين يونانيين معناهما مكان واحد) فهي على اختلاف اوزانها الذرية تشغل محلاً واحداً في جدول العناصر والاستاذ استن الانكليزي هو ابو «النظائر» . وقد أبان ان فرض بروت ، الذي مضى عليه اكثر من مائة سنة ، جدير بالعناية والاحترام . فبروت يقول بأن الاوزان الذرية في كل العناصر يجب ان تكون اعداداً صحيحة . وهذا يصح على كثير من العناصر، ولا يمكن تعليقه بالاتفاق او الارجحية . وانما يعلمه استن بأن طائفة من ذرات الكلور التي وزنها الذري ٣٥ تكون في الاحوال العادية مختلطة بطائفة من ذرات الكلور ايضاً التي وزنها الذري ٣٦ فيخرج وزن الكلور الذري ٣٥.٤٦ ولما كان علماء الكيمياء يتناولون عدداً كبيراً من جزيئات الكلور وذراته في اثناء التجارب التي يجرونها لتحديد الوزن الذري ، فالوزن الذري يخرج دائماً ٣٥.٤٦

حول مؤتمر الموسيقى

إنّ في مصر اليوم مؤتمراً للموسيقى العربية . والناس عندنا يابون إلاّ ان يقال لها الموسيقى الشرقية حالة أن هذه شتى الانواع متباينتها : فالموسيقى الهندية وان كان لها طبلنا ومزمارنا غير موسيقانا ، والصينية أشبه شيء بالصراخ على حين أن موسيقانا الى الانين أقرب . هذا وان من المتبادر الى ذهني ان فئة من الناس يحتالون في ان يقال لموسيقانا الموسيقى المصرية ولا يخلو ما يحتالون فيه من الشطط . ذلك بأن الموسيقى المصرية حلقة أضيفت الى حلقات الموسيقى العربية منذ العهد الذي فيه اخذت مصر بأسباب الرقيّ

على أن الغرض من المؤتمر المشار اليه الاستحداث في موسيقانا والانتقال بها من طور قديم الى طور جديد . ولا شك أن بعض الناس غير مطمئنين الى ذاك الغرض لانهم يظنون ان في تهذيب الموسيقى العربية القضاء عليها . ثم انهم يعدّون الاستحداث فيها امراً فوق الامكان فيجعلونها وراء سنّة التحول . ولا يخفى على البصير وجه الخطأ فيما يذهبون اليه . والدليل على ذلك ان الموسيقى العربية تحولت منذ منشأها وداخلها من العناصر الغريبة عنها ما داخلها . ودونك تفاصيل ذلك :

كلنا يعلم — اللهم الا اذا ركننا الى نظريات المتصوفة — أن التقاليد العربية تجعل الحداء أصل الغناء ايام الجاهلية . وما الحداء إلاّ لحن بسيط متشابه الاصوات وزنه الرجز فيما يقول ابو الفرج الاصفهاني . وربما ناسب اهل ذلك العهد بين النغمات مناسبة بسيطة فاتوا بالسناد على قول ابن رشيق . ثم ان الابشيهي يسوق في المستطرف ^(١) ان للعرب الا الى نوعاً آخر من الغناء يقال له النصب وقد كان يعمد اليه الفتيان والركبان

ولما اشرق الاسلام ازوى اهل الله عن الرفاهية وشغلوا ساعات فراغهم عن وجوه اللذات بالعبادات . فكان الاذان وترجيع القراءة . ولما انقلبت الامة العربية الى حالة اقرب الى الجاهلية منها الى الاسلام وهي امر الدين وهبط الترف قصور بني امية حاملاً بين اعطافه كماليات الحياة . فجلّ قدر الموسيقى ولكنها أمست وشأنها غير ما كان بالامس . فلم يرو لنا صاحب كتاب الاغاني ^(٢) ان أبا محرز اقبل على تلاحين الروم والفرس واخذ منها ما تستريح

إليه الآذان العربية ثم مزج هذه التلاحين بعضها ببعض فجاء بشيء حسن . ثم إن الموسيقى الفارسية أثرت في الغناء العربي إلى حد بعيد : فهذا سائب خاثر أول من عمل العود بالمدينة وأول من تغنى بصوت عربي متقن الصنعة هذا فيه حذو نشيط الفارسي^(٣) ، وهذا ابن سريج قد رأى مع العجم الذين أتى بهم ابن الزبير لبناء الكعبة عوداً من صنعة عيدان الفرس فضرب به على طريقة الغناء العربي ضرباً اهتز له أهل مكة وطربوا^(٤)

وقد وقف فن الموسيقى في عهد بني أمية على غناء القصائد والمساوقة بالعود والطنبور وبالدف وغيرها . ولكن المغنين اقتصروا في صناعاتهم من طول ما تنافسوا فيها وتناقضوا وتنافروا^(٥) . فأحدثوا في النوح ومالوا عن الوزن الثقيل بعض الميل إذ جاؤا بالهزج والرمل فقصروا بهما الغناء . وما زالوا بالألحان حتى انتهوا بها إلى جودة أوشك الخلفاء أن يجسّسوا بها وكاد الناس يدرّكهم الغشي من أجلها

ثم كان عهد بني العباس فنزلت الموسيقى منزل العلوم وانتظمت بسلكها . فدوّن رواة الألحان الأغاني وألف الحكماء في أساليب الغناء والعزف . فكان من المدوّنين يونس وأحمد ابن المكي وعمرو بن بانه وبذل المغنية وأسحق الموصلي وأبو الفرج وتصانيفهم من الأصول التي عول عليها الناس وإليها رجعوا . وكان من المؤلفين أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندي وأبو نصر الفارابي وأبو علي الحسين بن عبدالله بن سينا وصفي الدين وأخوان الصفا إلا أن تقدم الموسيقى لم يكن مقصوداً على العلم دون العمل . فهذا اللحن الرقصي التمثيلي ، وهذه آلات الرقص وهذه الكُرَج التي يذكرها ابن خلدون في مقدمته ثم يشرحها فيقول : أنها تماثيل خيل من الخشب يمتطيها النساء ويقلدن بها الكرّ والفر والطعن والضرب . . . والغالب على الظن أن الكُرَج يرجع عهدها إلى الأمويين . فلم يقل جرير :

لبست سلاحي والفرزدق لعبة عليها وشاحاً كُرَجٍ وجلالته

وإن ننس لا ننس ونحن بين أيدي بني العباس أن نذكر ما طرأ على الموسيقى العربية من وراء ما صنع إبراهيم بن المهدي حين خرج على الغناء القديم فأنشأ مدرسة جديدة عبثت بقواعد الفن وحذفت منه الكثير إذ غنت غناءً قليل الصنعة سهل المأخذ . ثم قامت تناضل مدرسة إسحق الموصلي وتعيّرها باستمساكها بالقديم^(٦) . ثم لترو كيف استقام فن القراءة على أيدي الأباضي وسعيد العلاف وغيرها وكيف دسّ القوم في تلك القراءة بعض الحان الغناء

(٣) الأغاني (طبعة بولاق) ص ١٨٨ ج ٧

(٤) الأغاني (طبعة دار الكتب) ص ٢٥٠ ج أول

(٥) الأغاني (») ص ٢٧٤ وما يليها ج أول

(٦) الأغاني ص ٣٥ وما يليها ج ٩

والخداء والرهبانية^(٧). ثم لنذكر ما ابتكره زرياب في منهج التعليم اذ كان يبدأ بالصوت البسيط حتى يتدرج الى الصوت المركب ثم يجرى الصوت نفسه فيأخذ يطارح تلاميذه الوزن ثم اللحن مجرداً ثم ما يلحق باللحن من المدات والليات والعطفات

ثم لنخبر كيف عمد الاندلسيون الى الموشحات فابتدعوا فيها ما شاء الله ان يبتدعوا ثم جمدوا في مكانهم فلم تتقدم موسيقاهم شيئاً. وفي الامر ما فيه من غرابة. والتاريخ يسوق لنا أن موسيقى نصارى الاسبان ارتقت ارتقاءً حسناً قبل سقوط غرناطة اذ لحن القوم قدايس ذوات اربعة اصوات مختلفة. وكان هذا النوع من التلحين بادىء امر التأليف الموسيقي Harmonie. فكيف تغافل العرب عن هذه الموسيقى الرائعة مع رقيهم واستعداد عقولهم للفهم والاقتراس ومع لطف آذانهم؟ اما ولسنا نجد جواباً عن هذا السؤال فحسبنا ان ثبت الامر وملء جوانحنا الدهش. الا ان مستشرقاً فرنسياً يعلل اعراض العرب عن الموسيقى المؤلفة بعجزهم عن التأليف الجمعي (Multiplicité). وهيئات ان يرى رأيه لان فلاسفة العرب نظروا الى مناحي الحكمة نظرة شاملة والشمول اس التأليف الجمعي. ثم ان الاخباريين والمؤرخين يروون لنا ان الخلفاء كانوا يقيمون حفلات موسيقية يشترك فيها مائة من العازفين والمغنين فلا سبيل لنا ان نهم العرب بأنهم لم يعمدوا الى الموسيقى المؤلفة حتى تقع الينا اصواتهم وتلاحينهم مدونة فنتبصر فيها. ومما يؤسف عليه أن العرب — فيما يلوح لنا — لم يدونوا تلاحينهم وفي هذا الامر الآخر ما يجعلنا ندهش دهشنا الاول ولا سيما اذا علمنا ان الفرس كانوا يدونون ترانيمهم وان حكماء الاغريق اثبتوا ضبطاً موسيقياً (notes) في مؤلفاتهم التي اعتمد عليها المعلم الثاني وابن سينا. ولقد حاول بعض المستشرقين ان يعلل ذلك النقص بأقوال لا زراها سديدة منها ان العرب كانوا يعدون صناعة الغناء منقصة فلم يحملوا على ضبط تلاحينهم. وكيف لهذا القول ان يثبت على النقد اذا ادكرنا لطف مكان المغنين عند الخلفاء والوزراء والعمال

على أنا ذكرنا ان الموسيقى العربية جمدت عند اواخر القرن السابع فظلت تلك حالها حتى قبض الله لها ان تنتقل الى بلاد الترك فافتن فيها القوم وعملوا بالشرف. ثم ما زالت الموسيقى تتقدم قليلاً قليلاً حتى بلغت الغاية في الرقي ايام سليم الثالث. ثم ان الشاميين ولا سيما اهل حلب اقبلوا عليها فأعادوا اليها شيئاً من اغانيها الماضية. ثم ان المصريين انصرفوا اليها فاستحدثوا فيها التقاسيم والرقصات والانايد الى غير ذلك مما ننشط له اليوم، والفضل في ذلك راجع الى عبده الحمولي خاصة لانه نزع عن الموسيقى العربية جفوتها ودس فيها ترانيم تركية دساً رقيقاً فألحق بها النهاوند والحجاز كار والعجم تلك النغبات الخفيفة المحمل على السمع



عود

زمر

موسيقيون اندلسيون من القرنين العاشر والحادي عشر والصورتان منقولتان
عن علبة عاجيه محفوظة بمتحف فكتوريا والبرت بلندن



بوق

نقاره

طبل

كاسه

جوق مصري للموسيقى الحربية من القرن الرابع عشر والصورة منقولة من مخطوطة الجزري
المحفوظة بمتحف الفنون الجميلة بمدينة بوسطن

تلك حال الموسيقى العربية منذ منشأها حتى اليوم. وانك لتري انها صبغت بصبغات غريبة عن جوهرها مراراً وانتقلت من طور الى طور وزيد فيها وحذف منها. فكيف لا يرضى الناس بأن تظل مطردة السعي في طريقها وكيف لا أولئك الذين حدثتكم عنهم في صدر هذا المقال ان يطمئنوا الى جمودها

واذا سلمنا بوجوب تحويل الموسيقى العربية ورضينا بغرض المؤتمر فإنه ينبغي لنا ان نعلم كيف يكون هذا التحول وما يصنع المؤتمر. على ان المعلوم ان رجالنا عاهدوني الى علماء الفرنجة في معالجة موسيقانا من حيث ضبط تلاحينها وتقويم نواحيها. ولا شك عندي ان مثل هذه المعالجة تكاد تستحيل على أولئك العلماء ذلك بأنهم لا يستطيعون أن يستريحوا الى الموسيقى العربية وهيئات ان يكون السبب في ذلك قول بعض الانكليز ان الشرق شرق والغرب غرب ولكننا السبب ما في سلم موسيقانا من ارباع المقامات (quarts de tons) فلا ريب ان ربع المقام العربي عدل بالغربيين عن الحاننا أيام خففوا الى اقتباس علوم العرب وفنونهم. لان الاذن الغربية لم تكن لتستخف ربع المقام اذ كان ناشراً على ما الفت سماعه. على أنه ما يزال ناشراً عندها حتى اليوم، والبرهان على ذلك ما روى لي موسيقي مصري حاذق يقيم بباريس ويدعى نجاراً قال: اتيت استاذي (سان سانس) Saint Saens ذات يوم فأخذت أعزف على المضرب (البيانو) اصواتاً عربية فدهش استاذي وقال لي: نحن معشر الافرنج لا نستطيع ان نرتاح الى هذه الاصوات ولا نقوى الا على ان نقتلها بحثاً وتحليلاً. ومن اجل ربع المقام هذا قال لي السكرتير العام لمعهد الموسيقى في باريس يوم عزف الأستاذ الشوا على كمانه: لم يكن والله في امكاني ان اقيم لموسيقاكم الوزن اللائق بها وكأني بها هابطة الى اذني من موضع لم اره قط ولم يسبق الى وهمي فبسطت له من شأن ارباع المقامات ما جعله يعلل انقباض اذنه عن عزف الشوا

ذلك ما يميل اليه آذاننا وما يميل اليه آذان القوم. ومن اجل هذا لا ارى لهم كفاية في امر معالجة الموسيقى العربية^(١) ولا تبسط في القول

ان الموسيقى تنقسم الى قسمين احدهما في والآخر ابتداعي. أما القسم الفني فعلم يشمل

(١) اني لاستثني من العلماء المستشرقين احدهما يدعى d'Erlanger والآخر Collangette اما هذا فقد حاول فيما مضى ان يستوضح اصطلاحات كتاب الاغانى مثل خفيف رمل بالنصر وثقيل اول بالسبابة في مجرى الوسطى. وأما ذاك فقد نقل الى اللغة الفرنسية كتاب الفارابي (La Musique Arabe, Edition Geuthner) واطنه حاكفاً على الفحص عن مؤلفات العرب الموسيقيين، حازماً على تدبرها جميعاً. ثم ان لبعض المستشرقين امثال Marrignon الفرنسي و Ribera الاسباني معرفة بموسيقانا

قياس الأبعاد والمسافات والمقادير ، وتحديد طبقات الآلات ، وتعيين طريقة العزف عليها او النفخ فيها او النقر بها . وأما القسم الابتداعي فخاص بالتأليف بين تأليف الاصوات بعضها الى بعض وبين تركيب النغمات بعضها في بعض

واعلم ان من واجب الموسيقى الفني ان يبدأ باثبات السلم حسابياً ذلك السلم المعروف عند الفارابي بانواع الجماعات . ولقد اثبتنا السلم العربي نحن اعضاء لجنة المعهد منذ سنة ونصف سنة في مصر وليس فينا افرنجي . ولا كلفة في ان نستخلص من حساب مقامات السلم قياس الابعاد والمسافات والمقادير مستندين في ذلك الى مناهج الافرنج استنادنا اليها عندما اثبتنا السلم . واما تحديد طبقات الآلات وتعيين الضرب بها والنفخ فيها والنقر بها فأمران يرجعان جميعاً الى النظر والى العمل . فالناحية النظرية في ايدي الحاسبين عندنا وبين اطواء كتب الفارابي وصفي الدين وغيرها ، واما الناحية العملية ففي أنامل الضاربين والناخين والناقرين . وفي وسعنا ان نجمع لهاتين الناحيتين ناهجين في الجمع لهما منهجاً افرنجياً حديثاً

واما القسم الابتداعي فن ان حظ الافرنج منه ولا سبيل لهم ان يستبطنوا كنهه موسيقانا فان هم شرعوا في التأليف فيها عدلوا عنها الى ما يلحق بموسيقاهم عدول (سان سانس) عندما عمل رقصة شمشوم ودليله

ولا يسبقن الى ظنك اني حامل على القوم لانهم اعاجم ، فرباً اعجمي تفوق علينا . أولم يكن معبد خلاسياً وابن سرينج تكي العرق وابن محرز فارسي الأب والغريض من البربر (راجع الاغاني) . كانوا ولكنهم استعربوا الاستعراب كله . ومثلهم في الموسيقى مثل زياد الأعجم واسماعيل بن يسار وبشار بن برد وابن الرومي في الشعر

ومهما يكن من الامر فلا بد للتأليف من الرواية . فأى رجل يستطيع ان يلحن توشيحاً ان لم يكن حاملاً عدة تواشيح على ظهر قلبه . واي رجل يقدر على « التقسيم » ان لم تكن اذنه واعية الشيء الكثير منه . فن لي بمن يدلني على ذلك العالم الفرنجي الذي يروي من انعامنا ما يرداه اهلاً للتأليف فيجعلنا نحس بمختلف الاصوات من رخو وشديد ومن مقلقل ومضغوط ومن مهموس ومجهور ومن غيرها

على انه يتضح لك بعد ذلك اننا في غنى عن الافرنج وكأني بك تصد عنهم وتتجاهل عليهم وتأبى إلا ان يعرضوا عن العناية بموسيقانا إلا أن الامر غير ذلك . فانا في حاجة الى القوم سواء أمن ناحية الفن أم من ناحية الابتداع . وقد بسطت لك كيف نستطيع ان نعول عليهم في الفن اذ نستند الى طرقهم العلمية الجليلة المستقيمة في تحديد طبقات الآلات وقياس المسافات وغيرها ثم في تعليم الغناء والعزف . ثم انه ينبغي لنا ان نرجع في الابتداع الى قواعد التأليف التي بين ايديهم من Harmonie و Contrepoint و Fugue

وهنا مطلب آخر : كيف نستفيد من طرقهم في الفن ومن قواعدهم في التأليف ؟ اما من حيث الفن فلا ضرب لك مثلاً تعليم الضرب بالعود : ان من الجاري عندنا ان طالب الضرب بالعود يبدأ بالعزف على الاوتار مطلقة ثم يرسل انامله شيئاً فشيئاً متعهداً انامل استاذ بنظره حتى تثبت يده وتستقيم انامله فيطارحه استاذ النغمات واحدة فواحدة وعندما تدور النغمات للطالب وتستوي في اذنه يأخذ استاذ يطارحه الدولاب ثم الطقطوقة ثم البشرف ثم السماعي الى ما بعد ذلك

ولربما رأيت في هذا الضرب من التعليم بالتلقي والسماع طريقة قديمة كافية . فدعني انقل اليك كيف يتعلم الافرنج العزف على المضرب مثلاً . ان طالب العزف لا ينفك يروض انامله بتوقيع السلام ويقوم اذنه بالغناء الصامت (solfège) ثم يجعل يخرج من مؤلف في الترويض الى مؤلف آخر دون ان يعرض الى عزف التلاحين حتى يستسهل بعد خمس سنوات كل صعب فانك ترى الشطح الذي بين المهنجين ولا بد لك من ان تتعجب منه وكأني بك تقول في نفسك . فيم لا نذهب مذهب الافرنج . فاعلم ان الاخذ بمنهج القوم كل الاخذ امر يفوتنا لان آلاتنا بسيطة اولية وألحاننا اقرب الى السليقة من ألحانهم وبضاعتنا الموسيقية ليست بشيء عند بضاعتهم . فعلينا اذا عزمنا ان نجاريهم ان نبدأ بالافتنان في آلاتنا فنعدد مرا كز الانامل ونذهب الى ما وراء جواب « النواه » ثم نلحق الاساليب التعليمية بهذه الآلات فيكون للعود مؤلف منهجي méthode وللقانون آخر وهلم جراً

واما الرجوع الى قواعد الافرنج في التأليف فانما هو رجوع الى الاصول دون الفروع بحيث اننا نتعلم قواعد التأليف بين الاصوات على هيئة حديثة والمزج بين النغمات في اسلوب فوق الاسلوب الذي نمزج به الآن . ثم لنحذر ان نؤول بهذا التأليف وبهذا المزج الى تلاحين منافرة لا ذاتنا . ولا ريب في ان الامر صعب المركب لان العمدة الى الاصول ينتهي في الغالب الى فروعها . ولكننا اذا عالجنا التأليف في حذر ودقة غير متهورين ولا متعجلين فسأني بموسيقى عربية محدثة ليس الا

وهنا يتبين لنا ما يجب على المعهد . فانه ليس عليه ان يدفع موسيقا الى علماء الفرنجة قائلاً لهم : ماذا ترون فيها ان خيراً فافتنسوا فيها وان شراً فهدبوها ما شئتم ان تهدبوها ، بل عليه ان يرجع الى مناهجهم في الفن والابتداع وحذو حذوهم فيها حتى حين يرسل فيه الى اوربا رهطاً من تلامذته يريدون من موسيقى الغرب اساليبها في الفن وطرقها في التأليف ويتضلعون منها الى ان يبلغوا فيها مبلغ الافرنج ، ثم ينقلبون الى الموسيقى العربية فيهدبونها

التهديب الحق اذ يتممون اعمال المعهد الفنية من جانب ثم يعالجون الابتداع من جانب آخر فيعيدون الى موسيقانا الصوت الشديد ويخلصونها من النواح واللين المقيمين فيها ثم يلحقون بها المساوقة l'accompagnement فيخرجون بها من النغم القائم على لحن واحد monomélodie الى النغم الجامع لالحان بعضها مؤلف الى بعض على نسب منتظمة etc. harmonie فيضيفون الى الاصوات العربية الصنعة الفرنجية بعد ان يسقطوا منها ما ينشزعلى آذاننا اسقاط ابن محرز ما استقبح من تلاحين الروم والفرس . فيكون شأنهم بعض شأن السيد درويش ذلك العبقري الذي مزج باغانينا القليل من التناغم الفرنجية فحننا بادواره حتى عشقنا عشقه وهوينا هواه ولم ننسّه

بيد انه لا بدّ لاولئك التلامذة ان يكونوا بارعين في الموسيقى العربية قبل ان يلتمسوا الموسيقى الغربية والا علّقوا هذه واعرضوا عن تلك . وليكن مثلهم مثل المجددين من الشعراء عندنا . واليك خليل مطران فلقد أصاب من أدب العرب ما شاء الله ان يصيب ثم تبسط في الادب الغربي فراح على قول شوقي ينهج منهج الافرنج في اساليب العرب وختاماً فعلى الناس أن يعقدوا آمالهم باولئك التلامذة وان كانوا الآن بين جنبات عالم الخيال . ثم على المعهد ان يحقق آمال الناس فينحدر بهؤلاء التلامذة الى عالم الحقيقة

* * *

ذيل : ان اصحاب المؤتمر يتساءلون هل من خير في تأليف كتاب يبحث في تاريخ الموسيقى العربية . وجوابنا على ما يتساءلون عنه ان الفن لا ينهض بالعلم دون الادب . واليك الفرنجة فانهم يعنون بتاريخ الموسيقى الغربية عنايتهم بترقيتها وبالتأليف فيها . ولهم في ذلك مصنفات جليلة منها بحث مسهب جم الفوائد عنوانه Histoire de la Musique; Edition Armand Colin. Paris وضعه استاذ من اساتذة جامعة باريس يقال له كومباريو Combarieu واما المخطوطات التي يفتش عنها اصحاب المؤتمر في سبيل نشرها والمطبوعات التي يلتمسونها رجاء ان يرجعوا اليها في اعمالهم فجاءها محكي عنه في تاريخ الادب العربي لبروكلمان Brockelmann وفي تاريخ الادب العربية لجرجي زيدان بسم فارس

ليسانسيه في الآداب من السوربون
ومن اعضاء اللجنة التنفيذية لمعهد الموسيقى الشرقي بمصر

باريس



هو اجس في الانسان وحياته^(١)

للمبر مصطفى الشهابي

عاش الانسان بالاوهم آلافاً من السنين وسيظل عبداً لهذه الاوهام حتى يتكامل عقله بعد آلاف اخرى ويصير قادراً على ان يحيط بشيء من اسرار هذا الكون الذي لا يعرف له حد ولا مبدأ ولا نهاية

نقرأ في بعض كتب الدين ان الانسان لم يُخلق الا منذ سبعة آلاف او ثمانية آلاف سنة فيجب علماء الجيولوجيا بانهم عثروا على جماجم الانسان وعظامه وعلى ادوات كان يستعملها لافي حقبة الراسبات وحدها بل في حقبة ما قبل الطوفان حتى في اواخر الزمن الثالثي اي منذ مئات الوف من السنين . ومع هذا لا يُعد هذا التاريخ الوافل في القدم شيئاً مذكوراً اذا قيس بعمر طبقات الارض السائرة وما كثر في تكوينها من ملايين السنين

ما هي ثمانية آلاف السنة . انها هنيئة من هذا الزمن بل هي تبدو اذا قيست به اصغر من اللحظة التي تشرق فيها ايامضة كهربائية . فقد حفر اناس الارض في الوجه البحري من وادي النيل في القرن الماضي فوجدوا في عمق ستين الى سبعين قدماً قطعاً خزفية واشياء اخرى من صنع الانسان . فاذا ما بلغ غلظ الراسبات من مياه النيل هنالك خمس عقد في كل مائة سنة وفقاً لرأي احد العلماء يكون عمر هذه المصنوعات ١٤٤٠٠ الى ١٦٨٠٠ سنة . وعثر آخرون هنالك على قطع من الآجر الاحمر في عمق ٧٢ قدماً وحسبوا ان الرواسب تعلو عقدتين ونصفاً في كل مائة سنة فبلغ عمر تلك القطع ثلاثين الف سنة ونيفاً . وذكر عالم آخر ان ارض الوجه البحري تعلو ثلاث عقد ونصفاً في كل قرن وان ارتفاعها بلغ ٢٠٠ قدم منذ ما وجد الانسان عليها فيكون ذلك الانسان عائشاً في مصر منذ نحو سبعين الف سنة

اما في اميركا فبينما هم يحفرون في ارض نشأت مما رسب من نهر المسيسيبي لبناء معمل للغاز عثروا في اعماق الارض على عظام بشرية وعلى جمجمة لها كل الصفات التي تتميز بها جماجم سكان اميركا الجنوبية وقد قدروا عمر هذه الجمجمة بخمسة عشر الف سنة على اقل تقدير ومنهم

(١) كتبت بعد تلاوة « اصل الانواع » لدارون و « احاجي الكون » لهيكل و « الانسان بنظر العالم » لبوختر و « الفلسفة المادية » لاوغست كونت وغيرها

من حسب لها خمسين الف سنة . ووجدوا ايضاً قطعاً من الخزف يرجع عهدها الى ١٢٠٠٠ سنة او اكثر

وليست هذه السنون المتطاولة (وكلها ترجع الى حقبة الاسباب) بالشئ الذي يعبا به اذا ما قارناها بعمر الانسان الذي وجدت جاجه وعظامه ومصنوعاته في اماكن من حقبة ما قبل الطوفان كما في مغارة اورينياك في جبال البرانس وكما في مغائر كثيرة في البرازيل وبلجيكا وانكلترا وفرنسا واستراليا وغيرها من انحاء الارض . اترى ماذا كان عقل الرجل في ذلك العهد البعيد اذ هو لا يملك من وسائل الحضارة شيئاً واذ له سحنة حيوانية وحواليه وحوش مفترسة انقرض معظمها كدب المغائر والمموت وفيل ما قبل الطوفان والكركدن وغيرها. ولعل ارفقها به الفرس الوحشي على ما فيه من حران وجراح . وكيف كان يتقي شرها وكل ما فتقت له قريحته البهيمية ان يضرب صوانه بصوانه حتى اذا صقل إحداها اعتمدها في طعن اعدائه الكشر دفاعاً عن نفسه او تلمساً للقوت

ونقرأ في كتب دينية اخرى ان الانسان خلق في احسن تقويم فيجيب علماء التشریح والحياة (بيولوجيا) بان ذلك صحيح في يومنا هذا . لكن المرء لم يكن كذلك في سالف الاحقاب الجيولوجية عند ما اخذ نوعه يتحدر من حلقات حيوانية معروفة او مفقودة واخذ ينفصل عنها ويستقل في نوعه . ثم اي نخر في هذا التقويم وهو لا يتعدى في كل مظهره تركيب حيوان من ذوات الفقرات وذوات الاتداء. وكيف يصعر الانسان خده واقرب الاحياء اليه القردة وهو وايها من اصل حيواني واحد . واذا كانت هذه الحقائق تستثير غضب الانسان وتصيبه في كبريائه وجبروته فليفكر من حيث علم التشریح في جميع خلايا جسمه ونسجه المختلفة اترى في اسسها ما يميزها عن مثلها في الحيوانات المذكورة . وليتأمل من حيث الفسيولوجيا اي علم وظائف الاعضاء فيما تأتبه اعضاؤه واعضاؤه من عمل . فهل يرى فرقاً في العملين؟ ليست سنن الحياة تسير على وتيرة لا تبدل فيها ولا تميز . لاشك ان الانسان قد نما وتكامل مع الزمن لكن الاسس واحدة سواء في تكون الجنين من نطفة ام في تركيب الاعضاء ام في عملها . ثم ان الانسان لا يزال محتفظاً ببعض ما ابقاه فيه اسلافه من الاعضاء الحيوانية كالذنب التي تكون ظاهرة في الجنين وتختفي فيما بعد لكن أثرها لا يخفى على المتلمس لها . وكعظمة ما بين الفكين واسنان الحليب وشعر الجنين الصوفي ولحى النساء وشعور الرجل المفرطة وعضلة الاذن التي يروضها بعضهم فيحركون بها آذانهم الى غيرها وهي كثيرة

وليس للصفات التي يمتاز بها الانسان عن الحيوان شأن كبير اذا فُحصت بمجهر العالم المحقق البعيد عن الخرافات وعن اوهام المعتقدات المختلفة . يمتاز الانسان بعقله وتفكيره ونطقه وسحنته البشرية ووقوفه على رجلين واستعمال يده للقبض وبعض صفات اخرى . فأما

العقل والتفكير فهما يكادان يكونان مفقودين في الانسان الوحشي الذي يعيش في اواسط افريقية في ايامنا هذه . فاذا كان تفكير الانسان الذي كان يعيش في اواخر العهد الثالثي مثلاً والذي لم يتعلم صنع الفئوس من الصوان الا بعد لآي . ولعل هذا الاختراع كان في نظره اهم من اختراع اديصن للمصباح الكهربائي والسينما في نظرنا . واذا كان انسان اليوم المتمدين يتزوج ويعيش في اسرة مجتمعاً مع ابناء جنسه ويشغل بالزراعة والصناعة والعلوم المختلفة افتراه كان كذلك في فجر حياته ؟ لا يختلف دماغ الانسان (وهو مركز العقل والتفكير) عن دماغ الحيوانات القريبة منه الا بكبره وبنوع خلايا تلافيفه ولا سيما بكبر الجهاز العصبي المختص بتقوية المدارك . ومع هذا نرى لكل هذه المميزات اساساً في دماغ القرودة حتى حكم الفلاسفة الماديون بأن مدارك الانسان ليست في الحقيقة سوى تكامل ما هو كامن منها في الحيوان الاعجمي القريب من الانسان

واما النطق فهو ايضاً نتيجة حلقات بطيئة من التكامل في حركة اللسان . وهو اليوم جد سقيم لدى بعض الشعوب المتوحشة حتى نكاد نحجم عن تسميته نطقاً . ولا جرم ان الانسان كان في فجر حياته اخرس اللسان ثم اخذ رويداً رويداً يسمع صوته في تلمس حاجاته كالاطفال والمتوحشين والصُم . ثم تكامل نطقه مع كثر الايام وتعاقب العصور الى ان بلغ ما هو عليه اليوم . وقد كتب العلماء كتباً عديدة في إثبات هذه الحقائق إثباتاً علمياً بالحس والاستقراء

واما سحنته البشرية فلقد كانت اقرب الى الحيوان منها الى الانسان بدليل شكل عدد من الجمجم التي وُجدت في حقبة ما قبل الطوفان . واما وقوفه على رجلين وقبضه باليدين فهما من الامور التي يسهل على العلماء تعليلها وليس لهما شأن كبير في تمييز الانسان عن الحيوان يستنتج الفلاسفة الماديون مما ذكر ان الانسان لم يخلق من طين منذ بضعة الوف من السنين بل هو حي من جملة الاحياء على هذه الارض كان أسلافه حلقات حيوانية منذ مئات عديدة من القرون فتطورت تدريجياً وتكاملت وفقاً للسنن الطبيعية الثابتة حتى صار الانسان على شكله الحاضر اي صار اتم الحيوانات واعلاها خلقاً

ويقولون لك اذا سألتنا لماذا وجد الانسان فأنتك لن تظفر بطائل لان معرفة ذلك فوق طاقة البشر . وكذا لو سألت لماذا وُجدت الارض أو وُجد الكون أو وُجد الوجود . ولما كان العقل البشري غير قادر على الوصول الى جواب هذا السؤال بأساليب علمية يقينية تركوا الاجابة عنه لاصحاب الفلسفة الغيبية فراح كل منهم يعلل سبب الوجود بما تفتق له قريحته تعليلاً فلسفياً لا علمياً . ومتى قلنا « تعليلاً فلسفياً » معناه ان هذا التعليل لا يرتكز على الحقائق العلمية التي يتناولها الحس فهو اذن قد يكون تعليلاً صحيحاً وقد يكون غير صحيح

ويلخص اصحاب الفلسفة المادية عقائدهم أو نلخصها نحن بما يلي وهو :
 أولاً — يجب ان يؤمن الانسان بالحقائق العلمية التي تقع تحت الحس وان لا يعزل الاشياء
 إلا بالطرائق العلمية وأن لا يشتغل عبثاً بالبحث عن اسباب وجود هذا الكون لان عقله
 لا يدركها وليتمثل بيت المعري

اما الاله فأمرُ لستُ مدركهُ فاحذر لجيلك فوق الارض إسقاطا
 ثانياً — لما كان كثير من العقائد الدينية لا ترتكز على حقائق علمية اصبح الاعتقاد بها
 أو عدمه سيئ . ويمكن تعليم الناس وتربيتهم على الاخلاق الفاضلة دون ما حاجة الى اضافة
 العقائد الدينية اليها كما يمكن تأسيس حكومات لا دينية تسير في شعوبها سيراً عادلاً
 ثالثاً — على الانسان ان يعمل الخير لنفسه ولابناء نوعه وان يوفق بين ما ينفعه وما ينفعهم
 حتى تخف وطئة تنازع البقاء

رابعاً — عليه بأن يسعى في توسيع مداركه وفي تذليل قوى الطبيعة والاستفادة منها
 مع علمه بأنها طالما آذته وفتكت به ولا سيما في سالف الاحقاب

وبما لا ريب فيه ان معظم الفلاسفة الماديين ملحدون ولكن الاتحاد ليس شيئاً تستلزمه
 عقائدهم استلزماً . وكثير منهم يسعون للتوفيق بين الدين والعلم كما يسعى اليه المستنيرون
 من رجال الدين

وبعد ماذا يتزود الانسان من تلاوة كتب فلاسفة اليونان والعرب والاوربيين على
 اختلاف أبحاثها ، اتظن انه يتوصل الى معرفة اسباب وجود الانسان أو وجود الكون أو
 الغاية من الوجود أو المبدأ أو النهاية . انه لا يخطو في هذه الموضوعات خطوة واحدة كما
 أن كل من تصدوا للبحث فيها لم يخطوا إلا بأوهامهم

ولعل أئمن أمنية للانسان ان يأتي الى هذا العالم بعد الوفاة من السنين فربما يكون تقدّم
 العقل البشري عند ذلك كافياً لادراك شيء من اسرار هذا الكون

فأما ونحن اليوم على ما نحن عليه من الجهل فان من اكبر لذائد الحياة ان يعتقد الانسان
 بأن الجنة تنتظره في عالم ثانٍ . والسعيد اذن ذاك الذي يؤمن بالله وباليوم الآخر ويعمل في
 حياته القصيرة عملاً صالحاً ينتفع منه ابناؤه . ولولم يكن للاديان من فضيلة سوى أنها
 تزيل من قلب الانسان ذلك الشك القاتل في مصيره بعد المات لكانت هذه الفضيلة وحدها
 كافية لاحلال الايمان في النفس موضع التجلة والاحترام

القضايا الاجتماعية الكبرى

في الشرق العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

المرأة والرجل

اطلق الغربيون كلمة « سكس » Sex — على الخصائص التي تميز كلاً من الذكر والانثى في الاعضاء والوظائف والوجهات النفسية ، وهذه كلمة مشتقة من فعل (سكار) اللاتيني غالباً ومعناه « قطع » اشارة الى ان المرأة مقطوعة من ضلع الرجل . وهم يعالجون قضايا الرجل والمرأة تحت عنوانها وقد احسنوا في ذلك لانها تشير الى الجنسين في آن واحد . وخير كلمة تترجم بها الى العربية كلمة « شق » ومعناها في معاجم اللغة « الجانب الواحد من الانسان » ومنها الشقيق بمعنى الاخ كأنه شق نسه أو جسمه من اخيه . وذهب بعض الفضلاء الى أن الكلمة الافرنجية مأخوذة من العربية لفظاً ومعنى . وفي وسعنا ان نفسر « الشق » أو الخصائص التي تميز الذكورة والانوثة من وجهة علم الحياة بقولنا ان التلقيح — وأي اتحاد بيضتي فردين مختلفين ذكر وأنثى — هو عمل كبير الشأن في تخليد معظم الاحياء لا جرم ان يكون تمسك الطبيعة به هو السبب الذي أدى الى التفريق بين الذكر والانثى والاحتفاظ بميزات كل منهما وفقاً لما تتطلبه الحياة من البقاء او الاستمرار . والتلقيح هو الطريقة التي يتم بها التوالد في الحيوانات اجمالاً فتكون اعضاء التناسل اما في حيوان واحد كما هو الحال في بعض الديدان او تكون في حيوانين مختلفين من ذكر وانثى كما هو الحال في معظم الحيوانات العليا ، وطريقة التلقيح هذه تدعى في كتب الحياة « الطريقة الشقية » في حين تتوالد معظم الحيوانات الدنيا كذات الخلية الواحدة بطريقة غير شقية ليس فيها ذكر ولا أنثى بل بمجرد انقسام الحيوان الواحد الى نصفين مثلاً بحيث يصبح كل منهما فرداً مستقلاً

ولم ينل موضوع الشق في البشر حقه من العناية الا في ابحاث المتأخرين لان المتقدمين وجهوا جل عنايتهم للرجل وجعلوا المرأة ذيلاً له ، وقد تساوى في هذا الاهمال اهل الشرق والغرب معاً وربما كان الشرقيون (على خلاف الشائع) اقرب الى الانصاف ، الا ان هذا الافراط في شأن الرجل اخذ يعقبه تفريط الى درجة بعيدة ، حتى ان بعض علماء الحياة ممن

عالجوا قضية التلقيح الاصطناعي في كثير من الحيوانات قال ان الذكر من الوجهة الفنية يكاد يكون فضلة يجوز الاستغناء عنها . بيد اننا اذا تركنا التطرف جانباً فلم نقع في اهل المتقدمين ولا حفلنا بسفسة الحيويين المتأخرين ونظرنا الى الذكر والانثى جزئين يتم الواحد منهما الآخر — وهذا هو المعنى المقصود من كلمة الشق — كانت معالجتنا لهذا الموضوع الاجتماعي الخطير متمشية مع العلم الصحيح وبعيدة عن الاغراض والانفعالات. وتزداد حاجتنا الى الاسترشاد بنور العلم بسبب ما ابتلينا به من طغيات المتعصبين ممن استمروا أو الجملة على الشرق وعاداته في الزواج فأدخلوا في الازدهان بعض الآراء العتيقة العنيفة التي تحول دون تفهم الحقيقة مع أن هذا الشرق النابه هو أحوج البلدان في نهضته الحاضرة الى بناء اصلاحه على الاسس الثابتة التي لا دخل للاوهام فيها

تعقد الموضوع وصعوبة الحل

ولا ادل على خطأ المتسرعين في وضع القواعد العامة من النظر الى الموقف الحاضر في امر الزواج وبناء الاسرة وتشعب الآراء والتطبيقات فيها. فقد اخذت ورقاً وقلماً وجهزت قوائم متعددة بعضها بأسماء اهلي وأصحابي وجيراني وهم ممن عرفتهم من المسلمين وبعضها الآخر بأمثالهم من المسيحيين واليهود وغيرهم من اهل الاديان الاخرى . ووضعت بجانب كل اسم ما يدل على سعادة زواج صاحبه او شقائه وهل الطلاق يحل الاشكال أو يزيد في الارتباك وغير ذلك من الملاحظات ومنها ما يتعلق بالضرر والتسري والمتعة واتخاذ الخلائل على الطريقة الاوربية فلم تكن النتيجة بجانب قائمة من تلك القوائم اجمالاً ، حتى ان الاستشهاد ببعض الاساتذة من المبشرين ممن ملأوا الدنيا تشهيراً بوضع الزواج في الشرق لا يغير النتيجة كثيراً والى القارىء بعض الامثلة التي اخذتها لانني عرفتها بنفسى أو سعت في اصلاحها :

فقد حدث ان كاتباً في محل تجاري معروف في البرازيل استولى على قلب ابنة صاحب هذا المحل وهي فتاة اديبة سليمة في نحو العشرين من العمر فازال يستهويها بالزخارف ويستميلها بالتزويق حتى قبلته بعلاً لها فكان الزفاف وكان شهر العسل ثم كانت العودة بالعروس الى الوطن ومعها البائنة التي تزوج بها من اجلها فلما صار في بلده وبين اهله قلب لها ظهر المحن وحول الزخارف الى مكاره والتزويق الى منغصات مما انتهى بفرار العروس الى خارج القطر السوري وهي من زينتها وحليها بجلدها فقط وهاهي اليوم تحرق الارم على ما فرط منها وتطلب الخلاص ولا خلاص

اما الحوادث التي تكون فيها المرأة هي المزخرفة والمزوقة على عكس المثال المتقدم الى ان يتم العرس وينتهي شهر العسل قبل ان تكشر عن نابها فاكثر من ان تحصى . واحصاء سطحي

في الحيّ وبين الاهل والعشيرة فيه المقنع الكافي. ولاشك في ان مثل هذا الزواج المتنافر حمل طائفة كبيرة من الدول المسيحية حتى العريقة في البروتستنتية منها كالدولة الاميركية على اباحة الطلاق والخروج عن قاعدة « فالذي جمعه الله لا يفرقه انسان »

اما المثال الآتي فيطلب خطة غير الخطة المتقدمة . فقد حدث ان سيدة تزوّجت برجل طاعن في السن فأقام معها على اتم وفاق عشرين سنة كاملة كانت له في خلالها حارساً أميناً وقريناً صادقاً الى ان اقعدته الشيخوخة واضعفت مداركه الايام فطمع اهله في اقصائها عنه ليستقلوا بثروته دونها فما كان من بناته من زوجته السابقة واولادهن الا ان تألبوا عليه فعقدوا حوله مجلساً مصطنعاً من موظفين شرعيين وعلى رأسهم مفتي الديار الشامية وهناك بشيء من الاستفزاز والاغواء حملوه على طلاقها ، فلا الزوج المقعد المسكين كان راضياً بهذا الفراق وهو في شيخوخته ولا الزوجة التي كانت في زيارة اهليها حيث فوجئت في مساء العيد بهذا النبأ المجرم . وغني عن البيان انه لولا سهولة الطلاق ما حدثت مثل هذا الفعل المنكر واعرف رجلاً من بيت مشهور في مدينة سورية كبيرة وهو الآن في نحو العقد السادس من العمر قد تزوج باكثر من خمسين امرأة ثيبات وابكاراً فكانت عادته ان ييث العيون والارصاد لاستكشاف زوجة من البيوت المتوسطة او الفقيرة ليصرف معها ربحاً من الزمن فاذا قضى منها لبانته طلقها ونقدها متأخرها بعد ما نقدها الصداق المقدم المتفق عليه . وقد قص عليّ كيف كان يحصل على التقارير التي تهمة في هذا الشأن فانه كان يستأجر نساء اخصائيات في فحص الابدان كما يفحص القصاب الغنم السمينة فينتشرن في الاحياء ويدخلن البيوت خاطبات حتى اذا رأين من اعجبتهن بهيئتها وطولها وعرضها قمن اليها فكشفن عن عنقها وصدرها وساقها الى اخمص قدمها ثم رفعن اليه التقرير عنها شفهيّاً فاذا صادفت هذه الصورة هوى من نفسه عقد وبني ثم طلق ليعقد من جديد من غير توان كأنه آلة ميكانيكية

ومما هو جدير بالالتفات ان تلك المدينة وقد اظهرت عناية كبيرة بالشؤون الدينية واقامت الارض واقعدتها لكل حادثة لم تطمئن اليها نفسها لم نسمع لها صوتاً واحداً بالاحتجاج على هذا الانحراف مما يدل على ان الذين يعنون بالشؤون الشرعية في تلك الاصقاع لم يجدوا شيئاً من الشذوذ في عمل هذا الرجل المطلق « المزواج » الذي سخر بنات الناس لارادته واستثمر ماله فيهن ربباً فاحش جداً

ان مثل هذه الحوادث التي تتكرر بين سمعنا وبصرنا كل يوم تتطلب من المصلح الاجتماعي ان يعالج هذا الموضوع الخطير بالروح العالمية النزيهة خصوصاً من بعد ما انتشرت الآراء الشيوعية المتطرفة واصبحت بعض البلدان كبلدان الاتحاد السوفيتي الروسية شبيهة بالاباحية لولا بقية عادات دينية وتقاليد متوارثة لا تزال تجاهد جهاد الجبارة في الدفاع عن الاسرة المهددة

الروابط الاجتماعية الاولى في العصر الخالية

نريد بالاعصر الخالية تلك الايام السحيقة التي سبقت عصر التاريخ اذ كان الانسان على حالة من الهمجية هي اقرب الى حالة القرود منها الى حالة البشر . وقد اختلفت انظار الباحثين على البواعث التي ادّت بالافراد الى اجتماعهم عُصَبًا كطوائف القرود تجوب الغابات وكيف تحولت هذه العصب بالتدريج حتى صارت جماهير منظمة . ولكن هناك شبه اتفاق على ان من اوائل هذه البواعث واهمها الباعث الشقي الطبيعي بين الذكر والانثى ولذة المصاحبة الناشئة عنه ثم ما يحدث بسبب الاقتران فالحمل فالولادة من التآلف بين الام واولادها وما يتخلل ذلك من حنان وعطف وتعاون . لا جرم ان تكون الاسس « العائلية » والحالة هذه سبب الاجتماع الابتدائي الذي تحول فصار اجتماعاً عترياً — نسبة الى عترة الرجل وهي ولد الرجل وذريته — ثم قليلاً وانتهى بشكله المدني الحاضر وحمل كثيراً من الكتاب المتقدمين امثال ابن خلدون على القول ان الانسان مدني بالطبع

الاسرة الاولى باعتبارها وحدة اجتماعية

مهما تغير التنظيم الاجتماعي وتبدل بناؤه فالاسرة لا تزال وحدة ثابتة حتى في البلاد المهددة بالبلشفة ، وهي اصغر انضمام اجتماعي واقواه وقد بقيت الى اجل قريب مصدراً للثروة في المجتمع واداة توزيعها واستهلاكها . ونحن في الاسرة كما قال « الموجز في علم الاجتماع » نتعلم ابلغ الدروس الاجتماعية العملية فنمارس فيها حقوقنا الشخصية وننشأ على قاعدة التملك التي تحاربها الاشتراكية المتطرفة ونتعلم كبح جماح النفس وحسن السلوك والانقياد والخدمة والمعروف والواجبات المتبادلة . وفي الاسرة نرى بوارد الدين والاخلاق والتهديب وكل منا مطبوع بطابعها الدائم

ولئن كان من المستحيل تعيين شكل الاسرة الاولى بالنص وذلك لان التنظيم « العائلي » امر سابق للتاريخ فليس من المستحيل الوصول الى هذا الشكل بالظن والتخمين والقياس . وعلينا بادئ ذي بدء ان نذكر في تعليل وظيفة الاسرة الاساس الا في دائماً وهو ان تعاون الوالدين على تربية الاولاد امر ذو قيمة حيوية كبرى في بقاء الجنس . وهذا وحده كاف من الوجهة الطبيعية للاحتفاظ بهذا التعاون وعض النواجز عليه لان الطبيعة حريصة على كل ما من شأنه بقاء الاحياء

اماطة اللثام عن الاسرة الاولى

يرجع الفضل الاكبر الى مباحث العلامة (جي . جي اتكنسن) في اماطة اللثام عن حالة

الاسرة الاولى وذلك فيما كتبه بعنوان «الاصول الاجتماعية والسنة الاولى»^(١) وتعدّ آراؤه في المقام الاول وان دخل عليها شيء من التعديل لم يغيّر جوهرها وقد بدأ (اتكنسن) اساس نظريته بما هو معروف في المجتمع الانساني عامة من تحريم الزواج بين المحارم كالاخ والاخت اولاً ثم بما هو منتشر من عادة خطف النساء ثانياً وهي عادة لا تزال آثارها ماثلة في كثير من المجتمعات البشرية . فقال ان العصبية الاجتماعية الاولى كانت شبيهة بالسرب الاجتماعي عند القرود في الوقت الحاضر — يعني ان تلك العصبية كانت كناية عن عترة يقودها ذكر كبير . وكان هذا القائد يطارد جميع الذكور ممن يبلغون سن الادراك في العترة لما يشعر به من مزاحمتهم له ولكنه كان يحتفظ بمعظم الاناث ويستولدهن . ولا يمنع هذا الحال اثنين او ثلاثة ممن طردوا ان يجوبوا الاصقاع متحدين بل ان يصيدوا امرأة قد شردت من عترتها . ومثل هذه الشرزمة المطرودة التي لا قائد لها كثيرة الوقوع في اصناف القرود ولكنها نادرة في العترة البشرية . وتكون الغيرة الملتببة في الذكر على اناته والمكان الذي يعيش فيه سبباً كفيلاً بتثبيت الشكل الذي تبنى عليه هذه العصبية الاجتماعية الابتدائية وان شئت هذه الاسرة الاولى وباعادة تنظيمها كلما طرأ عليها خلل ، وهذا النوع من التجمع والانضمام عمل يصلح للمعيشة في الغابات حيث الطعام مبعثر ولا يكفي غير القليل من الافراد . ولا عجب ان يستمر هذا النوع من الانضمام الاجتماعي الشكل النموذجي لقرود الغابات وان انتظم البغام وهو الشمبازي في بعض الاحيان بشكل اجواق اوسع من ذلك ولما كان الانسان الاول في تركيبه اقل صلاحاً للمعيشة في الغابات واكثر ميلاً للطعمة اللحمية واكثر تكييفاً للمعيشة في الاصقاع الصخرية التي تنبت فيها الحشائش والاعشاب وحيث تكون الفواكه والجذور اقل من الفريسة تصطادها الجماعة بالتعاون فهو يستفيد من كل تكييف عقلي او مزاجي يأذن للاسر الاولى بالنمو والانضمام بشكل وحدات اجتماعية اكبر . وقد صار هذا التكيف ممكناً بسبب التفاعل المتولد من بعض الميول الطبيعية الموجودة بين النساء والاحداث من الذكور

وقصاري القول ان الامهات مثل معظم ذوات الثدي تميل الى حضانة الذكر من نسلها ومراعاته كما تميل الى حضانة الانثى ومراعاتها . الا ان الذكر البالغ يكون في فصل الولادة — وجميع فصول السنة هي فصول الولادة في الحيوانات الصدور — قليل التسامح مع من يزاحمه من الذكور وميلاً الى الشدة . ولكي يحفظ الامهات ابناءهن عندهن فهن مضطرات الى ادخال الرهبة في قلب الصغير منهم من الكبير خصوصاً من الشيخ الزعيم في العترة والى تحذير هذا الصغير من التجاوز عن حقوقه واثارة الغيرة في نفسه ، وبالامثلة الحسية والاوامر والنواهي

الابتدائية اتخذت الرهبة الطبيعية في قلب الصغير من قوة والده والخوف من غضبه شكلاً محدداً واتجاهاً معيناً، فقد نشأ الصغار على اعتبار ما يمتلكه هذا الشيخ ولا سيما النساء في العترة من المحرمات عليهم وانهم لا يجوز لهم مباشرة بعض الاعمال في حضرته او بالقرب منه . وكان الخوف من الشيخ الكبير «رأس الحكمة» . واستمرت هذه الميول الصبغانية الطبيعية في كثير منهم الى سن المراهقة وما بعده فكان الاحداث من الرجال يدعون للشيوخ وهكذا تعلم الرجال مبادئ كبح جماح النفس وتولدت في المجتمع الخالي فكرة الخطايا ولا سيما خطيئة الزوج بالمحارم . ومن هنا نشأت تلك المشاعر المخنوقة والمستورة بالضغط التي اتخذها علماء النفس اخيراً بارشاد البجائنة النمساوي (سيجموند فرويد) اساساً لنظرية التحليل النفسي (١)

وخلصتها ان الامراض العصبية المبنية على الخلل في الوظيفة تنشأ عن صدمة شقية في الجهاز التناسلي في غضون الطفولة، ويستطيع الاخصائي بواسطة ما كشفته هذه النظرية من الحقائق ان يحدد البواعث الخفية والمشاعر المخنوقة التي تسيطر الناس وتتحكم في مجموعتهم العصبية من غير ان يشعروا بها وهذا هو « الوعي المستتر » او « العقل الباطن »

والمجتمع مدين في وجوده الى هذا الكبح لجماح النفس الذي ذكرنا منشأه ومن المتعذر ان نرى امكان حدوده بطريق آخر . ونحن لانعرف حيواناً من الحيوانات يبدي اقل تردد او اعتراض على الاقتران بالمحارم . واما كون هذا الاعتراض عملاً تقليدياً متوارثاً لا عملاً غريزياً فظاهر كما قال اصحاب كتاب «علم الحياة» (٢) الذين اعتمدنا عليهم في نقل هذه الخلاصة من سجلات اية محكمة جنائية في الارياض . وثمت بعض الاجتماعيين المشهورين امثال الدكتور (هوبهوس) ممن يخالفون هذا الرأي ويذهبون الى ان الامتناع عن المحارم هو امتناع غريزي ولكن جميع الدلائل المستقاة من الحقائق الثابتة تدل على ان العادة الموضوعية هي السبب المانع من هذا الاتصال

وهنا نبلغ الخطوة الثانية من تاريخ الاوضاع الانسانية الاساسية . فالشاب وقد تمت قوته ونشطت رغبته يروود حدود المنطقة التي تعيش فيها اسرته أو عترته وهو متململ ساخط فيرى ان هنالك نساءً اخرى في العالم غير نساء الشيخ الزعيم وهن لا يناهضن التحريم المذكور فيجري في اثر واحدة منهن ويدركها كلما سنحت له الفرصة

ولنا ان نقول عن هذه المرأة انها لو كانت شاردة أو فضلة زائدة في سرب «عائلي» آخر او كانت امرأة في عترة زعيمها ذبح أو اقعده المرض لكان خروجها ايضاً من باب البحث عن الشاب الشارد . ثم اذا فرضنا ان من عادة الشيوخ المتقدمين في السن ان يفتكوا

(١) Freud's Theory of Psychoanalysis.

(٢) The Science of Life, p. 948.

بالاحداث من الذكور لازدادت ارجحية هذه الفضلة الزائدة من النساء . وقد لاحظ (ولز) واخوانه ان (اتكنسن) كتب هذه الآراء الاستنتاجية منذ نحو ربع قرن فلا غرو انه مثل الذكر في حالة الهجوم القاهر على المرأة الشاردة دائماً والعمل على اختطافها لان ستاراً من الحياء كان يومئذ مسدولاً عند الكتاب على رغائب المرأة الغريزية ومشروعاتها الطبيعية . لذلك قد لا تكون ثمة حاجة الى الهجوم اذ يأتي الشاب بالمرأة الغريبة الى بيته في العشيرة أو في اطرافها أو ربما جاءت هي معه امرأة له باختيارها من غير ارغام . وقد تضلّه في بعض الاحيان الطريق فلا تزال تلهيه حتى توصله الى منازل اهلها — الى حي الرجل الشيخ الذي كانت في حوزته . فلو كانت هي الغريبة وقد قدمت معه الى اهله فن الطبيعي ان تعلق عليه امها ومجعله معتمدا فتكون والحالة هذه قد اختارته برضاها فلا تسلم نفسها للشيخ الزعيم . اما النساء الاخرى في العترة فلا يردنّها ضرّةً لهن ولا مزاحمة بل يلتزم من جانب الشاب في مقاومة كل تدخل من قبل هذا الشيخ في شأن هذا الكسب اللطيف الذي انضم الى العشيرة . وكنّ حريصات على اقامة حدّ من التحريم بينها وبينه . اما اذا انتقل الشاب الى اهل الشاردة فاقامة حدود من التحريم مقابلة لهذه الحدود تصبح ضرورية

هذه خلاصة النظرية التي قال بها (اتكنسن) عن الزواج الخالي وهي نتيجة تفكير عميق من جهة وتطابق للوقائع في الحيوانات العليا وللعادات الانسانية المتعلقة بالمحرم من جهة أخرى . وهي عادات لا توجد نظرية تفسرها خير من هذه النظرية . وفي وسعنا ان نتصور تكرار هذا الشكل من الزواج كما قال اصحاب « علم الحياة » ملايين ملايين المرات في غضون عشرات الالوف من السنين الى ان استقرت عادة « الزواج الخارجي » (exogamy) على مل وتولدت معها فكرة المحارم في الزواج بين الحماة وصهرها وبين الكنة وحميها — وهذا التحريم فذ في علم الحياة خاص بالانسان وعام في مجتمعه لان سائر الحيوانات تتزوج من غير ان تقيم حدّاً من حدود المحارم

لكن هذا الاطلاق عن منع زواج المحرم يحتاج الى شيء من الايضاح لان الناس في القرون الاولى لم يكونوا يأثقون من التزوج بالمحارم من الاقارب اللجّ كما نأثف نحن وخصوصاً ملوكهم فاننا نرى في تاريخ البطالسة في مصر مثلاً ان الواحد منهم كان يتزوج اخته وفي تاريخ القرعنة ان رعمسيس الثاني فعل ما فعله قورش ملك الفرس فتزوج اثنتين من بناته واما ساماتيخوس الاول فتزوج ابنة واحدة فقط وذكر (وسترمارك)^(١) عن بعض السياح ان ملوك

(الانكا) في بلاد (البيرو) في اميركا الجنوبية استنوا سنة واجبة الاتباع وهي ان ولي العهد في المملكة مرغم على الزواج بشقيقته الكبرى. والظاهر ان هذا العمل كان خاصاً بالملوك. وجاء في التوراة ان ابراهيم تزوج ساره اخته لاييه^(١) وفي الاصحاح الثالث عشر من صموئيل الثاني ان (أمنون) راود اخته (ثامار) عن نفسها فقالت له « لا يا اخي لا تذلني » ومما يدل على ان الملوك كانوا يسيحون هذا الطلب قولها فيما بعد « والان كلّم الملك لانه لا يمنعني منك »

وذكر (مالو) في كتابه « آثار جزيرة هاواي » في المحيط الهادي ان خير خليفة لا كبر امير هي اخته الشقيقة. وكان مثل هذا الزواج يدعى (بيو) اي قوساً للدلالة على الانحاء والتقاء الطرفين فاذا ما اثمر ثمرة من الابناء الصالحين دعي الولد « نيناويو » اي اميراً من الطبقة الاولى ويبلغ من التقديس ان كل من دخل عليه سجد له تعظيماً واجلالاً وأباحت الشريعة لليهودي ان يتزوج ابنة اخته وابنة اخيه ولكنها لم تبح للعمّة ان تتزوج ابن اخيها ولا للخالة ابن اختها على ان الشريعة في جرمانيا وفي ولاية نيويورك اباحتها كايهما. وفيما عدا زواج الخال بابنة اخته والعم بابنة اخيه عند اليهود (وهو يتشاءمون منه في الشرق) ومسألة الرضاع عند المسلمين فالاختلاف بينهما بسيط. وهذا نص المحارم في الاسلام: « ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء إلا ما قد سلف انه كان فاحشةً ومقتاً وساء سبيلاً. حرمت عليكم امهاتكم وبناتكم واخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الاخ وبنات الاخت وامهاتكم اللاتي ارضعنكم واخواتكم من الرضاعة وامهات نسائكم وربائبكم التي في حجبوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل ابناءكم الذين من اصلابكم وان تجمعوا بين الاختين إلا ما قد سلف ان الله كان غفوراً رحيماً^(٢) »

ويدل القسم الاول من هذا النص على تلك العادة المنكرة التي كانت منتشرة في الجاهلية من اباحة تزوج الرجل بامرأة ابيه لانها حسبت من جملة مخلفاته الى ان ابطالها الاسلام ودعاها بحق فحشاً ومقتاً. ومن اغرب ما ذكر عن الحلائل وزواجهن قول (وسترمارك) عن الفلاحين الروسين ان الوالد منهم وهو حريص جداً على تزويج ابنه صغيراً كي يستعين بامرأة اخرى تساعد في زراعته يضطجع معها اي مع الكنة الى ان يبلغ ابنه وهو زوجها الشرعي سن الرشد، وان هذا النوع من الزواج المشترك الى حين بين الوالد وولده لا يزال معمولاً به في سيبيريا^(٣)

(١) الاصحاح العشرون من سفر التكوين في التوراة

(٢) سورة النساء الآية الثانية والعشرون

(٣) The History of Human Marriage Vol. III. p. 131

ذكرنا المحارم في الاسلام وهي بالاجمال محارم العرب في الجاهلية إلا مسألة امرأة الاب التي اشار اليها الكتاب العزيز، ولا حاجة بنا بعد الاختبارات المستقاة من علم الحياة الى القول ان الاقتصار في الزواج على الحلقات الاهلية القريبة يؤول بالنسل الى الانحلال وهذا هو لتعليل قضية المحارم من الوجهة الحيوية اجمالاً فمثل هذه الاختبارات القيمة عرفها الزراع أيضاً اذ لاحظوا الاضرار البليغة التي تصيب بيادرهم من الاقتصار في انتخاب التقاوي على المحصولات الموضعية

هذه هي خلاصة الرأي الشائع عند علماء الحياة والاجتماع في أصل الاسرة الاولى ونظريتهم في المحارم وخطف النساء فاذا ما تذكرناها ونزعنا من انفسنا الاوهام العالقة بها عن الزواج في سن الصغر ومن روايات العجائز وعنعات المقلدين وخصوصاً بعض الغربيين الذين جعلوا دأبهم الطعن في الشرق وأوضاعه كان في طاقتنا ان نعالج في المقال الآتي الطلاق والزواج وحرمة الاسرة والدواعي التي تهدد روابطها بالانحلال وغير ذلك بالروح العلمية اللائقة

على ان تسرب الاخبار الكاذبة بواسطة السياح المصدقين والملفقين إلى أوروبا لم يخل من تأثير قبيح الطبع حتى في ابعد العلماء عن التعصب الديني كما حدث لرودف بايندر مثلاً وهو أستاذ الاجتماع في أكبر معهد علمي في نيويورك فقد ذكر في كتابه «القضايا الاجتماعية الكبرى» ان العرب والبربر في شمال افريقيا «يقرون الضيف بتقديمهم نساءهم وبناتهم للاضطجاع معه وان من عادة (عرب الحسانية) ان يزوجوا المرأة من نساءهم لمدة اربعة أيام في الاسبوع وان يتركوا لها الحبل على الغارب في الايام الثلاثة الباقية» Major Social Problems, p. 48. ولا يجوز لمثل هذه السخافات ان تبقى في كتب العلم والتحقيق في امرها لا يحتاج الى اكثر من زيارة لمضارب البدو على بعد كيلومترات من حواضر الشام والعراق يزورها الكاتب فيرى بعينه قيمة العرض في نظر العرب والفرق في ذلك بينهم وبين الافرنج

« شلال تيجوكا »

هو شلال كبير يتحدر من أعالي جبال « ألتوبوا فيستا » ويصب في وادي « تيجوكا » ووهادها
المرعة الخضراء ، وتيجوكا هذه حي جميل الموقع مرتفع عن أحياء عاصمة الاتحاد البرازيلي وعلى مسافة
قريبة من الشلال حدائق رائعة ساحرة ينقطع فيها عشاق العزلة الى أحلامهم وتأملاتهم ويזורها سكان
العاصمة للترفيه والتمتع بمنظر الشلال المتفجر المهيّب وهو يقذف من شدة الزبد على تلك الصخور الرمادية
المتراكمة في غياض ملتفة الحواشي تكاد لا تلمحها الشمس حتى تختجب وراء سلسلة من الآكام والغابات
المتشابكة الغضة

أشلال تيجوكا — ماذا النواحُ
ترى أنت عين الزمان تثرُّ الد
تفيض بما لا تفيض العيون
فهلأً ملئت الغناء الشجي
فقد كدت تبكي عليك الصدى
وفتت تحتك صم الحجرُ
أتبكي نظيري نعيّاً عبرُ
موع أم أنك صوت القدرُ
وتشدو بما ليس يشدو البشرُ
وهلأً اجتويت البكا والوجيب
لهذا الغناء وهذا النحيب
وفتت تحتك صم الحجرُ

غسلتُ بمائك عيني وعدتُ
فبالله قل لي — الام تظل —
وأنت تكرّر كرور الزمان
وهذا الوجود كما كان قبل
ودنيا تضجّ بسكانها
وذلك مستسلم للقدرُ
فأبصرت ما الناس لا تبصرُ ..
كذلك تحتاحك الأعصر ؟
فلا تستقرُّ ولا تفتُرُ
شعوبٌ تجمي وأخرى تروح
فهذا يغني وهذا ينوح
وذلك مستسلم للقدرُ

فديتك قيثارة للطبيعة
فطهر بدمعك وجه الدجى
وعسّل بكأسك ثغر الورود
وخلّ فؤادي يقضى ظما
فلست تروّي قلوب العطاش
ولو سال من جفئك الكوثرُ
من مقلتها نسلت الوترُ
وشنف بلحنك أذن القمرُ
فترقص سكرانة في السّحرُ
لدى برد سلسالك الدافق
الى نهلات الهوى الصادق
ولو سال من جفئك الكوثرُ

أشلال هذي الربى والوهاد
أتذكر من أمسنا ليلة
و « ليل » تغني الى جانبي
يخمش فيها الظلام الصباح
تحلّت سماها بزهر الأقاح
غناءً كترجيع ذات الجناح

فأصغى النسيم الى شذوها وأنصت في عشه البلبل
فكانت كعصفورة في الربيع ترض بعصفورها يرحل
وقد يُفجع المرء ما يحذر . .

وشجوك ، سيان أضحي لدي — احترام العهود وحفظ الوداد
وإما استحال النهار ظلاماً وإما استحالت ذكاه رماد
وهذا الوجود اذا ما أتى عليه بشرخ الشباب النفاد
فا زال من قد تعشقت فيها جمال الحياة ، احتواها الفناء
فلست أبالي ابتسام الربيع وحزن الخريف ودمع الشتاء
وغصن شبابي إذ يقصف

أحقاً أتت بك بجنح الدجى من الغاب جنية ساحرة
وكنت قديماً سحابة صيف تمر بغاباتها عابرة
لذا حولتك الى جدول لكي تستحم بك الماكرة
فصرت وساماً بصدر الربيع وصرت حلياً بمجيد الحقول
تردد منذ قديم الدهور صدى نغماتك كل الفصول
كأنك من صدرها المعزف

تفجر ولون خدود الرياض فيتمهج الورد في كمة
فإنك إما جفاه الغمام الحبيب الوفي — على زعمه
تبرد حراً وتنشع نفساً وتنضج غرساً
وتنبت زهراً فتدخل قسراً على القلب حساً
وان كان أولع فيه الجفاف

يرفرح حولك سرب الحسان كسرب الحمام على ضفتيك
وكم تتلاقى أمانى الشباب وأحلامهن على جانبيك
فيخفق صدر ويهش ثغر ويهصر قد وينثر ورد
فتبكي لهذا عيون العفاف

شكر الله الجبر

« البرازيل »

مهاتما غاندي

سيرته بقلمه

ايام المدرسة

عقدت اواصر الصداقة بيني وبين أحد اقرباني في التلمذة ، وكان معروفاً عنه انه غير مستقيم الاخلاق فحذرتني والذي منه وحذرتني زوجي . ولكني كنت من الكبر بحيث لا اخضع لنصائح زوجي ، وحاولت لأول مرة ان اعمل على الضد من ميول امي . كثيراً ما قلتالي اني مع قرين سوء . ولكن اجبتهم « اني اعرف صديقي فيه المعاييب التي تذكرانها ولكنكما لا تعرفان فضائله . وانه على ذلك لا يستطيع ان يفسد اخلاقي ويقودني في طريق الرذيلة ، لاني انما اقصد بصداقته ان افهم معوجه على اعتقاد انه اذا استقام اصبح من احسن الرجال . واني لا ارجو ان لا تشفقا من مصاحبتي اياه » . وكان هذا الحادث اول ما حاولت ان اكون مصلحاً في ناحية من نواحي الحياة

لم تقنعا بما قلت ، ولكنهما تركتاني اقطع شوطي . فلم البث غير قليل حتى استبان لي ان حسابي قد طاش ، وعرفت ان من يريد ان يقوم اعوجاج شخص لا يجب ان يكون على علاقة حبية به ، ولأن الصداقة الحقيقية صفة نفسية قلما توجد في هذه الدنيا . ان الصداقة لن تكون ذات قيمة ولن تدوم الا بين الطباع المؤتلفة . والاصدقاء يؤثر بعضهم في بعض تأثيراً عكسياً . ولذا لا يكون من مجال لان يصلح صديق من معاييب صديقه او يؤثر في اصلاح نقائصه . ورأيي ان الانسان يجب ان يبتعد عن الارتباط بعلاقات عاطفية مع الناس ، لانه بذلك انما يكون اقرب الى التطوح مع الرذيلة منه الى اتباع الفضائل . وان الذي يريد ان يعقد صداقة مع الله ، يجب اما ان يظل وحيداً ، واما ان يعقد صداقته مع الدنيا كلها . وقد اكون مخطئاً ، ولكن التجربة دلتنني على ان محاولتي في عقد صداقة اخلاص ، كانت فشلاً مؤلماً . كانت تحتاج « راجكوت » في ذلك العهد عاصفة من « الاصلاح » !!! — فقال لي صديقي يوماً ان كثير من مدرسي مدرستنا يأكلون اللحم ويعاقرون الخمر . ولم يكتف بهذا بل ذكر اسماء رجال معروفين من « راجكوت » قال انهم يفعلون ذلك . فعجبت من الامر وسألت السبب في هذا : فقال لي ما يأتي : — « نحن امة ضعيفة لاننا لانأكل اللحم ،

والانجليز قادرون على حكمنا واخضاعنا لانهم من اكلة اللحوم . وخذني مثلاً . فانك تعرف مقدار اضطباري وتجديدي واحتمالي المشقات فوق اني عداء معروف . والسبب في هذا اني آكل اللحوم . والذين يأكلون اللحوم لا يصابون بفساد الدم، واذا جرحوا التأمّت جروحهم سريعاً . ولا يمكن ان تهم مدرسينا وغيرهم من الرجال النابهين ممن يأكلون اللحم بأنهم مغفلون . انهم يعرفون ما لهذه العادة من فضائل . وانه لو اجب عليك ان تقتص أثرهم . فليس في الدنيا مثل التجربة . جرب وأنت تعرف مقدار العافية الذي يلبس جسمك »

كان اخي الاكبر قد وقع في الخطيئة ، فأيده وحاول اقناعي ، بأنني ضعيف الجسم وهو قوي . وكان صديقي متفوقاً في العدو الى مسافات بعيدة وقادراً على الوثب العالي الى درجة مذهشة . فكان هذا سبباً في ان اميل الى تصديق ما يقول . ولماذا لا اصبح قوياً مثله ؟ كنت جبناً . كان يغشاني الخوف من اللصوص والاشباح والافاعي . ولم اكن اجروء على ان اخرج من البيت اذا اظلمت الدنيا وناء الليل على الوجود . كانت الظلمة تفرعني . وكان من المستحيل علي ان انام في الظلام ، لاني كنت اتصور اذا اظلمت الدنيا من حولي ان اللصوص آتون من ناحية والاشباح من اخرى والافاعي من ثالثة . فكان لا بد من ضوء في حجرتي . وكانت زوجي اكثر شجاعة مني ، فكان هذا ينجلني . لم تكن تعرف خوفاً من اشباح او افاع ، وكانت تذهب حينما شاءت في الظلام . وكان صاحبي يعرف في هذا الضعف ، فكان يقول لي انه يستطيع ان يمسك في يده أفاعي حية ، وان يقارع اللصوص ، وانه لا يعتقد وجود الاشباح . وان كل هذا راجع الى انه من أكلة اللحوم . كان لكل هذا اثره في نفسي فهزمت . وبدأت نفسي تحدثني بأن أكل اللحوم خير ، وانه سوف يجعلني قوياً شجاعاً وان اهل الهند اذا اعتادوا اكل اللحم استطاعوا ان يستقوا على الانكليز ويطردوهم من بلادهم

حددنا يوماً للبدء في هذه التجربة . وعزمنا على ان نبدأ بها في الخفاء . فان «الغانديين» من الفايشنافا — Vaishnavas — وأبواي من اشد الناس استمسكاً بعري العقيدة . ومما يدل على هذا ان للأسرة معابدها الخاصة بها ، وكانت العقيدة « الجانية » Jainism ^(١) عظيمة الاثر في «جوجرات» ، والامتناع عن اكل اللحوم كعقيدة دينية يستمسك بها اهل الجانية والفايشنافية لم تظهر في طرف من اطراف الهند بما ظهرت به من قوة الاثر في «جوجرات» . وهذه هي العقيدة التي شبت في احضانها وتحت سلطانها . أضف إلى ذلك

(١) ظهرت العقيدة الجانية في الهند في نفس الوقت الذي ظهرت فيه البوذية . ومن مبادئها الاساسية عدم الاعتماد على الارواح و سلب اشخاص نعمة الحياة . وكانت هذه العقيدة من اشد العقائد اثرأ في نفوس الغانديين منذ ازمان طويلة

اني كنت شديد الاحترام لأبوي كثير الخضوع والولاء لهما . وكنت على يقين من انهما يموتان توطاً اذا علما اني آكل اللحوم واني انتهك حرمة العقيدة المقدسة . وكان حي للصدق والحق يجعلني شديد الالباء . ولم يكن في وسعي ان انكر على نفسي واغالطها في حقيقة اني بأكل اللحوم اغش والدي واني اموءه عليهما . ولكن عقلي كان يتجه الى «الاصلاح» . لم يكن الامر عندي راجعاً الى ارضاء شهوة البطن . بل كنت اريد ان اصبح قوياً شجاعاً متين العضلات مشدود الاصلاب ، وان يصبح بقية اهل الهند على هذه الصورة فنستطيع ان نهزم الانكليز وان نحرر الهند . ولم اكن حتى ذلك العهد قد سمعت كلمة «سواراج» (الحكم الذاتي) ولكن كنت اعرف ما معنى الحرية . ولقد اعلماني حب «الاصلاح» كما كان احتياطي في ان آكل اللحم سرّاً ، سبباً في ان اطوح مع الوهم فأقول في نفسي ان اخفاء الفعل عن ابوي كاف في ذاته لان يجعل فعل الشر بعيداً عن ان يكون تناقضاً مع الصدق وحب الحق

وأذنت الساعة . وانه ليصعب علي ان اصف حالتي وصفاً صحيحاً . اكتنفتني من ناحية حب «الاصلاح» ، ومن ناحية اخرى جدة امرى ، ارى في فعله استداراً لعهد واستقبلاً لعهد آخر في الحياة ، ثم التخفي لاتيان فعل شأن اللصوص . ولكننا ذهبنا معاً نقتش عن مكان منفرد بجوار النهر ، وهناك رأيت اللحم لأول مرة في حياتي . وكان معنا خبز صنع على الطريقة الانكليزية . فلم استدوق شيئاً منهما . فاللحم كان في في كانه جلد شديد التماسك ، فلم استسغه ، وشعرت بأني مريض فتركت المكان في الحال

امضيت بعد ذلك ليلة شديدة الوطأة . اعتراني كابوس مخيف فكنت كلما هممت بأن انام خيل الي ان غزاً مذبوحاً ينزف دمه يتخبط بجواري فأهب مرعوباً فرعاً وفي قلبي اشد ما يمكن ان يتصور من الم الضمير

ولكن كنت اذكر نفسي بان ما فعلت كان واجباً ، فترواح هذه الفكرة غني بعض الشيء ، واستعيد شيئاً من صفاء النفس . ولم يكن صديقي من الذين ينثنون عن عزمهم بسهولة . فأخذ يطهي الواناً من الطعام يجعل ظهور اللحم فيه اقل تعرضاً للنظر . ثم تدرجنا من ذلك الى الأكل في مطعم فاخر الرياش ، كان صديقي على معرفة بطاهيه ، بدل أن نعتزل على بقعة مهجورة من شاطئ النهر

وقل بعد ذلك ان اتناول طعامي في البيت ، فكنت اعتذر لأمي كلما جهزت لي طعاماً بأني مضطرب المعدة واني مريض . وكنت اشعر بأني اكذب واني اكذب على امي ! وكنت اعلم ان ما من شيء في الحياة يؤثر في نفس والدي ما يؤثر فيهما معرفتهما بأني اصبحت من أكلة اللحوم . فكانت هذه الفكرة تنهش قلبي ولا تريح ضميري ساعة واحدة . وما بلغت

هذه الحالة حتى اخذت نفسي تحدثني قائلة - « انه وان يكن من الواجب ان آكل اللحوم، وان اتناول هذا الطعام ابتغاء « الاصلاح » ، فان الكذب على الابوين وغشها أنكر من الامتناع عن اكل اللحوم . فيجب اذن ان لا اعود الى هذا العمل مادام ابواي على قيد الحياة ، فاذا طوآها التراب ، فهناك اكون حرّاً ، فأكل اللحم علناً بدون خشية . ولكن قبل ان تحمل تلك الساعة ، فلا تمتنع عن اكل اللحوم » . ومنذ تلك الساعة لم اذق اللحم ابداً . ولكن العظة الصحيحة هي اني حاولت ان اصلح فاسداً ، ففسد صلاحي ، من غير ان اشعر بانني كنت سائراً نحو التردّي في هذه الحمأة الدنيئة

وتعدى تأثير هذه الصداقة الى علاقتي الزوجية وأمانتي لزوجي . اخذني صديقي يوماً الى مآخورة من مواخير المومسات، ودفع عني الاجر المطلوب . ولقد زودني بالنصائح اللازمة واحكم الترتيب كل احكام : هاأنذا اخذت اتردي بين انياب الرذيلة ، ولكن الله الرحيم رحمني من نفسي وصانني من غوايتها فردني اعمى اصم في تلك المآخورة وخرجت منها من غير أن اتلوث بخطيئة الفعل . شعرت بان رجولتي قد جرحت وان الارض تميد بي لتبتلعني ، غمّاً وخجلاً . ومنذ تلك الساعة لا اذكر الحادثة الا ارسلت من قلبي بشكر ان حار الى الله جزاء ما صرفني عن هذا الفعل الشنيع . واني لا اذكر اربع حوادث من هذا النوع في حياتي، خدمني الحظ لا قوة الارادة في الفرار من الوقوع في خطيئتها . اما اذا نظرنا في مثل هذه الحوادث من الوجهة الاخلاقية الصرفة ، فلا يمكن ان نعتبرها اكثر من غيبوبة ادبية ، تموت فيها المشاعر والعقائد . ذلك لاني اعتقد ان تحرك الشهوة البدنية لا تقل نقصاً عن اتيان الفعل نفسه . اما اذا نظرنا فيها من وجهة الحياة العادية فان الرجل الذي يفر من ارتكاب خطيئة يعتبر ناجحاً، ولا اشك في اني لم اعد هذه القاعدة في تجاربي التي جرت هذا المجرى . وفي الحياة افعال يعتبر الفرار من اتيانها عناية الهية تنجي الشخص والذين هم حوله من الناس . وبمجرد ان يرتد الانسان الى مشاعره ويستيقظ ضميره ، فانه لا يتوجه في الحياة الى شيء اللهم الا الى المراحم القدسية يشكرها على فراره من العصيان . واني لاعلم ان الانسان قد يخضع للغواية وقد يستقوى عليه الايحاء والاغواء فيخطيء ، ولكن كثيراً ماتتدخل العناية العليا في شؤون الكثيرين فتقذّرهم رغم انوفهم . اما كيف يحدث ذلك ؟ والى اي حد تذهب حرية الانسان ؟ والى اي حد يخضع الانسان لحكم ماهو قائم من حوله ؟ واما كيف يتغلغل القدر في مسارح الحياة الانسانية، فذلك سر غامض ، وسيتبقى سرّاً الى الابد

كل هذا لم يكن كافياً لان يفتح عيني على شيء من رذائل صديقي وخطر مصاحبته . وكان هذا العمى النفسي سبباً في ان اجرع بضع جرعات مريرة قبل ان تتفتح عيني على شيء من نقائصه ، عسرت عنها افعال جاءت عرضاً وعلى غير انتظار . كان صديقي احد الاسباب

الاساسية التي قامت لاشعال نار الخلاف بيني وبين زوجي. فقد كنت زوجاً محبباً غيوراً، وعرف في صديقي هذه الصفات ، فاخذ يزكي النار الكامنة ليشعلها ويرسل بلهبها في صفاء الاسرة قوياً محطماً . ولم اكن اشك في صدقه . غير اني حتى اليوم لا استطيع ان اغفر لنفسي ما ارتكبت من قسوة ازاء زوجي، وجرائمي التي تحملتها صابرة ، ولم يكن لها من سبب الا اخبار صديقي هذا . وليس في العالم من يحتمل ما فعلت مع زوجي الا الزوجة الهندوكية ، وهذا هو السبب في اني اعتبر المرأة معنى مجسماً من التسامح . نخادمك يترك خدمتك ، وولدك يفر من تحت سقفك ، وصديقك يقطع معك علاقته . اما الزوجة ، حتى اذا شككت في زوجها وملاحتها الريبة ، فانها تظل هادئة . ولكن اذا شك فيها الرجل ، فهدمها ثمن الشك ، وسقوطها وتشردها عربون الريبة . الى أين تذهب ؟ ان الزوجة الهندوكية لا تستطيع ان تطلب الطلاق في محكمة . ان القانون لا يحميها . ولن اسامح نفسي او اغفر لها خطيئة اني كنت سبباً فيما تصل الحال زوجي الى هذا المآل مآل اليأس والقنوط

ان سرطان الشك لم تقتلع جذوره من نفسي الا بعد أن فهمت « الأهمسا » Ahimsa. (١) مع كل ما يرتبط بها من العلاقات والاعتبارات . هنالك رأيت عظمة البراهماشاريا (٢) — Barahmacharya — وتحققت ان الزوجة ليست رقيقة للزوج ، بل رفيقة ومعينة في الحياة ، وان لها حق ان تقسم مسراته واحزانه ، وانها حرة كالرجل في ان تختار ما يلذ لها في الحياة من سبل الحياة . واني كلما ذكرت تلك الايام السوداء ، ايام الشك والريبة ، ملائي الحزن العميق والالم المحض تلقاء ما كنت فيه من الغفلة والتهاب الشهوة والقسوة ، واحتقر تلك الثقة العمياء التي وضعتها في صديقي

حدث في ايامي المدرسية وقبلها بقليل اني اخذت واحد اقاربي نعكف على عادة التدخين. لم نكن ندري ما هو التدخين ، ولكني وياه تصورنا انه في ان نرسل بالدخان فيخرج حلقات كالسحاب في الهواء لذة . وكان عمي من كبار المدخنين . وكنا كلما رأيناه يدخن ، حاولنا ان نحتذي حذوه . ولكن لم يكن لدينا نقود . فاخذنا نلتقط اعقاب السجائر وندخنها . لم يتيسر لنا ان نجد الاعقاب دوماً ولم يكن فيها من الدخان ما يكفي لتحقيق غرضنا . فبدأنا نسرق بضعة دراهمات من جيب الخادم لنشتري بها سجائر هندية . واين نخبئها ؟ كانت هذه المشكلة سبباً في

(١) الأهمسا بالمعنى الحرفي البراءة وعدم استعمال العنف . وهي في هذه المعنى تعادل معنى الحب. والذي يظهر من هذه الفكرة ان عدم التعاون والعصيان المدني مع الامتناع عن استعمال العنف ، وهي الوسائل الاساسية التي يستخدمها غاندي لمقاومة الاستعمار الانجليزي في الهند ، متحلة اصلا من مبادئ دينية صرفة (٢) البراهماشاريا بالمعنى الحرفي الخلق الذي يؤدي الى الاتصال بالاله . ومن أركانه ضبط النفس والمعة والتقشف

ان ندخن بعض اوراق الاشجار التي سمعنا انها يمكن ان ترسل الدخان كما يرسل التبغ ، فجمعنا منها قدراً واخذنا ندخنه . غير ان حب الاستقلال اخذياً كل في قلبينا ، لان خوفنا من ان ندخن امام من هم اكبر منا سنّاً ، جعلنا نشعر بان هذه الحياة لا قيمة لها من غير ان يكون الانسان حراً مستقلاً بذاته . وفي النهاية وكرهاً لهذه الحياة صممت وقريري هذا على ان نتحرر ولكن كيف نتحرر ؟ ومن اين نحصل على السم ؟ سمعنا ان بزور الداتورة سم نافع . فذهبنا الى الغابة نبحث عن حبها وجمعنا شيئاً منه ، وحددنا المساء لارتكاب جريمة الانتحار . فذهبنا الى معبد «كيدا رجي مندير» ووضعنا زبداء سائلاً في مصباح المعبد، وزرنا المقام الاقدس ، ومن ثم اخذنا نبحت عن زاوية منعزلة . غير ان الشجاعة خانتنا . قلنا لنفرض اننا لم نمت توّاً ؟ وما هو الخير الذي ننجيه من ان نتحرر ؟ لماذا لا نستقل بانفسنا ونكفيها شر الموت ؟ ومع كل هذا ازدرد كل منا حبتين او ثلاثاً ، ولم نجرؤ ان نزدرد اكثر من هذا العدد . ولم نكد نزدرد الحبات حتى تملكنا شعور الخوف من الموت . فهرعنا الى المقام الاقدس ، وعاهدناه على ان لا نرجع الى تنفيذ فكرة الانتحار وان نقلع عنها . والحق ان تنفيذ الانتحار ليس سهلاً كتصوره . وما سمعت منذ تلك الساعة شخصاً يهدد بالانتحار ، الا واعتقدت انه بعيد عن الجد وانه الى الهزل اقرب

لقد صرفتنا فكرة الانتحار عن تدخين اعقاب السجائر وعن سرقة نقود الخادم . لم أدخن بعد ذلك قط . واخذت هذه العادة تلوح لي كأنها ضرر وقذارة . وكما فكرت في الامر لا استطيع ان اعرف السبب في انتشار عادة التدخين هذا الانتشار المريع في كافة انحاء العالم . واني لا خنتق اذا سافرت في قطار عقب جوه بدخان التبغ واشعر شعوراً عجيباً بحاجة الى الهواء الطلق النقي

لم تكن جريمة سرقة الخادم آخر سرقة ارتكبتها . اما السرقة الثانية فحدثت ولي من العمر خمس عشرة سنة . فان اخي الذي اغواني وصديقي على اكل اللحم كان قد استدان خمسة وعشرين روية وكان بيده حلية تتدلى منها قطع من الذهب ، فسرقت قطعة منها وبعتها ودفعت عنه الدين . ولكن هذا لم يكن مما يمكن احتماله على نفسي . فصممت على ان لا اسرق مرة اخرى . وحاولت ان اعترف لابي ، ولكن لم اجرؤ على الكلام . لم امتنع خوف ان يضربني ابي ، فاني لا اذكر انه ضرب واحداً منا طول حياته ، ولكنني خشيت الالم الذي احده في نفسه باعترافي . واخيراً صممت على ان اكتب الاعتراف بيدي ، وارسل به الى ابي طالباً منه العفو والغفران . فكتبته على قصاصة صغيرة وسلمته اليه يداً بيد . ولم اعترف بجريمتي فقط ، بل طلبت منه ان يعاقبني عليها ، ورجوته ان لا يعاقب هو نفسه بالاسترسال مع الحزن والالم ، ووعدته بان لا اسرق مرة اخرى

كنت اهتز رعدة من مفرق رأسي الى اخمص قدمي لما قدمت له الاعتراف ، وكان يشكو ناسوراً حاداً وكان مستلقياً على فراشه الذي لم يكن سوى دكة من الخشب الصلب . فلما قرأ الورقة تساقط الدموع من عينيه كاللآلئ البيضاء حتى بللت الورقة ، ثم اغمض عينيه برهة مستغرقاً في لجة من الافكار ثم مزق الورقة . فبكيت لبكائه ولألمه . ولو كنت فناً اذن لرسمت صورة رائعة من هذا المنظر ، فانه لا يزال حياً في خاطري كما وقع تماماً . ولقد طهرت تلك الدموع البريئة قلبي وغسلت خطيئاتي . ولن يدرك هذا الحب الا من يكابده

كان هذا الدرس بمثابة وضع قواعد « الالهسا » موضع التطبيق . لم استذوق من هذا الدرس في ذلك العهد الا انه عطف أبوي اما اليوم فاني اعتقد انه « الالهسا » في براءته وطهره . فان الالهسا اذا احاط وتغلب ، فانه يغير كل شيء بمسه . لاحد لقوته ، ولا نهاية لآثره . ان ابي لم يكن من التسامح بحيث يذهب به حب المغفرة الى الحد الذي وصل اليه . ظننت انه سوف يغضب وانما غضبه سوف يلهب ، فيرسل بكلمات جارحة ، وانه سوف يضرب جبينه بيده . ولكنه كان هادئاً . واني لاعتقد ان هدوءه كان راجعاً الى صراحة اعترافي . وان اعترافاً بريئاً مصحوباً بوعد صريح بعدم العودة الى ارتكاب الجرم ، اذا تقدم به المجرم الى الشخص الذي يحق له ان يتقبل هذا الاعتراف ، لانتي صورة من صور التوبة . ولقد شعرت بان اعترافي قد طيب نفس ابي وانه اصبح واثقاً بي وزاد حبه لي وعطفه عليّ

كنت اذ ذاك في السادسة عشرة من عمري . وكان ابي مريضاً طريح الفراش ، يقوم على تمريره خادم عجوز وأمي وأنا . وقت له بعمل الممرضة ، فكنت اغسل جرحه واضمده واعطيه الادوية كلما حان وقت تناولها . وكنت اكب كل ليلة على تدليك قدميه ورجليه ولا اذهب الى فراشي الا بعد ان يأذن لي ، او بعد ان يأخذه النعاس . وكانت هذه الخدمة عزيزة عندي شيقة لدي . ولا اتذكر مطلقاً اني اهملتها ، بل كنت اصرف كل وقتي بعد المدرسة في العناية بتمريض ابي . وما كنت اخرج الى النزهة قليلاً الا اذا اذن لي ، او شعر بانه احسن حالاً وأذنت الساعة الرهيبة . وكان عمي في « راجكوت » واذكر انه اتى على عجل عند ما علم باشتداد العلة على اخيه ، وكان ينام بجواره ويمرضه بنفسه

كانت الساعة الحادية عشر ، وكنت ادلك قدمي والدي ، ثم آويت الى حجرتي ، ولكن الخادم طرق الباب بعد بضعة دقائق معلناً ان ابي كان في شدة المرض . ولكنني شعرت شعوراً عميقاً بما يختفي وراء هذه الجملة من المعاني . وسرعان ما صدق حدسي ، فان والدي كان قد فارق الحياة

موسيقى المصريين القدماء

الموسيقى فن من فنون الجمال كالشعر والتصوير ينبغ فيه افراد قلائل ويمتاز به قوم دون غيرهم . وقد وجد الباحثون في آثار الأمم ان المصريين القدماء اول من وضع اساس الموسيقى وتفنن في آلاتها . وكان مقامها عندهم رفيعاً وتأثيرها في نفوسهم شديداً حتى جعلوها من فرائض ديانتهم ومن لوازم افراحهم وأتراحهم . وكان كهانهم يشاركون المغنين ويجلسون



في حلقاتهم مع نسائهم وأولادهم . وأخذ الاسرائيليون هذه الصناعة عنهم وجعلوها من شعائر عبادتهم وجرى اليونان هذا المجرى فتفننوا فيها تفننهم في سائر الصناعات وأحلوها محلاً رفيعاً من التجارة والاكرام حتى قيل ان سقراط الحكيم كان يغني ندماءه بنفسه ليطربهم . ثم تقلص ظلها بعد اليونان والرومان ولم تنل من عناية العرب ما نالت العلوم الرياضية والفلسفية لان بعض الائمة حرّموها (١) . وظلت في غفلات الخمول الى ان احياءها الاوربيون ثانية مع ما احيوا من الصناعات

ويظهر من عناية فيثاغورس بفن الموسيقى ان المصريين الاولين كانوا يحسبونه من العلوم الرياضية لان ذلك الحكيم اخذ العلم عنهم . ويؤيد ذلك ما قاله افلاطون الحكيم من انه كان للموسيقى عند المصريين شأن كبير جداً لما لها من التأثير في عقول الاحداث . وما قاله استرابون المؤرخ من ان المصريين كانوا يعلمون احداثهم فنون الادب والغناء . وقال ديودوروس ان الشعراء والمغنين كانوا يفدون من بلاد اليونان الى القطر المصري لكي يتقنوا صناعتهم فيه ومعلوم ان افلاطون الحكيم اقام في القطر المصري ثلاثة عشر عاماً وقال في كتاب الشرائع افضل كتبه ما يأتي « ان الاسلوب الذي مهدناه لتعليم الاحداث كان معروفاً عند

(١) راجع ملخص تاريخ الموسيقى العربية في مستهل مقال « حول مؤتمر الموسيقى » المنشور في صفحة

المصريين من قديم الزمان وهو أنه لا يجوز للأحداث أن يروا إلا الصور الجميلة ولا أن يسمعوا إلا الغناء الموقع . وأقروا على تلك الصور وذلك الغناء وعرضوها في هياكلهم ولم يبيحوا للمصريين أن يبتدعوا بدعة جديدة تخالف ما تقرر ولا للمغنين أن يغيروا أسلوب الغناء والعزف ولذلك تجد صورهم وتماثيلهم المصنوعة منذ عشرة آلاف سنة مثل صورهم وتماثيلهم المصنوعة الآن لا هذه تفضل تلك ولا تلك تفضل هذه وغرضهم من ذلك المصلحة العامة ولقد أصابوا في ما قرروه عن الموسيقى وأفلحوا في وضع قواعدها وجعلها آلة لدفع الضيم . . . ولا بد من أن الواضع لها كان الها أو انساناً مخصوصاً بالوحي الالهي »

ويظهر من الصور والآثار المصرية أن المصريين القدماء كانوا مغرمين بالموسيقى متفننين في آلاتها أكثر من رسومها تزييناً لمنازلهم ومدافنهم وأمتعته وانهم كانوا يدرسونها درساً علمياً ويعرفون قواعدها وروابطها ويؤيد ذلك شهادة اثينيوس الذي قال أن اليونان والبربر



كانوا يتعلمون الموسيقى من جالية المصريين وأن أهالي الاسكندرية كانوا أعلم الناس بالضرب على المزمار وغيره من آلات الغناء

ولابد من أن تكون هذه الصناعة نشأت عندهم على صورة بسيطة فكانت آلاتهم أولاً مثل أبسط آلات الزنوج والبرابرة ثم ارتقت رويداً في

الاتقان والتركيب إلى أن اكتشفوا قواعد الصوت العلمية وحينئذ سهل عليهم أن ينوعوا آلاتهم بحسب مقتضى الحال . وكان لصناعة الموسيقى مقام رفيع عندهم لأننا نراهم ينسبون وضعها إلى أحد معبوداتهم ولذلك كان كهانهم شديدي الحرص على اتقانها علماً وعملاً

وصورة القيثارة التي صدرنا بها هذه المقالة وجدت في قبور الملوك ببطية وهي في الأصل ملونة بألوان بديعة جداً فوجه الملك أصفر وكذلك كل الأجزاء البيضاء في الصورة فلها في الأصل صفراء اللون والأجزاء السوداء منها مصبوغة باللون الأزرق وبعضها باللون الأخضر والأجزاء المخططة مصبوغة باللون الأحمر ومجموع ذلك جميل جداً يروق العين كما يروق صوت القيثارة

الأذن . قال العالم بروس في وصف هذا القيثار وغيره من القيثائر المصورة هناك « أنها لو قوبلت بكل ما قيل عن الموسيقى الشرقية وآلاتها من أقدم عهدها إلى الآن لكانت دليلاً قطع من الف شهادة يونانية على أن علوم الهندسة والرسم والموسيقى كانت بالغة أوج ارتقائها حيناً صنعت هذه القيثائر . وإن الوقت الذي نحسبه مبتدأ استنباط هذه الصناعة إنما هو مبتدأ أحيائها بعد موتها » . وقد وجدت صورة هذا القيثار في قبر الملك رمسيس الثالث الذي تولى مصر سنة ١٢٠٠ قبل المسيح

ويظهر من الصور المصرية القديمة أنهم كانوا يعرفون ما يسمى باتفاق الانغام ويجمعون بين آلات مختلفة في وقت واحد فترى في الشكل الثاني صورة خمس من القينات اثنتين منهن تنقران آلتين مختلفتين من نوع العود وواحدة تنفخ في المزمار وواحدة تصفق بيديها وواحدة ممسكة آلة أخرى لا يظهر إلا زاوية منها . وكثيراً ما كانوا يجمعون بين القيثار أو العود والمزمار والقيثار وقد يضيفون إليها الدف والصفارة . وأعوادهم كلها من المثلث أي أنها ذات ثلاثة أوتار فقط ولكنهم كانوا يقصرونها بأصابعهم عند النقر حتى تتمثل في العود جميع الاصوات على اختلاف أبراجها ويصح فيه قول كشاجم حيث قال

فكأنما شخص القريض ممثل في العود أو سكنته روح الموصلي

وفي بعض القيثائر ثلاثة أوتار وفي بعضها أكثر من ذلك إلى أربعة وعشرين وترّاً . وكان عندهم دفوف وطبول ومزاهر ولذلك كان يكثر عدد العازفين في الحفلات الكبيرة فقد ذكر اثينيوس أن عددهم بلغ أحياناً ستمائة وكان ثلثمائة منهم ينقرون على القيثائر

وكانوا يخرجون إلى القتال بالابواق والطبول كما تفعل الجنود في هذه الأيام والمبوقون والمطبلون من آحاد الجند ولكنهم يختصون بهذه الصناعة فلا يتقلدون سيفاً ولا رمحاً على الغالب والغرض الأول من الموسيقى إقامة الشعائر الدينية على أسلوب يؤثر في النفوس ولكنهم كانوا يستعملونها أيضاً في أفراحهم واطرأحهم وولائمهم . وكان الكهنة وعطاء الشعب يتعلمونها ويمارسونها ولكن جمهور المغنين والعازفين في المحافل والملاهي كان غالباً من عامة الشعب وكانوا يستخدمون هذه الصناعة للارتزاق

والظاهر أن الرومان أهملوا الموسيقى ولم يهتموا بها فضعف شأنها في هذا القطر مدة استيلائهم عليه . ثم لما انتشرت فيه الديانة المسيحية وزال الملك منه أهملت الفنون كلها وعكف الناس على الدين والزهد في الحياة الدنيا . ولم تعد الفنون بعد ذلك إلى شأنها الأول . وأخذ العرب الموسيقى عن اليونان والفرس وتفننوا فيها وحسبوها من العلوم الرياضية ويظن البعض أن الصينيين سبقوا المصريين إلى استنباط الآلات الموسيقية ووضع علم الاتقان كما فصلنا ذلك في المجلد التاسع من المقتطف

أبو تمام^(١)

لورستان أنيس المقرسى

استاذ الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية

توطئة تاريخية

يؤخذ من المصادر التاريخية ان ابا تمام ولد حوالي ١٩١ هـ . في قرية يقال لها حاسم وهي على ما ذكر ياقوت قرية تبعد عن دمشق ثمانية فراسخ على يمين الطريق الاعظم الى طبريا . ولا يعرف عن حياته فيها شيء يذكر الا أنه قد يلاحظ مما نقله ابن خلكان وابن عساكر أنه كان في صغره يعمل عند حائك او قزاز في دمشق^(٢) . وكل ما يمكن استخلاصه من شتى الروايات ان والده رجل مسيحي اسمه تدوس العطار خرف بعد اسلام الشاعر الى اوس . ويرجعون نسبه الى قبيلة طي ولذلك لقب بالطائي . وفي ديوانه مواقف يفاخر فيها بهذا النسب ذكر منها هنا قصيدته التي مطلعها — « تصدت وحبل الين مستحصد شرر » ومنها وهل خاب من جذماه في اصل طيبي عدي العديين القلمس او عمرو لنا جوهر لو خالط الارض اصبحت وبلطانها منه وظهرانها تبر مقاماتنا وقف على العلم والحجى فاعردنا كهل واشينا حبر ويأخذ فيها بذكر كرام الطائيين وابطالهم وما كان لهم من غرر الوقائع ويختتمها بقوله : مساع يضل الشعر في كنه وصفها فما يهتدي الا لاصغرها الشعر والجمع عليه انه انتقل وهو فتى الى مصر وكان يلزم مسجدها يخدم فيه اهل العلم والادب . فنشأ هناك ثم جاب الاقطار فزار بغداد وخراسان ونيسابور وبلاد الجبل والحجاز وارمينيا والموصل وسواها . وشعره منفع بما يدل على كثرة تجواله في الاقطار ، وتحمله للمشاق والاعطار . واذا دققنا في ديوانه وسيرته ترجح لدينا انه هبط مصر يافعا في قصيدته التي قالها في مصر مادحا آل الرسول ومطلعها « اضلية حيث استنت الكتب العفر » ما يشير الى انه قالها وهو في السابعة عشرة واليك هذه الايات منها

(١) ابني الاستاذ أنيس المقرسي بوضع كتاب موضوعه (امراء الشعر العربي) جرى في كتابة فصوله على الطريقة الحديثة في استنباط سيرة الرجل من معارضة المصادر والتدقيق في نقلها وتحليل قصائده وارجاعها الى العوامل النفسية واحوال البيئة التي يعيش فيها . ويسرنا ان تقدم اقراء المتكطف فضلا من هذا الكتاب النفيس الذي ينتظر ظهوره قريباً (٢) وفيات الاعيان ١ — ٥٣ وتهذيب التاريخ الكبير ٤ — ١٨

وان نكيراً ان يضيق بمن له
وما لامرئ من قائل يوم عثرة
وان الذي احذاني الشيب — التي
عشيرة مثلي او وسيلته مصر
لعاً وخديناهُ الحداثة والفقر
رأيت ولم تكمل له السبع والعشر
فاذا تأملت البيت الاول شعرت ان قائله حديث العهد بمصر وانه انما امّها وسيلة للارتزاق.
ويثبت لنا ذلك ما جاء في حسن المحاضرة للسيوطي من انه هبط مصر «وهو في شببيته» (١).
وكذلك ما اشار اليه عرضاً ابن خلكان وابن عساكر انه كان في دمشق يعمل عند حايك. وفي
شعره ما يدل على ان حياته في مصر لم تكن على ما يرام فاكثر شعره فيها نقثات متبرم يستقبل
الاقامة في وادي النيل. وهذه قصيدته اللامية شاهدة بذلك نظمها وقد مرّ عليه خمسة احوال
في مصر فقال فيها —

بنفسي ارض الشام لا ايمن الحمى
عدتني عنكم مكرهاً غربة النوى
الى ان يقول:

اخسة احوال مضت لمغيبه
ويمنعه من ان يبيت زماعه
لقد طلعت في وجه مصر بوجهه
وساوس آمال ومذهب همة
نأيت فلا مالاّ حويت ولم اقم
وكان ورأي من صريمة طيء
فلم يك ماجرعت نفسي من الاسى
والذي يحصل من هذه الابيات انه كان قبل خمسة احوال ترك قومه وجاء
مصر منتجعاً الرزق فلم يلق ما كان يتوخاه . ولم يحمله على البقاء فيها حتى الآن الاّ القضاء
المعاكس ويفهم من ذلك ضمناً انه ترك اهله وفيه مطامع ولا تكون المطامع عادة قبل ان
يشرف المرء على البلوغ . فشاعرنا على ما يظهر حسن اليه الاسلام وهو في الشام ففعل ذلك
مندفعاً بما فيه من الطموح وطلب العلى (٢). وظن انه ينال غايته في مصر فأما ولضيق
ذات يده وميله الى الادب لزم المسجد يخدم أهل العلم ويأخذ عنهم . وما زال كذلك حتى
نبغ واشتهر فهجّر مصر قاصداً كبار الرجال في العالم الاسلامي . وبلغ المعتصم خبره فحمله
اليه الى سامقرا (سرّ من رأى) فلزمه ومدحه وكان في زمانه أمير الشعراء وحامل رايتهم .

(١) حسن المحاضرة ١ — ٢٤٠

(٢) وقد فعل ذلك بعض من كبار النصاري في عصره وبعده كآل الفيض وآل نوبة . وآل وهب وكانوا
من رؤساء الناس وكانت دولتهم ناصرة وایامهم مشرقة . الفخري ١٨٢ و١٣٧ والفهرست ١٣٥

ثم عينه الحسن بن وهب على بريد الموصل ف قضى في هذا المنصب السنتين الأخيرتين من حياته وتوفي هناك^(١)

شخصيته في شعره

لابي تمام مزيقان بارزتان . صبره على المشاق لبلوغ المني وشدة عنفوانه وأعجابه بنفسه . يضاف الى ذلك ميله الى الاسراف في المال والقوى . فاذا قرأت ديوانه رأيت مفعلاً بما يدل على انه نشأ مغامراً في سبيل الجاه والمال . وقد زادت كثرة اسفاره عزماً ومضاء فليس اذن من الغريب ان تسمعه يقول

ذريني على اخلاقي الصمّ التي هي الوفر أو سرب ترن نواديه
اي دعيني — على ما في من خلق شديد — اخوض غمرات الحياة فلما الغنى أو الموت .
وقوله من نفس القصيدة

ولكنني لم احو وفرّاً جمعا ففزت به الا بشمل مبدّد
ولم تعطني الايام نوماً مسكناً الذّ به الا بنوم مشرّد
وطول مقام المرء في الحي مخلّق لديابجتيه فاغترب تتجدد
فاني رأيت الشمس زيدت محبة الى الناس ان ليست عليهم بسرمد
نزعة في نفس الشاعر تعبّر لنا عمّا يختلج في نفوس البسلاء المغامرين الذين يأبون حياة
الحمول فيقتحمون الاهوال ويخوضون الغمار طلباً للعلی والمجد

ليس باكناف الجرير وفارس وقم واصطرخ قرار لرود
بلى ان ارض الله فيها ندوحة ومضطرب للفاتك المتجرّد
تلك روح قلقة كثيرة المطامع . وهي التي حملت شاعرنا على ترك قومه في الشام . ثم على
ترك مصر والضرب في اجواز الارض . وقد صدق في وصف حاله اذ قال

ذات الثنايا الغر لا تتعرّضي عند الفراق بمقلتين وجيد
ما يبض وجه المرء في طلب العلى حتى يسود وجهه في البید
وانك لتكاد تلمس صلابة نفسه في ابياته التالية —

لا افقر الطرب القلاص ولا أرى مع زير نسوان اشد قيودي
شوق ضرحت قذاته عن مشربي وهوى اطرت لحاءه عن عودي
عامي وعام العيس بين وديقة مسجورة وتنوفة صيخود
حتى اغادر كلّ يوم بالفلا للطير عيداً من بنات العيد
وملخص هذه الابيات اني لست من الذين يركبون العيس توصلاً الى طرب أو الى ملهى

(١) بعد هذه التوطئة احصى الاستاذ المقدسي اهم ممدوحى ابي تمام وعدد ما قاله فيهم من القصائد

غرامي ولكنني رجل اسفار متمرس بقطع الفلوات المحرقة وكم تركت لطيوورها نصيباً وافراً
من نياقي . يشير بذلك الى صلابته واحتماله وشوقه الى العظام . والكثير في شعره ينضح
بهذه الروح المغامرة . حتى شعره في مصر وهو في اول عهده وقد قيده الدهر بقيود الفقر —
راه برغم ذلك ينم على نفس مرّة طماعة . ومن قوله في ذلك

وطال قطوني ارض مصر لحاجة يقال لها أقبح بهاتي وأسمج
اقلب في اقطارها الطرف كي ارى ولست براء ذاك عصمة ملتجي
فقتنني بأسي واعلم انني مقود بحبل المقادير مدمج

اما عنفوانه فظاهر مما رووه عنه يوم قصد عبد الله بن طاهر امير خراسان . قالوا لما
فرغ من انشاده بأثيته التي مطلعها « اهن عوادي يوسف وصواحيه » نثر عليه الف درهم
فاستقلها الشاعر ولم يمض منها شيئاً بل تركها للغلمان يلتقطونها . فوجد عليه الامير وقال يترفع
عن برّي ويتهاون بما اكرمه فلم يبلغ ما اراده منه بعد ذلك . واي عنفوان اشد من ان
يقصد شاعر اميراً جليلاً كابن طاهر فيمدحه ثم هو يرى هبة الامير أقل من قدره فيترفع
عن ان يمسيها بيده ، وهذه الظاهرة الخلقية في شاعرنا تتجلى لنا ايضاً في خلق ابي الطيب
المتني كما سنرى عند درسنا هذا الشاعر . وهي قد تهيب بالشاعر الى وزن نفسه بميزان ممدوحيه
او الى التفاخر والتعظيم على زملائه ومناوئيه . خذ قصيدته التي قالها يمدح قاضي الدولة
العباسية احمد بن ابي دؤاد ويعتذر اليه عن اساءة . وأولها

ارأيت اي سواف وخدود عنست لنا بين اللوى فزود

وفيها يذكر فضل الممدوح وفضل قومه (اياد) ويقرن ذلك بمدح طي (قبيلة الشاعر)
ويجعل اياداً وطياً متساويين في المحامد فيقول

كعب وحاتم اللذان تقاسما خطط العلى من طارف وتليد

هذا الذي خلف السحاب ومات ذا في الحمد ميتة خضرم صنيدي

ثم يتقدم الى الاعتذار بأبيات تدل على شدة نفسه ومنها

فاسمع مقالة زائر لم تشبهه آراؤه عند اشتباه البيد

اسرى طريداً للحياء من التي زعموا وليس لهبة بطريد

كنت الربيع امامه ووراءه قر القبائل خالد بن يزيد

ما خالد لي دون ايوب ولا عبد العزيز ولست دون يزيد

والمأمل في هذه الابيات يعجب من هذه العواطف التي تملي عليه ان يقول
لمدوح عظيم يعتذر اليه . لم آتك رهبة منك بل خجلاً مما اتهمت به . وان مثلي في الاعتذار
اليك مثل يزيد بن المهلب لما استجار من الوليد بأيوب بن سليمان بن عبد الملك وبعبد العزيز

ابن الوليد فشفعا له وما خالد الذي يشفع لي بأقل منهما ولا انا بأقل من يزيد بن المهلب
ومثل ذلك قوله من قصيدة يمدح بها محمد بن يوسف —
وكنت اذا ما زرتُ يوماً مسوداً سرحت رجائي في مسارح سؤدد
فان يحزل النعمى تثبه قصائدي وان ياب لم اقنع بأصوات معبد
ليس بأكناف الجرير وفارس وقم واصطرخ قرار لروء
فكأنه يقول اني شاعر كبير النفس اقصد الامير العظيم فان كافائي بما يستحق مقال
كافأته بما يستحقه من القصائد والا فاني اتحول عنه الى الضرب في آفاق الارض
اما تعاضمه بشعره فهو كثير في شعره كقوله

وسيارة في الارض ليس بنازح على وخدها حزنٌ سحيق ولا سهبٌ
تذرُّ ذرور الشمس في كل بلدة وتسمي جوحاً ما يرد لها غرب
اذا أنشدت في القوم ظلت كأنها مسرة كبر او تداخلها عجب
مفصلة بالؤلؤ المنتقى لها من الشعر الا انه اللؤلؤ الرطب

وقوله: خذها مغربة في الارض آنسة بكل فهم غريب حين تغرب
لا يستقى من خفير الكتب رونقها ولم تزل تستقى من بحرها الكتب
حسية من صميم المدح منصبا اذ أكثر الشعر ملقى ماله حسب
وقس على ذلك ما لا يسعه هذا المقام

على ان ابا تمام كان — على صلابة نفسه — موصوفاً بكرم النفس وحسن الاخلاق^(١)
وكان محبباً للشراب والغناء لا يكاد يحصل على المال حتى ينفقه في سبيل المسرات . فهو في
ذلك كأكثر شعراء عصره . وبرغم ما تجده في شعره من الشدة الدينية (ولا سيما عند ذكره
للروم) لا تجد في سيرته أو في شعره تمسكاً شديداً بفروض الدين . قال المسعودي كان
أبو تمام ماجناً خليعاً وربما أداه ذلك الى ترك موجبات فرضه تماجناً لا اعتقاداً^(٢) وبكلمة
اخرى كان مستهتراً قليل المبالاة بما يتطلبه حسن الاعتقاد

قصائد الفصحى

قال ابن رشيق القيرواني لا بد لكل شاعر من طريقة تغلب عليه كأبي نواس في الجمر
وأبي تمام في التصنيع والبحثري في الطيف الخ^(٣) وقال الجرجاني في الوساطة كانت الشعراء

(١) نزهة الالباء للابن بارى ٢١٤ وابن عساكر ٤ — ١٨ الى ٢٦ (٢) مروج الذهب ٢ — ٢٥٣

(٣) العمدة ١ — ١٩٤

نحري على نهج من الاستعارة قريب من الاقتصاد حتى استرسل فيه ابو تمام ومال الى الرخصة فأخرجه الى التعدي وتبعه اكثر المحدثين ^(١). وقال ابو الفرج الاصفهاني . وله مذهب في المطابق هو كالسابق اليه جميع الشعراء . وان كانوا قد فتحوه قبله وقالوا القليل منه فان له فضل الاكثر والسلوك في جميع طرقه ^(٢) . ووصفه الامدي بقوله وشعره لا يشبه اشعار الاوائل ولا على طريقهم لما فيه من الاستعارات والمعاني المولدة . ثم يقول فان كنت تميل الى الصنعة والمعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة فلا تلوي على غير ذلك فأبو تمام اشعر ^(٣)

هذا هو رأي جبهة العلماء النقادين في شعر ابي تمام . والذي يطالع ديوانه ويدقق في تفهيم معانيه يرى فيه ثلاث مزايا ظاهرة وهي :
 ١ — تألقه البديعي (وأكثر ما يظهر ذلك في الاستعارة والطباق والجناس)
 ٢ — تقننه المعنوي وهو ما يسميه البعض بالاختراع
 ٣ — شغفه بالاغراب — أو الغوص على ما يستصعب من الالفاظ والمعاني ولنيسط لك هذه المزايا واحدة واحدة

المناظر البريمي

لم يخل الشعر العربي في عصر من العصور من الأخذ بأسباب البديع او الصناعة اللفظية والمعنوية . كان ذلك منذ ايام الجاهلية . فقد عرف امرؤ القيس بسبقه الى الكثير من لطائف الوصف والتشبيه . وعرف زهير بتنقيف قصائده وتكرير النظر فيها وتنقيحها « وربما رصد اوقات نشاطه فتباطأ عمله » . ولذلك سميت الحوليات مبالغة في تألقه وتصنعه . ومثله الخطيئة . وإذا راجعت شعر النابغة والاعشى وجريز والاخلط والفرزدق وأبي نواس وبشار ومروان ومسلم وسواهم من امراء الشعر الذين تقدموا ابا تمام وجدت في جميعهم أثر الميل الى الصناعة يتفاوت فيهم تفاوتاً يختلف باختلاف الشاعر وأحواله . قال ابن رشيق عن صناع الشعر القدماء « واستطرفوا ما جاء من الصنعة نحو البيت او البيتين في القصيدة بين القصائد يستدل بذلك على جود شعر الرجل وصدق حسه وصفاء خاطره . فاذا ماكثر ذلك فهو عيب يشهد بخلاف الطبع وايثار الكلفة وليس يتجه البتة ان يأتي من الشاعر قصيدة كلها أو أكثرها متصنع من غير قصد كالذي يأتي من اشعار حبيب والبحري وغيرها وقد كانا يطلبان الصنعة ويولعان بها ^(٣) »

وقد كادوا يجمعون على ان مسلم بن الوليد هو اول من توسع في البديع وتبعه فيه جماعة

منهم ابو تمام روى ذلك الاصفهاني في سيرة مسلم بن الوليد وقال ان ابا تمام جعل شعره كله مذهباً واحداً فيه ونقل عن محمد بن يزيد قوله كان مسلم أول من عقد هذه المعاني الطريقة واستخرجها . وعن القاسم بن مهرويه أول من أفسد الشعر مسلم بن الوليد جاء بهذا الفن الذي سماه الناس البديع ثم جاء الطائي بعده ففتن فيه^(١)

والحقيقة ما ذكرنا من ان انواع البديع منشورة متفرقة في اشعار المتقدمين ولكن مساماً أكثر منها وكان يحتذي حذو العتابي وكان هذا يحتذي حذو بشار^(٢) ثم قام ابو تمام فزاد على مسلم . وكان العصر الذي نشأ فيه شاعرنا (أعني صدر الدولة العباسية) عصر انتقال في الادب من الطريقة البدوية القديمة التي عرف بها صدر الاسلام إلى الطريقة الحضرية المولدة طريقة التبسط والتأنق . والظاهر ان ابا تمام كان من الشعراء الذين تأثروا بهذه الطريقة فاخطت لنفسه مسلكاً خاصاً وصار على ما يرى بعضهم امام هذه الصناعة . وفي شعره من الشواهد على ذلك ما لا يحتمل المقام الاسهاب به فنكتفي هنا بالقليل منها — قال من قصيدة

تلومين ان لم اطو منشور همة	طوت عن لساني مدح كل مزبد ^(٣)
لبزتك اثواب البصائر عزّة	كستك ثياب الزجر من كل مرشد
كانك لا تدرين طعم معيشة	تمجّ دماً من طعم ذل التعبد
فصوني قناع الصبر ابي لراحل	الى بحر جود غامر الفضل مزبد
امات حياة الوعد منه نوافل	من الجود اضحت للعفاة بمرصد

وقال مادحاً احمد ابن ابي دؤاد

مازلت ارقب تحت افياء المنى	يوماً بوجه مثل وجهك ابيضاً
لولاك عزّ لقاءه ^(٤) فيما بقي	اضعاف ما قد عزّني فيما مضى
قد كان صوّح نبت كل قرارة	حتى تروّح في ثراك وروضا
اوردتني العبد الخسيف وقد أرى	اتبرض التمد البكي تبرّضاً ^(٥)
اما القريض فقد جذبت بضبعه	جذب الرشاء مصرحاً ومعرّضاً
احببته اذ كان فيك محبباً	وازددت حباً حين صار مبغضاً
قد كانت الحال اشتكت فاسوتها	اسوأ ابى امراره ان ينقضا
ما عذرها ألاّ تقيق ولم تزل	لمريضها بالمكرّمات ممرّضاً

وله متغزلاً:

(١) مذهب الاغاني ٨ — ٢٠ (٢) البيان والتبيين ١ — ٢٤

(٣) المزبد اللثيم (٤) الضمير يرجع الى الخليفة (٥) العبد الخسيف اى النبع الوافر الماء . اتبرض

التمد البكي اى اطلب الماء القليل هنا وهناك

لا انت انت ولا الديار ديار خف الهوى وتولت الاوطار
كانت مجاورة الطلول واهلها زمناً عذاب الورد فهي بحار
ايام تدعي عينه تلك الدمى فيها وتقرر لبته الاقار
اذ لا صدوف ولا كنود اسمها كالمعنيين ولا نوار نوار^(١)
بيض فهن اذا رمقن سوافراً صور . وهن اذا رمقن صوار
وقال من قصيدة في ابي دلف العجلي

تكاد مغانيه تهش عراسها فتركب من شوق الى كل راكب
اذا ما غدا اغدى كريمة ماله هدياً ولو زفت لالام خاطب
يرى اقبح الاشياء اوبة امل كسته يد المأمول حلة خائب
واجسن من نور تفتحه الصبا بياض العطايا في سواد المطالب
اذا اجت يوماً لجيم وحوها بنوالحصن نجل المحصنات النجائب
فان المنايا والصوارم والقنا اقاربهم في الروع دون الاقارب
جحافل لا يتركن ذا جبرية سليماً ولا يحزن من لم يحارب
يمدون من ايد عواص عواصم تصول باسياف قواض قواضب

وامثال ذلك كثيرة في شعره بل هي مذهبه العام وقد قاده شغفه بذلك الى الاسراف والخروج عن جادة المعقول حتى رماه الكثيرون باسهم النقد الحادة . قال الجرجاني ان ابا تمام اسلم نفسه للتكلف يرى انه ان مر على اسم موضع يحتاج الى ذكره او يتصل بقصة يذكرها في شعره من دون ان يشتق منه تجنيساً او يعمل فيه بديعاً فقد باء باثم واخل بفرض حتم^(٢) . وقال الآمدي في الموازنة بعد ان ذكر آراء المنحرفين عن ابي تمام « كانوا يريدون اسرافه في طلب الطباق والتجنيس والاستعارات واسرافه في التماس هذه الابواب وتوشيح شعره بها حتى صار كثير مما اتى من المعاني لا يعرف ولا يعلم غرضه فيها الا مع الكد والفكر وطول التأمل ومنه ما لا يعرف معناه الا بالظن ولو كان اخذ غفو هذه الاشياء ولم يوغل فيها ولم يجاذب الالفاظ والمعاني مجاذبة ويقتصرها مكارهة، وتناول ما يسمح به خاطره وهو بمجاهمه غير متعب ولا مكدود وأورد من الاستعارات ما قرب في حسن ولم يفحش . واقتصر من القول على ما كان محذواً حذو الشعراء المحسنين ليسلم من هذه الاشياء التي تهجن الشعر وتذهب ماء وروثه — ولعل ذلك ان يكون ثلث شعره او اكثر — لظننته كان يتقدم عند أهل العلم بالشعر اكثر الشعراء المتأخرين^(٣) »



الحضارة الفينيقية

وتأثيرها في التمدن القديم

للشيخ بولس مسعد

صناعاتهم

لقد تفوق الفينيقيون في الصناعة وأدركوا شأواً بعيداً فيها وبرعوا في كثير من فروعها ولا سيما في صناعة البرفير أو الأرجوان المنسوب الى صور فهم اول من صبغوا بلونه واحرزوا شهرة واسعة فيه وقد اكتشفوا مادة صباغة في حيوانات بحرية من ذوات الصدف على شاطئ صور وصيداء ولونه احمر بنفسجي وكانوا يصبغون به الحرير والقطن والصوف الناعم ولا تزال آثار مصانعه حول صور ماثلة للعيان الى اليوم . غير ان اقتناء الملابس التي كانت تُصبغ به كان مقتصرأ على الملوك والامراء في اشور وبابل واران وفارس ومدين فلا يجسر العامة على استعمالها . واستخدموا في الصباغ القوة والحشاء والدودة وكانوا ينسجون الصوف والكتان واشتهروا بتربية دود القز واستخراج خيوط الحرير منه ونسجها وصبغها وقد جاءوا بيزره من بلاد فارس وكان لمنسوجاتهم الحريرية رواج لا يبارى على رغم مصادرة قياصرة الرومان لها وحصرها في فئة قليلة من التجار الفينيقيين خوفاً على النسيج الروماني من الكساد

وهم اول من اصطنع الزجاج ولا سيما الشفاف منه وأنشأوا معامل مهمة لصنعه ولا سيما في صيداء وصرفند وكانوا يستعملون في صنعه رملأ من نهر بالوس « نهر النعان » . وفي متاحف اوربا كثير من مصنوعاتهم الزجاجية علاوة على ما وجد حديثاً من هذه المصنوعات في مدافن جبيل الملكية وفي المدافن التي عثر عليها بين صور وصيداء . ولهذه المصنوعات قيمة كبيرة عند علماء الآثار ليست لسواها من مصنوعات الرومان وغيرهم

وبرعوا في صنع الانية الخزفية فكانت من اخص اصناف تجارتهم وكانت معاملها في سواحل فينيقية من ارواد الى صور وهم اول من نقل هذه الصناعة الى بلاد اليونان . وتفوقوا في صناعة الحفر والنقش وصب الذهب والفضة وفي كثير من المصنوعات المعدنية وامتازوا بالمصنوعات النحاسية فكانت متناهية في الزخرف ودقة الصنعة . وهم اول من صنع الاسلحة والكؤوس من نحاس بعد ان كانت تصنع من الحجر وقد وجدوا منها في قبرس وتوسكانا وفي متحف اللوفر والفايتكان شيء كثير منها ، ووجدوا في طرطوس وعمريت قطعاً من



أبريق فضي عثر عليه في جبيل سنة ١٩٢٤



طوق من الذهب وجد في جبيل سنة ١٩٢٤
مقتطف إبريل ١٩٣٢
امام صفحة ٤٣٣

الخلي مرصعة بالجواهر اجمع علماء الآثار على انها من صنعهم . وربما كانت المجوهرات التي عثروا عليها حديثاً في جبيل انفس ما خلف الفينيقيون من التحف الاثرية والمصنوعات النفيسة الدالة على الشأو البعيد الذي بلغوا اليه في الصنائع والفنون

وقد برعوا في صنع العاج وكانوا يجلبونه من الهند وافريقية الشمالية ووجد المنقبون من مصنوعاتهم العاجية شيئاً كثيراً في اطلال قصور الاشوريين . وبرعوا في زرع الكرم وفي استخراج الخمر وكان للخمر الفينيقي اللبناني شهرة كبيرة ولا سيما في رومية وفي بلاد اليونان . وامتازوا في تقديد الاسماك وفي صنع آلات الحراثة وهندسة البناء واعمال التحصين ومزيتهم في ذلك ضخامة الحجارة وحسن تنضيدها . وهم اول من عنى بتبليط الشوارع كما يستدل من تاريخ صور وقرطجنة . واخترعوا السفن وحرزوا في صناعتها نصيباً وثيراً من المجد والشهرة وهم اسبق الامم الى ركوب البحر فقد سخره لارادتهم بما بنوا من السفن وطافوا حول القارة الافريقية بامر فرعون نحو واستغرقت رحلتهم هذه ثلاث سنين وكان لهم سفن معدة لاختطاف العبيد والاماء وحملهم الى البلدان القاصية والاتجار بهم ولعلمهم اول من تعاظم الاتجار بالنخاسة بين الامم القديمة

وقد دفعهم حب الكسب والاتجار الى حمل مصنوعاتهم ومتاجرهم الى اطراف المعمور ولئن كانت المصنوعات التي نقلوها الى الغرب مجردة من الزخرف خالية من التفنن والخيال ولم تظهر براعتهم فيها الا من الوجهة الوضعية العملية الا انها كانت متينة تتفق مع حاجة العصر الذي اخترعوها فيه

على ان ما احرزته فينيقية من الثروة الطائلة بتجاريتها وصناعاتها كان سبباً في سقوطها وضعفها لانه افضى باهلها الى البذخ والاسراف وافسد آدابهم فانحط شأنهم وتطرق اليهم الانحلال وهاج غناهم من جهة اخرى مطامع الفاتحين من ملوك اشور وبابل وبلاد فارس فاكسحوا بلادهم واخضعوها لسلطانهم ردحاً طويلاً من الدهر

حضارة فينيقية

ان حضارة الفينيقيين ترتقي الى عصور عريقة في القدم . فقد اتفق رأي العلماء على انه قبل ان يتألف الشعب السوري الفينيقي كانت الكتابة والصنائع معروفة في بلاد كنعان اي في زمن يرجع الى ما قبل عصر يشوع بوقت غير قصير . وكان لهم اسفار نفيسة تتناول شرائعهم وقواعد دينهم وقانون احكامهم وكانت هذه الاسفار مقدسة عندهم كما لو كانت منزلة لانهم كانوا يعدونها بمثابة وصايا الهية انزلها عليهم الاله « تاوت » او « طوت » . وكان لهم سجلات يدونون فيها تاريخ المملكة وحوادثها وكتب عملية في الزراعة والصنائع والحرف . واشهر

مؤلفيهم سنكياتون البيروتي وقد عاش في العصر الذي عقب فتح الاسكندر وهو يقارب عصر موسى . وكان هذا المؤلف اول من دون القصص الوثنية وما كتبه العلماء في حضارة الفينيقيين وتمدنيهم القديم نقلاً عن فيلون الجبيلي واوساب وبرفير والدمشقي وفلاف يوسف انما هو مأخوذ عن الفقرات التي عثر عليها اولئك المؤلفون من تاريخ فينيقية الذي انشأه سنكياتون نفسه . ولهذا العالم كتاب مشهور ترجمه فيلون الجبيلي من الفينيقية الى اليونانية وقد وضعه في اصل العالم القديم ومنشأ الآلهة وجعله مقدمة لايبعل ملك بيروت او ملك الصيدونيين . وله كتاب آخر في تاريخ فينيقية وحضارتها وآداب لغتها فقد معظمه

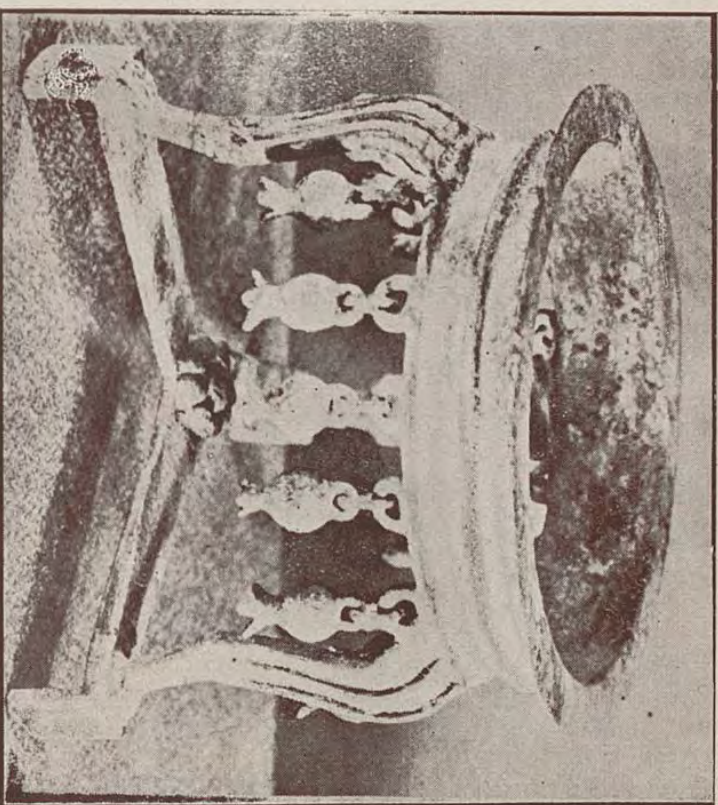
واذا لم يكن الفينيقيون في اعتبار بعض العلماء مستنبطي الكتابة السامية التي هي مبدأ واصل حروف الهجاء لسائر اللغات فانهم بلا ريب اول من نشر هذه الكتابة في انحاء العالم . واليه يعمد في نقل الصنائع والفنون والديانة البابلية والعلوم الرياضية وعلم الموازين والمقاييس وغيرها من العلوم التي نشأت في كلدنيا الى الشعوب الاخرى فهم اذن رسل المدنية القديمة لانهم كانوا في طليعة الشعوب الشرقية الحية التي كان لها شأنها في انشاء الرقي العقلي وتكوين الثورة الفكرية الاولى عند الغربيين . اما في الشرق فانهم يأتون في المرتبة الثانية بعد الكلدان والمصريين في التمدن القديم ويلهم الحثيون في سوريا وفي آسيا الصغرى ثم الفرس والصينيون والهنود وغيرهم . ومن العلماء من يضع الفينيقيين في الحضارة القديمة في المرتبة الاولى لان الامم الشرقية التي سبقتهم في المدنية اكتنزت علومها وصنائعها وجعلتها اسراراً لها فلم تستطع الشعوب المجاورة لها ان تتلقها منها وتنتفع بها . واما فينيقية فان ابناءها كانوا رسل الحضارة البابلية او الكلدانية ودعاتها وقد نشروا العلوم والصنائع التي تلقوها من كلدنيا في العالم اجمع فتناولتها الشعوب القديمة واستفادت بها فكانت اساساً لحضارة الشعوب التي جاءت بعدها . وقاما خلا بلد في العالم القديم من آثار تمدنيهم . وحسب الفينيقيين ان تكون الملاحه وفن الكتابة من اخص مميزاتهم ليشغلوا المكانة الاولى بين الامم التي اسست الحضارة الشرقية ونشرت الوية العرفان في العالم اجمع

شكل ملوكهم

كان الحكم في فينيقية ديمقراطياً محضاً . فمع ان ملوكها كانوا يدعون انهم من سلالة الآلهة على مثال ملوك مصر وسواها من الممالك الشرقية فان السيادة الفعلية كانت للشعب في الشؤون العامة والمسائل الهامة . وكان للمملكة مجلس شيوخ مؤلف من مئة نائب يمثلون طبقة الاشراف . ولهذا المجلس رأي قاطع في كثير من الامور المهمة . وكان لكل بلد ملك مستقل يسود قومه ويحكمهم بمقتضى الشرائع الوطنية . وكان الملك عندهم وراثياً . غير ان العرش لم يكن مستطاعاً



لوحة وجد في رأس الشمر ا مكتوب بلغة فينيقية عليها مسحة ارامية
ويظن انه قطعة من ماحمة نظمها الشاعر الفيني ساكونيون
امام صفحة ٤٣٥



مائدة مثانة الدعائم مصنوعة من البرونز وجدت في رأس الشمر

الا لمن توافرت فيه شرائط الحكم وأجمعت الرعية على موالاته . واذا لم يكن من وارث فللامنة ان تنتخب ملكها بمقتضى نظام محكم لاسبيل الى الخروج عنه فكان نظام الحكم عندهم ملكياً مقيداً بمجالس عامة مؤلفة من الاشراف ومرتبطة بمشورة الكهنة والقضاة . وكانت نظمات جبيل دستوراً لحكومات فينيقية جميعاً تنسج على منواله وتجري في الشؤون التي تعرض لها على احكامه . وهذا اجل واتم ما عرفناه عن النظمه الحكم عند الاقدمين لما فيه من مراعاة الاهلية والكفاءة في تولية المناصب الرفيعة في الدولة واعتماد رأي الامة في وضع القوانين والشرائع والرجوع اليها في كل ما يتعلق بها من الامور الخطيرة بحيث تكون سيدة نفسها ويكون السائد فيها خادماً حقيقياً لمصلحتها مقيداً بمشيئتها ومنفذاً لارادتها

على ان تعدد الملوك في فينيقية وانقسام ممالك الفينيقيين في مقدمة البواعث على قعودهم عن التوسع في الملك وعجزهم عن رد الغزاة عن بلادهم . ولولا تدقيقهم في اختيار ملوكهم ومواصله الفتوح التجاري السلمي الذي اشتهروا به واستمسكهم بالجد والثبات ومحافظتهم على الصفات التي امتازوا بها اجمالاً لانهط شأنهم عاجلاً وما قامت لهم قائمة بعد انحطاط صيدون وانتقال السيادة منها الى صور في القرن الثالث عشر قبل الميلاد

بعد انقضاء عهد الفتن التي افضت الى سقوط صيدون قبضت صور على ازمة الحكم في فينيقية ولما شعث الفينيقيين واعترف ملوك البلاد لصاحبها بالسيادة وصار يلقب بملك الصيدونيين واستعادت فينيقية على يدها مكائنها الاولى وأنشأت كثيراً من المستعمرات خارج سورية . وقد استمر عصر سيادة صور خمسة قرون اي الى ان حاصرها سرغون ملك اشور . وفي هذا العصر استحكمت حلقات الالفه بين الكنعانيين فاتحد اهل صور وعكاء ومن بقي من اهل صيدون وكذلك العريقون والصاربيون والارواديون وتألف منهم شعب واحد وعصبة واحدة تحت اسم فينيقيين . واما بيروت وجبيل وسيميرا وغيرها فاحتفظت كل منها باستقلالها الداخلي . وكانت هذه الحكومات ترسل كل سنة وفداً دينياً الى صور ليشهد الجهاد الذي كان يقام فيها تكريماً للاله ملكوث في هيكله المشهور . ولما صارت السيادة السياسية الى هذه المدينة اتخذ الوفد الديني صفة سياسية واصبح في منزلة المستشار لدى ملك صور في المسائل العمومية المتعلقة بممالك البلاد عموماً كالتجارة والمهاجرة والنظر في ما يحسن عقده او رفضه من المحالفات ونحو ذلك . على ان مملكة ارواد ابت الاعتراف بسيادة صور وتنحت عن الممالك الاخرى فلم تشأ الاشتراك معها الا في تبادل الآراء في الامور العمومية والتأزر لدرء المخاطر الداهية ورد غزوات الفاتحين وجعل موقع طرابلس لاجتماع المجلس مراعاة لارواد وحملها على تعضيد بقية الممالك وكان اجتماع هؤلاء المندوبين هناك مدعاة لتسمية هذه المدينة « تريبوليس » اي المدن الثلاث اشارة الى المدن الفينيقية الكبرى وهي صور وصيدا واوراد

فإنها كانت تؤلف ولايات متحدة قاعدة مجلسها طرابلس . وكان تأليف هذا المجلس في ولاية
الفرس . وقد بلغت هذه المدن في ذلك العهد اوج مجدها وابتعد مراحل رقيها وعمرانها .
وكان الفينيقيون وقتئذٍ ينشئون ملوك الفرس الاساطيل الضخمة الا أنهم كانوا مع ما بلغوا
اليه من الرقي في ولايتهم ينزعون الى الاستقلال
اما جيش الفينيقين فكان مأجوراً لان الشعب كان منصرفاً الى الاعمال التجارية يأنف
العيشة العسكرية . وكان معظمه من الاروايين ومن العنصر الليبي الفينيقي ومن اهل ليديا
في آسيا الصغرى . وكانت الارض ملكاً للملك ينعم بقطع منها على من شاء من مريديه واشياعه .
ولم يكن الفلاح الا قسماً عليها يحرقها ويؤدي خمس الربيع الى مولاه . ولم تكن ارض فينيقية
واسعة فكان الملوك يعتمدون في تغذية خزائنهم على ما كانوا يفرضون من الضرائب والرسوم
على التجارة ولا سيما بعد ان ضربت المكوس الفادحة على واردات بلاد بني اسرائيل

الآثار الفينيقية

لقد تعاقب على فينيقية كثير من الدول الفاتحة حتى انه لا تكاد تخلو بقعة فيها من آثار
لعدة دول منها ولا ادل على ذلك من الكتابات والرسوم المنقوشة في الصخور القائمة على ضفتي
نهر الكلب بقرب بيروت تذكاراً لمرور الفاتحين عليه نظير رعمسيس الثاني « سينوستريس »
وسنحاريب وسامنصر والامبراطور انطونيوس الروماني وسواهم
اما الفينيقيون انفسهم فقد خلفوا كثيراً من الآثار بين كتابات ومسكوكات ومصنوعات
معدنية وخزفية وحجرية وبقايا ابنية عظيمة . غير ان ما وجد من آثارهم في فينيقية ذاتها اقل
بكثير مما وجد في مستعمراتها وذلك لانصراف القوم في وطنهم الى التجارة والصناعة . ويغلب
على الظن انهم اقاموا كثيراً من المباني الفخمة فعبثت الايدي فيها . ولا غرو فالامم الفاتحة
التي تداولت البلاد السورية ولاسيا الصليبيون لم تجد خيراً من هذه الابنية الفينيقية لاقامة
ابنتها بانقاضها فضاقت بذلك آثار الفينيقين واندثر كثير من اخبارهم ومعالم حضارتهم وهذا
ما يشاهد في معظم الابنية القديمة في طرابلس وجبيل وبيروت وصيداء وصور وعكا وخصوصاً
في الحصون والاسوار والكنائس القديمة . ولم يبق من آثار الفينيقين الظاهرة الا ابنية
عمرتنا الواقعة في جنوب جزيرة ارواد وفي جملتها مسكن مؤلف من عدة غرف منقورة في
صخر واحد . ومن هذه الآثار ابنية ام العواميد جنوب صور وبقايا اسوار ارواد وما بقي من
اسس هيكل سليمان واسواره في القدس والطبقة السفلى من قلعة بعلبك الشهيرة ودير ماري
مارون بقرب منبع العاصي
وأما آثار لبنان وهو من صميم فينيقية فعلى ثلاثة انواع : آثار فينيقية محضة نظير آثار



(١ و ٢) تمثال من البرونز وعلى رأسه تاج مزدوج وجد في رأس الشمرأ قرب
اللاذقية في شمال سورية وفيه أثر من الفن المصري . (٣ و ٤) باشق مصفح
بالذهب مصنوع على الأسلوب المصري

عمرينا وآثار جامعة بين الهندسة اليونانية والهندسة الرومانية وقد وجد امثلة منها في جبيل وآثار يونانية رومانية بحت نظير اخربة المسرح الذي عثر عليه في البترون وقد وجد امثلة منها في بيروت. على ان الحفريات التي جرت في جبيل في السنوات الاخيرة كشفت الحجاب عن مدافن وهياكل وابنية تعد في اعتبار علماء الآثار في جملة الآثار الفينيقية

ومن مميزات الفينيقيين في هندسة البناء انهم كانوا يسقفون ابنتهم بحجارة طويلة فلا يعقدونها عقداً كما كان يفعل الرومان. ولم يستعملوا الاعمدة في وسط الابنية الا نادراً على خلاف المصريين والفرس واليونان. وتمتاز مبانيهم بضخامة الحجارة ومثانة البناء والآثار الفينيقية المكتوبة كثيرة ولكنها مقتصرة على كتابات منقوشة على الاضرحة والتماثيل وهي تشير اما الى ملك فينيقي اوسواه او الى اله من الآلهة. وقد وجدوا صحيفة ليهو قيل جبيل الذي عاش في عصر تلا عهد قورش الفارسي وتقدم عهد الاسكندر. وعثروا على مدفن في صيداء استدلوا من كتابة نقش عليه انه مدفن تبنيت وابنه اشمون عازر ملكي هذه المدينة ووجدوا فيه قطعة من النحاس نقش عليها اسم حيرام ملك صور وقد نقلت الى متحف اللوفر في باريس. ووجد اثر لعبدليم ابن ماثان ملك هذه المدينة ورد فيه ذكر تقدمته لبعل شماميم وهو عصر متأخر عن عصر الاسكندر. ووجدوا في قبرس كثيراً من الآثار الفينيقية المكتوبة ولكنها لا ترتقي الى ما قبل القرن الرابع قبل الميلاد منها ٣٣ أثراً وجدوها في لارنكا وثلاثة اخرى في جوارها ومعظمها يتعلق بتقادم للآلهة وحساب نفقات بعض الهياكل. ووجدوا في مصر آثاراً فينيقية مكتوبة وكذلك في اثينا وفي جزيرة والوس ومالطة وصقلية وبالرمو وسردينيا وقرطاجنة وفي اماكن اخرى في افريقيا واوروبا. وفي سنة ١٨٤٥ وجدوا في مرسيليا أثراً فينيقياً نفيساً يرتقي الى القرن الخامس قبل المسيح وينطوي على حساب نفقات هيكل بعل صافون في قرطاجنة وفيه ذكر المحرقات والذبايح التي كان يقدمها الفينيقيون وما يجوز استبدالها به

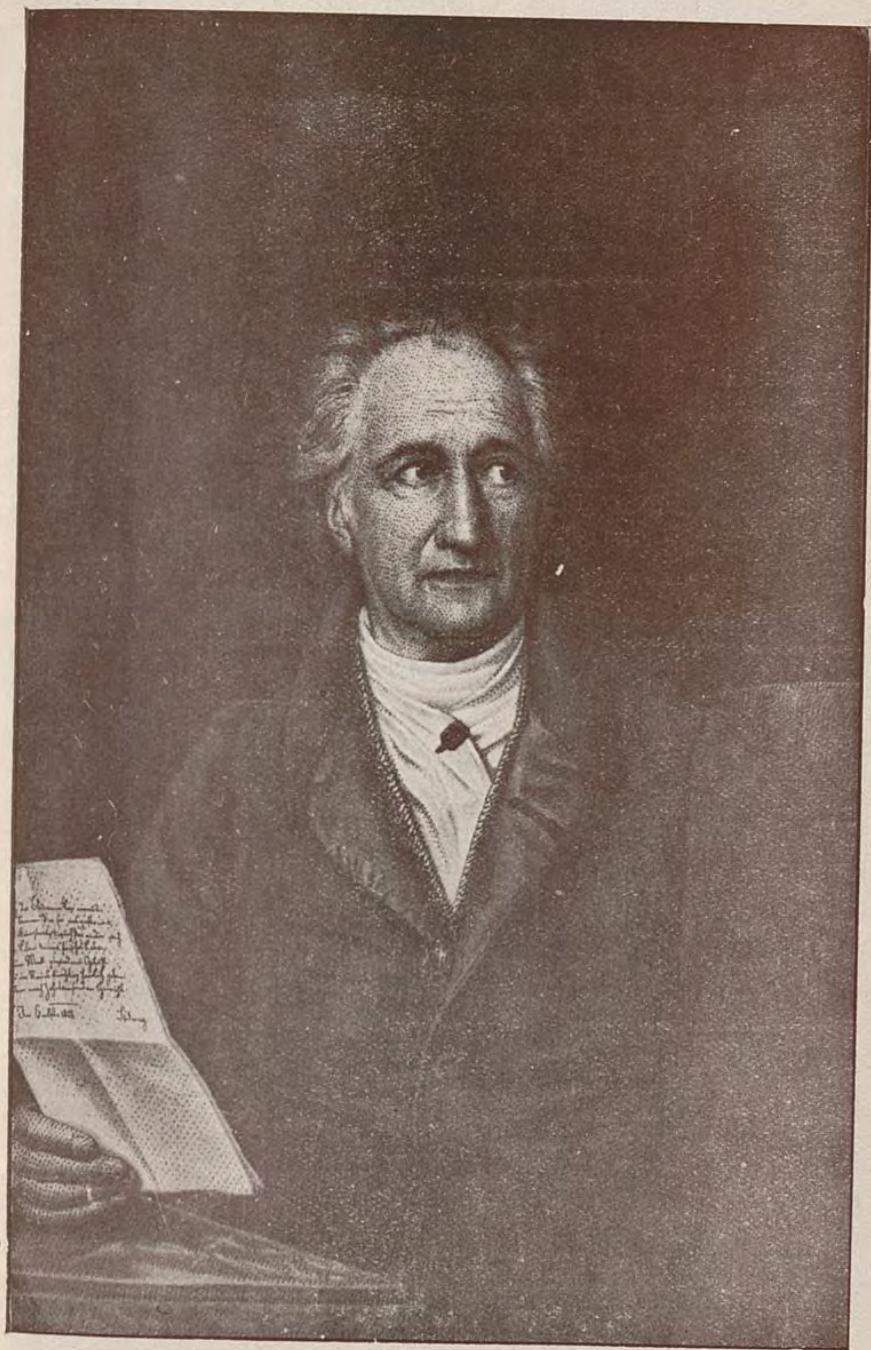
أما مدافنهم فقد وجدوا منها شيئاً كثيراً في جبيل وبيروت وصيداء وصور وعمرية وعدلون وأكثرها مؤلف من عدة اضرحة منقورة في الصخر الاصم على مثال المدافن المصرية تنفتح في جوانبها الحاد وتوضع فيها الجثث محنطة في نعش. وكثيراً ما ينحدر الى هذه المدافن بسلم او بئر وهي اقدمها عهداً وفي اسفلها عرصة تنفتح في جوانبها الحاد الموتى. وكان لكل اسرة عندهم موطن خاص وللعظماء نواويس خاصة بهم تدفن معهم فيها انفس كنوزهم وحلالم. الا ان اكثر هذه المدافن خال من الكتابات، وكانوا يضعون في مدافن موتاهم قارورات صغيرة من زجاج او خزف وأصناماً من خزف ويترجون الجثة بلفائف ويسترون الوجه بغشاء رقيق من الذهب والموسرون يلفون الجثة كلها بمثل هذا الغشاء وهي

مادة درج عليها المصريون ايضاً . وقد استنتج بعض العلماء مما شهدوا في مدافن الفينيقيين انهم كانوا يعتقدون بخلود النفس وبالبعث فيعتبرون الموت رقاداً لا موتاً . وقد رأينا بنفسنا نماذج من مدافنهم وأضرحتهم في جبيل بعد ان رفع المنقبون الحجاب عنها في السنوات الاخيرة وقد ضاعت انساب الفينيقيين على توالي الاحقاب لأنهم اندمجوا في الشعوب التي جاءت بلادهم فاتحة او لاجئة اندماجاً ضاع معه الدم الفينيقي القديم من قرون عديدة ولو ان اللبنانيين اليوم يعدّون خلفاءهم الحقيقيين لاعتبارات ليس هذا مقام التبسط فيها

تاريخ فينيقية

لم يبق من تاريخ فينيقية القديم سوى ما ورد على السنة بعض المؤرخين من الاقوال والروايات المسندة الى القصص والحكايات الخرافية وهو ما لا يركن اليه ولا يصح الاخذ به كحجة تاريخية يرجع اليها فيه . وكل ما يستجلى من هذه الروايات ان فينيقية كانت من زمن عريق في القدم مطمحاً لابصار الفاتحين . ولئن سلمت في بدء امرها من غزواتهم فلها لم تستطع الثبات على مقاومتهم دهرًا طويلاً ولا سيما انها كانت ممالك صغيرة مستقلة احداها عن الاخرى لا قوة لها في ذاتها فاجتاحها غير فاتح منهم وتناوبت دولهم السيادة العليا عليها كدولة الاشوريين والبابليين وملوك فارس ومادي ومصر واليونان والرومان والعرب والصليبيون والترك وسواهم . وكان الفينيقيون في خلال ذلك يجاهدون في سبيل الاستقلال ويستमितون في الدفاع عن دمارهم حتى ان ملوك بابل وأشور وفارس قاسوا الاهوال قبل ان يتمكنوا من ضم فينيقية الى ممالكهم وأفضى ذلك الى نشوب قن وثورات صرفت الفينيقيين عن متاجرهم حقبة من الدهر

وبعد ان دانت فينيقية لالاسكندر ظلت المدن الفينيقية على شيء من عمرانها ولكن بعد ان نشأت مدينة الاسكندرية اتخذت تجارة العالم وجهة جديدة فضعت التجارة الفينيقية وانحط معها شأن الفينيقيين . وقد ازهرت في ولاية السلوقيين خلفاء الاسكندر وهكذا كان شأنها في عهد الرومان . وتنازعها العرب المسلمون والصليبيون ردحاً طويلاً من الزمن . وغزاها تيمور لنك التتري في بدء القرن الخامس عشر فازدادت ضعفاً وانحطاطاً . ثم دخلت في حيازة الدولة العثمانية في اوائل القرن السادس عشر (١٥١٦) وما لبثت ان استقرت امورها في بدء ولاية العثمانيين حتى عادت فسادت احوالها ورجعت القهقري . وفي الربع الثاني من القرن التاسع عشر (١٨٣٢) دخلت في حكم محمد علي باشا والي مصر وذاقت طعم العدالة بعد ان كانت فقدته دهرًا طويلاً . ثم استرجعتها الدولة العثمانية (١٨٤٠) وظلت في حيازتها الى سنة ١٩١٨ حيث استقلت في شؤونها الداخلية بعد ان خضعت لحكم الانتداب على اثر الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨)



جوتہ فی کھولتہ

امام صفحہ ۴۳۹

مقتطف اپریل ۱۹۳۲

مائة سنة على جوته

لما توفي جوته في ٢٢ مارس سنة ١٨٣٢ التفت كارليل الى مجموعة مؤلفاته وهي نحو مائة وخمسين مجلداً وقال «لم يكن الوقت بعد لوزن هذه المجلدات واصدار حكم فيها . قد يصبح هذا مستطاعاً بعد مائة سنة !

ولكي يفهم القارئ مؤلفات جوته وفلسفته وأصول فنه لا بد له من الالمام بعصره الخافل بالحوادث الجسام . فقد كان جوته معاصراً لحرب استقلال اميركا ، وللثورة الفرنسية ، ولنبوليون جمهورياً وامبراطوراً ، ولعودة البوربون وسقوطهم ، وللفتن وحوادث الشعب التي وقعت في انكلترا قبل الاصلاح العظيم (١٨٣٢) . لما ولد سنة ١٧٤٩ كان الدكتور صموئيل جنسن قد شرع يجمع معجمته الانكليزية العظيمة ، وكان غراي الشاعر الانكليزي على وشك نشر مرثاته المشهورة في الادب الانكليزي . ولما مات سنة ١٨٢٢ كان نجم فكتور هوغو قد بلغ السمت بعيد اخراج روايته هرناني — وبين الولادة والموت مرت سيرة بيتهوفن وموزار وكيكس وشلي ويرون وغيرهم

مدارس في الادب سادت في اثناء حياته ودالت ، ودول في السياسة اشرق نجمها وأفل . وجوته من حداثته الى يوم مماته لم ينزو عن الحياة في مكتب ، ولم يصدف عن شؤونها في ذهول الشاعر وشروذ الفيلسوف ، بل كان يرقبها مستوعباً مجاريها ، وكثيراً ما اشترك في توجيه مقدراتها . ولعله اذا استثنينا ، ليونارد ده فنشي ، اشمل العبقرين لنواحي الحياة . «ان شكسبير اعظم منه شاعراً ، ولكن جوته يجمع في شخصه نصف شكسبير وكل فرنسيس با كون وغيرها من مختلف الرجال والكتتاب » . كان متفوقاً كشاعر غنائي متفوقاً كشاعر درامي ، اميراً من امراء النثر ، عالماً — اكتشف عظمة ما بين الفكين واشتغل بالجيولوجيا فاشتهر فيها ، وكتب في تطور النباتات ، واخرج نظرية لتعليل الضوء واللون — وكان سياسياً موقفاً تقلد في بلاط فيمار وزارة الحربية والمعادن والمالية والفنون في آن واحد . وقد قيل انه لما رأى الفتور العام الذي بدا في استقبال احد مجلداته في التاريخ الطبيعي قال : لا انخر بما فعلته كشاعر . ما اكثر الشعراء الكبار في عصري وفي العصور السابقة . اما ان اكون الوحيد في عصري الذي يعرف الحقيقة في علم عويص فلست قليل الفخر به . وقد افاض العالم هيكلاً في حساباته من رؤاد مذهب التطور . ثم انه كان يشرف بنفسه على مسرح فيمار واخراج روايات شرفيه

هذا الشمول في حياة الرجل وفكره يجعله موضوع عناية كبيرة عند أبناء هذا العصر . ثم اذا كان قادراً ان يعمل كل شيء فانه كان قادراً ان يجعل عاطفته ميداناً لكل الانفعالات . ان حوادث غرامه التي كان يندفع فيها بحماسة الفتى الناشئ جانب مضي من الآداب الالمانية ، لان الفتيات اللائي كن موضوع حبه كن كذلك امثلة يخلق منهن بنات خياله . ومع ذلك كان مترناً رزيناً مالمكاً لعنان نفسه سواء كان مع اسكافي او في مجلس نبوليون . قيل ان نبوليون مر في ارفرت بعد انخذه في معركة يائنا فطلب ان يرى جوته ، فلما وقف هذا امامه في هيبة ووقار صاح نبوليون « انت رجل » ولما عاد نبوليون فاراً من روسيا بعد ما تبدد شمل جيشه فيها لم ينس ان يبعث بتحيةته الى جوته اذ مر في فيمار

فجوته يحسب بحق آخر العقول العالمية التي استطاعت ان تتخذ كل افعال البشر وفروع معرفتهم ميداناً لها فتبرز فيه . لأن حياته وموته كانا على عتبة عصر اتسع فيه نطاق المعرفة اتساعاً جعل الاحاطة بفروعها امرأ متعذراً على ذهن انساني

اما « فوست » روايته الخالدة فرواية شعرية تمثيلية اشخاصها ليسوا من البشر ، بل من عالم خيالي . بطاها « فوست » عالم مفكر شديد التعطش الى ادراك ما لا يدرك يحاول بالعلم ان يطلع على اسرار الوجود فيرتد خائباً شديد التشاؤم ويشدد به ذلك حتى يصبح فريسة الشك والجنود ويرمز الى هذه الروح بالشیطان مفستوفيلس . وكاد فوست ينتحر فظهرت له الروح وقالت مالك واللعلم والفلسفة . كل هذا باطل لاخير فيه ، تعال اتبعني فأخوض بك غمرات الحياة تبلو حلوها ومرها فيقبل فيتخبط في عالم الشهوات اولاً ثم يخوض معترك السياسة للقيام بخدمة عامة ثم ينقلب داعية للفن اليوناني ولكن مفستوفيلس لا يزال قرينه يدفعه الى التحول والتنقل حتى يبلغ المائة فلا يرى امامه الا القبر فيقف على حافته ولسان حاله يقول « لا يستحق الحياة والحرية الا من يسعى ابداً في الحصول عليهما » وقد كانت حياة جوته ابلغ مثل على هذا القول حتى لقد قالت الانسكلوبيديا البريطانية « ان آيته الخالدة هي حياته »

هذا هو الرجل الذي تحتفل المانيا بانقضاء مائة عام على وفاته . وقد رأينا من حق القراء علينا ان نوفي هذا الرجل حقاً من البحث فطلبنا الى الدكتور محمد عوض محمد استاذ الجغرافية في كلية الآداب و مترجم « فوست » بالعربية ان يجعل جوته موضوع مقال يتحف به المقتطف ففعل . وكذلك اتحفنا الدكتور علي مظهر احد خريجي جامعات المانيا برسالة مسهبه سوف ننشرها في ثلاث اعداد متتالية

جوته

GOETHE.

نشأته وحياته ١٧٤٩ - ١٧٧٥

ولد يوهان فولفجانج جوته في اليوم الثامن والعشرين من شهر اغسطس سنة ١٧٤٩ بمدينة فرنكفورت الواقعة على نهر الماين . وكان ابوه (يوهان كاسپار) رجلاً موسراً انعم عليه بلقب مستشار قيصري وتوفي في سنة ١٧٨٢ فورث جوته عنه قلمته وحباً للنظام وميله الى السكينة والجد وذلك عماد الفن واساسه . وكانت امه (كاترينا اليزابت) ابنة شيخ بلد تكستور وقد توفيت سنة ١٨٠٨ فورث عنها ولدها ما كان له من خيال رائع واستعداد كبير للقصص . اما مدينة فرنكفورت التي ولد فيها فمعروفة بتجارها المنتشرة ومواسمها التجارية السنوية يقصدها الناس من جهات بعيدة للعرض والطلب فتكثر بها الحركة والاخذ والعطاء . وقد اشتهرت بما بها من تماثيل وآثار تاريخية . ولا بد ان يكون كل ذلك مما ساعد جوته في حياته سنة على الاستفادة العلمية والدرس خلال مشاهدته لما يجري حوله فبعث في نفسه ما كمن فيها من نبوغ في قرض الشعر . وكان مما رأى وشاهد مادة لا تنفد اعتمد عليها في مستقبل حياته . وحدث حينئذ حادث هام كان له كبير الاثر في جوته وذلك ما كان من حرب السبع سنوات المعروفة التي ادت الى احتلال الفرنسيين لمدينة فرنكفورت في اثنائها فاقام احد ضباط فرنسا (الكونت تورانك) في جانب من منزل جوته . وقد اتى الشاعر على ذكر ذلك الضابط في مؤلفه القيم الكبير (الشعر والحقيقة) وكان الكونت مولعاً بالفنون فاخذ يتخير صوراً عديدة من مهرة المصورين ويصدرها الى بلده فسنحت القرص للفتى جوته ان يكون على مقربة من الفن ومن اولئك الفنانين وان يعلم عن التصوير ما قد علم

ولما جاء الفرنسيون الى تلك المدينة (فرنكفورت) اقيمت فيها دار تمثيل فرنسي كان يمثل فيها خير ما كتب مشاهير كتاب المآسي الفرنسيين . ورأى جوته ذلك فعلق بفن التمثيل ومال اليه وعرف تلك المؤلفات الخالدة كما ألم بقواعد كتابة الروايات التمثيلية عند الفرنسيين . واسترعى نظاره ما كان اثناء الحرب فآلم بالاحوال السياسية بالمانيا . وقد سرّ والشرح صدره لانتصار ملك البروس اذ كان ابوه من شيعة فريدريك الكبير وكان ممن يميلون اليه . ولما كانت سنة ١٧٦٤ انتخب يوسف الثاني ليضع تاج الملك فوق رأسه فالتسعت مدارك الغلام وانفسحت دائرتها عما قبل . وكان ابوه هو الذي يتولى تعليمه بنفسه وغرضه ان يبعث في نفسه حب

الاعتماد على النفس والاستقلال في البحث والعمل . ولم يكن يرى ان يحشور رأسه حشواً لا يسيغه فهمه وادراكه . وحاول جوته ان يكتب قصته في خطابات وقد فعل وكتبها في سبع لغات هي اللاتينية والاغريقية والفرنسية والانجليزية والايطالية والالمانية وبلهجة يهود فركفورت فكان ذلك بمثابة تمرين له على اساليب تلك اللغات واصطلاحاتها . وقد ادت معرفته للهجة يهود المانيا الى دراسة العبرية وجد في الاشتغال بالتوراة والانجيل وعني بقراءة ما كتبه شعراء الالمان ولا سيما مؤلفات الشاعر كلوبشتوك . وكان لقصة المسيح الذي نظمها هذا الشاعر المذكور اثر كبير في نفس الغلام . وقد نظم جوته وهو في حداثته بعض الاغاني الدينية نذكر له اقدم ما يعرف له من مؤلفاته كلها المسماة (سياحة المسيح بجهم) . ولما درس العبرية وآدابها نظم قصيدة اعتمد في مادتها على التوراة وهي قصة يوسف واخوته

ولما كان ابوا جوته في يسر وغناء فقد كانت العناية بولدها كبيرة فنشأ مرعي الجانب ملحوظاً بعين رعايتهما . وفي سنة ١٧٦٥ انتظم في سلك جامعة ليبترج ليدرس القوانين ولكنه سرعان ما ملّ دراسة الحقوق ونبا عن محاضرات التشريع التي لم يمل اليها ابداً . على ان المحاضرات الفلسفية كان لها حظ كبير من نفسه . ولم تستطع دروس جرت في الاخلاق ان تجذب نظاره اليها لكي يداوم على سماعها . ولكنه رأى في مجالس ليبترج وفي اوساطها من عادات طيبة ورقة اهل الحضر بها وانس في اهلها الذين تعرف اليهم من اللطف ما حجب اليه تلك الليثات . وعدا ذلك شرع يدرس الفنون بهمة وعزم وجلد وقد ذكرنا ان الفرص كانت قد سنحت له للامام باصول الفن وهو لا يزال في منزله الذي رأى فيه نور الحياة

وكان معلمه فريدريش ادم اوزر مدير مدرسة الفنون بليبترج فحضر عليه جوته دروسه في تاريخ الفنون — فأفهمه ما احتوت عليه مؤلفات فنكلمان و (لاكون) لسنج . ثم انه زار متحف الصور بمدينة درسدن فازداد فهمه للفن كثيراً . وقد كتب جوته في ليبترج مأساتيهِ الاوليين نشرت اولها سنة ١٧٦٧ واسمها (مزاح المحبين) ونشر الثانية في السنة التالية واسماها (الشركاء في الذنب) . والاولى قطعة تمثيلية منظومة في فصل واحد اشخاصها رعاة وفيها يسرد الاسباب التي جعلت جبال مودته وحبه لانا كاترينا Schoenkopf شونكوبف تصرم غيرة . وكان جوته قد احب (كيتشن) هذه وهي ابنة خمار . اما المأساة الثانية ففي ثلاثة فصول وقد كتبها لما فطن لفساد العادات في حياة الاسر التي عرف بعضاً منها وهو في مسقط رأسه وبعضها في مدينة دراسته هذه . وقد غلب النوق الفرنسي والشكل الفرنسي على القطعتين ومع انك ترى جوته يحافظ على الاوضاع المنقولة فانت تلاحظ منه الكياسة والفطنة في شعر صباه وترى ما اختصت به طبيعته الشعرية من لطف وانه يتمتع من نبع صاف غزير . وتلاحظ من هاتين المأساتين خير دليل على ما كانت بعض الدوافع الداخلية تحرك في نفسه ان يعرب



جوتہ وصوبجباتہ وترى الى
يسار الكلام زوجته

عما يشعر به من سرور وألم في قالب شعري ليخلص مما كان بنفسه كما لو أنه رفع عن عاتقه حملاً ثقيلاً . وقد اطلق هو على تلك القصائد والمقطعات اسم (قصائد المناسبات) او (اجزاء اعتراف كبير) . ولم يدخل هذه القصائد او الاجزاء الصغيرة في ديوانه الذي ظهر تحت عنوان (اتنا) سنة ١٧٦٧ وكان قد نظم في مدينة ليبترج وقدمه لصاحبه (كيلشن شونكوف) ، وهو مجموعة قصائد غرامية قصيرة نحا في بعضها منحى القرنيسين والايطاليين وكانت حافلة بأمور شهوانية ولكنها رقيقة لطيفة . ولما طبع مجموعته المسماة (ميخائيلس) سنة ١٧٦٩ لم يدخلها في عدادها

وفي سبتمبر سنة ١٧٦٨ عاد جوته من ليبترج الى فرانكفورت لانه كان مريضاً اثر زيف دموي حدث له فعاد الى بيت والديه ليستعيد فيه قوته . ولما برأ من مرضه تعرف بصديقه لوالدته تدعى الانسة فون كتنبيرج كانت على تقوى وصلاح مزيف غريب الشكل كما اتصل بطبيبه ايضاً اتصالاً قوياً وكان لهذا الطبيب كتب من كتب الكابالين المشحونة بالاسرار كما كانت له كتب في الكيمياء القديمة . فأجرى بعض التجارب في هذا الباب ترى آثارها في مؤسسته (فوست) . ولما استرد قواه وعادت اليه عافيته وجدة شبابه عاد في ربيع سنة ١٧٧٠ الى شتراسبورج ليم دراسة الحقوق والقوانين بناء على رغبة ابيه فحضر محاضرات الطب والعلوم الطبيعية الى جانب المحاضرات القانونية وقد كان جل زملائه على المائدة من طلاب الطب

ويجب ان لا ننفل ذكر اسم رجل عظيم كان له اكبر أثر في جوته في مدينة شتراسبورج . ونعني بذلك هردير (Herder) وكان اكبر منه بخمس سنوات الا انه امتاز بخبرته ومعارفه واستقلال الرأي ونضوجه . وقد قال جوته عن علاقته بهردير انها كانت اهم حادث له اكبر الاثر في نشوء افكاره وروحه وطباعه . وهنا عرف ان النظم انما هو لغة الدنيا والشعوب وانه ليس بمرآة خاص لبعض الرجال المهذبن . وقد اشار عليه هردير بمطالعة شعر الشعوب الاخرى كشعر العبرانيين وهوميروس واوسيان وبالاتلاع على درر شكسبير وقصة واعظ ويكفيلد التي كتبها اوليفر جولد سميث سنة ١٧٦٦ وهي من ابداع القصص باللغة الانجليزية . وترى جوته تعلق هناك بحب (فريدريكه) ابنة احد الوعاظ المدعو بريون فون سيفنهيلم . وهناك نسمعه يتغنى وينشد نخبة من أرق اغانيه العذبة الجميلة

وقد كان لبيعة شتراسبورج في نفسه كبير الاثر فقد كان لا يزال متأثراً بما يقال ضد طراز القوط في العمارة ولكنه لما رأى البيعة اعجب بها أي اعجاب وعرف روح فن البناء الالماني القديم . وترى ذلك الاثر في نفسه في مقالاته التي كتبها على فن البناء الالماني . ولما أتم دراسة القوانين وحصل على اجازة العالمية في الحقوق سافر الى فرانكفورت ولبث فيها قليلاً

وهناك قابل صديقه شلوسر وكان قد تعرف به في ليشنجن وهو الذي اصبح فيما بعد حماء .
 فقدمه الى المستشار الحربي (مرك) بمدينة دار مشتادت وكان لهذا اثر كبير في نفسه
 ثم ذهب الى فنزل سنة ١٧٧٢ واشتغل في محكمتها مدة اربعة شهور ثم عاد الى
 فرنكفورت وبقي في دار ابويه الى سنة ١٧٧٥ . وكانت هذه المدة المحصورة بين سنة ١٧٧٢
 وسنة ١٧٧٥ هي ما يعرف (بزمان العواصف والاندفاع) لتأليف جوته ويرى البعض ان هذا
 الزمان هو خير الازمنة لما انشده من شعر . فترى الافكار العظيمة تتزاحم في رأسه . ولما
 كان الهدوء الداخلي ينقصه فانك تراه يبدأ النظم او الكتابة في موضوع ثم لا يتعدى
 ما كتبه إلا الجزء الاول فيه كما حدث له كثيراً فإنه لم يتم (پرومتيوس) و (محمد) و (اليهودي
 الابدي) كما أنه قيد جزءاً يذكر في خير ما اخرج للناس ونعني به (فوست) كما أنه
 كتب اجزاءً من (اجونت) . إلا أنه مع هذا قد آتم مؤلفين عظيمين فأصبحت له زعامة
 الشعروإمارة القريض . ذلك أنه انتهى في سنة ١٧٧٣ من مسرحيته (جترزون برلينجن)
 وانتهى من كتابة جزء كبير من قصة (آلام الشاب فرتر) سنة ١٧٧٤

أما (جترزون برلينجن) فرواية مسرحية على طريقة مقلدي القدماء المدرسين في عصر
 العواصف والاندفاع اعتمد جوته في مادتها على ما كتبه أحد قدماء فرسان الفرنجة عن تاريخ
 حياته اثناء القرن السادس عشر . وقد مات ذلك الفارس سنة ١٥٦٢ . وحذا جوته حذو
 شكسبير فكان مبدعاً في الشكل . وقد بدأ عمله فيها لما كان في شتراسبورج ولو ان
 قصة ذلك الفارس ذي اليد الحديدية لم تطبع إلا بعد ذلك بكثير . ثم عاد جوته فغير وبدل
 فيها وأطلق عليها اسم (جترزون برلينجن : رواية مسرحية) وطبعها سنة ١٧٧٣ . ولما ذهب
 إلى فيمار بعدئذ أحدث بها بعض التعديل لتلائم المسرح . وموضوع القصة يوضح معارضة
 قدماء فرسان الدولة المستقلين للنظام الحديث

وتلاحظ في جتر بطل الرواية أنه يمثل العصور الوسطى الزاهية بما كان فيها من فرسان
 ذوي عزم صادق وحب للفضيلة . وترى صدد هذا بلاط قساوسة بامبرج وما كان به من القاب
 تتمشى مع ما يدعو به الناس بالمدينة تلك المدينة الكاذبة المضللة . وكان جتر فارساً من الطراز
 القديم فلم يكن يعبأ بما الشئ من محاكم بل كان يحمي الضعفاء بنفسه ويثور ويثار لكل فعل فاضح
 بكل ما أوتي من قوة وبأس شديد . ولكن كان ذلك العهد — عهد القوة — قد مضى ولبث
 جتر هو الفذ الذي يسير في خطته الاولى ولم يخضع للنظم الجديدة فكان في ذلك القضاء عليه .
 ولما ذهب اليه جنود الدولة حاصروه في حصنه وتمكنوا من اسره . ولما وعد بالتزام السكنية
 اعيد الى حصنه ثانية واقسم على ذلك واصبح حراً طليقاً مرة اخرى . ثم قامت اضطرابات
 المزارعين ولكي يكبح من جماح الثائرين ويؤدي خدمة للحكومة اخذ على عاتقه قيادة

الأمور فنارت عليه الثائرة وترك في يد أعدائه فرصة ضده فأصدروا امرأً بحرمانه من كل الحقوق المكتسبة للقضاء عليه . وقد تم ذلك وجرح جتز واخذ أسيراً وقضى بقية أيامه في المطبق وهو واثق كل الثقة انه انتقد شرفه ولكنه كان يتألم كل الألم لعلمه بان عهد القروسية قد انتهى وانقضى زمانه

والى جانب جتز ترى زوجه اليزابت وكانت امرأة مخلصة شريفة تعرف منها ام جوته نفسه فكأنما هو اراد ان تكون هي . ثم ترى اخت جتز المسماة ماريا وفيها شبه بفريديريك صديقه السابقة . وفي مكان آخر تلمح (فايز لنجن) وكان احد رفقاء جتز في شبابه وكان قد ذهب يبغي خدمة اسقف بامبرج مشمولاً برعاية القيصر اراحة لضميره ولاستقامته . ولما شجر الخلاف بين جتز وذلك الاسقف سنحت لجتز الفرصة بان يأسر (فايز لنجن) وعرف كيف يملك عليه حواسه ومشاعره وان يجذبه اليه حتى انه ترك خدمة الاسقف . ولقد اشتدت اواصر الصداقة المجددة وقويت عراها بينهما فخطب فايز لنجن اخت جتز المسماة (ماريا) . ولكنه عاد الى بلاط الاسقف وقد استغوته الدنيا وزخرفها وهجر خطيبته وخان صديقه . فكان جزاء تلك الخيانة وذلك التذبذب والتقلب نهاية مخزية كلها عار . فان عشيق زوجه (ادلهيد) المدعو (فرايز) دفعها لان تدس السم لزوجها . ويريك جوته من تلك القصة امثلة من بعض رجال الدين الذين انكبوا على شهوات الدنيا كاسقف بامبرج ورئيس دير (فولدا) وكان لا ينفك يشرب ويعربد . وترى القيصر رئيساً لا حول له ولا قوة يرغب في الخير والطيبات وما كان بقادر ان يقيم نظاماً

وفي الجملة ترى كل اشخاص الرواية قد ابدع تصويرها في صور حية كما اجاد تصوير ذلك العصر وما كان عليه . وقد اقبل الناس على تلك المسرحية بحماسة

اما (آلام الشاب فتر) فقصه من قصص ذلك العهد (عصر العواصف والاندفاع) المعروف في الادب الالماني ينتابها احساس مريض . وهي قصة اعتمدت في مادتها وخيالها على حياة شاب كان يدعى (يوروسالم) ابن احد كبار رجال الدين واللاهوت ورئيس احدى الاديرة بالقرب من براونشفايخ عرفه جوته لما كان في (فترلار) وهو امين سر المفوض لبراونشفايخ لونبرج . ومال الشاب لزوج احد اصدقائه واحبها ولكنه كان في حبه شقيماً — حب كله اليأس والموت ختامه — ولما كان جوته في تلك المدينة (فترلار) حدث له مع (شارلوتي بوف) مثل ما حدث لصاحبنا الشاب السالف الذكر . اما شارلوتي فكانت زوج امين سر مفوض (برم) المدعو (كسترن) . وكان هذا الرجل وزوجه قد احببا شاعر المانيا الاكبر ولكن حب شارلوتي ملك عليه كل حواسه الا انه كان ميلاً عقيماً من دون ثمرة وحباً من غير أمل فتركه قوي الاحساس مريضه . وقد وصف في تلك القصة أو في (اعترافاته العامة) كما كان يدعوها هو ما كان من

امره وما كان من ميوله المصابة، بطريقة شعرية على أنه غير وبدل في بعض الاسماء كما هي عادة الكتاب فاسمى (كسترن) بـ (البرت) ودعا زوجه (لوتي) . ولما رأى اليأس حليفه في ميله وجهه كان ما تراه في نهاية امره من انتحار بطله باطلاق الرصاص على نفسه . ومجمل القصة سهل غير معقد وقد كتبها جوته بأسلوب محبوب كأنك تسمع الموسيقى من الفاظه وعبارته . وقد صور عواطفه تصويراً مطابقاً للحقيقة

واذا رغبت ان تعرف اثر تلك القصة في معاصريه فلك ان تعلم ما كتب من قصص على نحوها وما دار حولها من اطالة وترجمة ونقد وتهكم وسخرية حتى ان بعضهم كتب قصة دعاها (اصدقاء الشاب فرتر) استرعى ما فيها من قدح لاذع نظر جوته . ويمكن ان يقال ان كل ما كتب في ذلك يصح ان يكون مراجع كبرى لحياة (فرتر ونهايته) . الا ان جوته قد اصبح عند معاصريه شاعر فرتر . وتشبه كل من المأساتين (كلافيجو) و (ستلا) (جتر) و (فرتر) . وبطل المأساة الاولى رجل مخنث الطباع لا ولاء له على غرار (فايز لنجن) السالف الذكر . اما المأساة الثانية فكانها هي تكملة لبعض اجزاء قصة فرتر ولكنها اضعف منها لاتدانيها ترى العواطف تتجه فيها اتجاهاً غير خلقي

وانك ترى قدرة الشاعر الفكاهية في عدة من آثاره الصغيرة التي كتبها في ذلك العهد . ومن هذا القبيل روايته الفكاهية المسماة (آلهة وأبطال وفيلاند) و (السوق السنوية لـ ليلاندز) فايلن وهي اضحكة اخرى على غرار ما خلفه هانز ساكس من آثار ومؤلفات . ثم اخرى اسمها (ساتيروس) . وفي سنة ١٧٧٤ كتب رواية كلها تهكم وسخرية على احد رجال اللاهوت المدعو كارل فريدريش باردت وما كان له من آراء في المسيحية وجعلها موافقة لروح العصر . ولم يفت الشاعر ان ينشد بعض اغانيه في ليلي (اسمها اليزابت شونمان) وكان قد خطبها الشاعر زمناً

وطار اسم الشاعر في الآفاق فزاره بعض الافراد المعروفين في منزله بفرنكفورت وزلواني داره ضيوفاً معززين مكرمين مثل كلوبشتوك ولافاتز الذي كان واعظاً في تزيورس . كما زاره اثنان من جرافات (الجراف كونت) شتولبرج وقد ذهب جوته في صحبتهم الى سويسرا لأول مرة في مايو سنة ١٧٧٥ . وردت الزيارة للافاتز وتعرف هناك بصديقه بربارا شولتس وبقيا على الصداقة ما شاء الله . وهي التي حفظت لنا اصول اثر من آثاره الذي اسماه (المعلم الاول) . ثم تعرف بولي عهد فيمار (كارل اوجست) وكان قد رآه قبل ذلك في فرنكفورت وفي كارلسروه . ولما تولى ذلك الامير زمام الحكومة في بلاده دعا جوته لقيار فساfer اليها ملياً دعوة (ستأتي البقية)

الدكتور علي مظهر

المذاهب الاجتماعية الحديثة

للمستر كيليند

مدير قسم الخدمة العامة في الجامعة الاميركية بالقاهرة

— ٢ —

سبر التحول الاجتماعي

لننظر الآن في فعل التحول الاجتماعي . كل من في هذه الغرفة رأى في اثناء حياته تحولاً في الاوضاع الاجتماعية عميق الاثر . ففي الناحية الصناعية شهدنا استعمال المصباح الكهربائي ، والتلفون ، والاتوموبيل ، والطيارة ، والراديو ، والصور المتحركة ، ولمسنا أثرها كلها في طريقة تعاملنا للاعمال ، وتمتعنا بالدين ، وملاهيها وحياتنا البيتية ، وقيام الدولة بما عليها . وقد استخرج علماء الاجتماع سنة التحول الاجتماعي كما تنطبق على امم الغرب فاذا هي : اذا بدأنا بجمعية مستقرة متزنة ، فادخال استنباط او اكتشاف ، يقاب اوضاعها ، لتعذر مماشاة هذه الاوضاع للاحوال الجديدة الناشئة عن هذا الاختراع ، ثم تحصل الملاءمة بين الاوضاع والاحوال الجديدة ويبي ذلك تحول في افكار الجمعية مجارة للاساليب الجديدة . فالسنة اذا تشتمل على المراحل التالية : — الاستنباط او اقتباس شيء جديد — فاضطراب الاوضاع الاجتماعية — فلاءمتها — فالتحول الفكري . ويطلق على هذا التأخر في تحول الافكار « البطء الفكري » . واليك المثل . ففي اواخر القرن الثامن عشر وضع جورج واشنطن خطة سياسية قومية للولايات المتحدة الاميركية ما لها ان تحتجب هذه الولايات الاشتباك في شؤون اوربا السياسية . وكان يفضلنا عن اوربا حينئذ محيط عرضه نحو ثلاثة آلاف ميل ، فلم يكن ثمة ما يبعثنا على العناية بشؤون اوربا . فلاءمت اميركا نفسها لهذه الخطة وجرت عليها بضع سنوات . ولكن المكتشفات والمخترعات المتتالية قصرت المسافة بين اوربا واميركا ، فهي الآن بالمخاطبات التلفونية الاسلكية لاشيء ، وبالطيارة لا تعدو ثلاثين ساعة او اقل . ثم ان اصحاب المعامل من الاميركيين قد صنعوا بضائع تفيض عن حاجة السوق الاميركية ، فهم مضطرون ان يبيعوها

في اسواق خارج بلادهم . وهذا درء على الاميركيين ثروة ، لم يدروا ما يفعلون بها في بلادهم فهم يثمرونها في الخارج . وبازدياد هذه الروابط الاقتصادية والثقافية ، تعظم عنايتهم ، ويشتد ارتباط مصالحهم بشؤون اوربا السياسية والاجتماعية ، بل بشؤون العالم . ولما كانت اميركا دأبة لمعظم الدول الكبيرة ، وامة ذات انتاج واسع النطاق فانها استرعت عناية امم اوربا كلها واشتبكت معها . ولم يكن في امكان جورج وشنطن ان يتصور كل هذا او شيئاً منه . وقد لاءمت منشآتنا الاجتماعية والعلمية هذه الحالة الجديدة ، والاوضاع السياسية آخذة في هذه الملاءمة أخذاً بطيئاً . ولكننا من الناحية الفكرية لا نزال متأخرين عن مجازاة التحول المذكور ، ونحن الآن لا نسلّم باننا مرتبطون ارتباطاً وثيقاً ببقية العالم . ولا بد ان يلحق التحول الفكري بالتحول الاجتماعي السياسي هذا هو سير التطور الاجتماعي السوي في بيئة محافظة ، او في جماعات مستقرة حيث تكون

عكس التطور الصحيح

ولكن اذا نظرنا الى سير التحول الاجتماعي الجاري الآن في بعض البلدان رأينا ان يختلف عما تقدم . فاذا كانت امة متأخرة في ناحية اوضاعها ومنشآتها الصناعية ، كالصين او روسيا ، ثم اخذت فجأة باسباب انقلاب فكري سريع ، مبتدئة في المرحلة الاخيرة من مراحل التحول الاجتماعي — اي التحول الفكري — قبل ان تقطع المراحل السابقة له من الاستنباط وملاءمة الاوضاع الاجتماعية للمستنبطات الجديدة — فالنتيجة انفجار واضطراب . وما يحدث هو اقتباس الآراء الحديثة من الامم الغربية التي اصبحت تلائمها بمقتضى سنة التحول المذكورة ، فتطبق على الاوضاع القديمة في البلاد المقتبسة فلا تنطبق ، وبدلاً من الحصول على ملائمة تدريجية تكون النتيجة ثورة عنيفة كما حدث في العهد الحديث في روسيا والصين واسبانيا والهند وجنوب اميركا . أفنستطيع ان نرى في هذا بعض تعليل للقلق الحالي في مصر . ان شعباً عدده ١٥ مليوناً — ٩٠ في المائة منه ، يعيش على مستوى من الثقافة ، قد ثبت واستقر من مئات بل من الوف السنين ، بما في ذلك وسائلهم الميكانيكية ، وعاداتهم الاجتماعية والسياسية وآراءهم العقلية والدينية ، كلها كونت واستقرت بما يلائم معيشتهم احسن ملائمة — يقطنون بلاداً هي طريق عالمية ، يجتازها الاوربيون ، وللاوربيين ثقافة مختلفة ، اكثر تعقيداً في بعض نواحيها واشد بساطة من نواح اخرى . واذا تلمس هذه الثقافة المختلفة الملاءمة (وسر قوتها يغلب ان يكون في مستنبطاتها) مصر تجذب اليها ١٠ في المائة من ابنائها فيقتبسون طائفة من اساليبها : — لاحظ التغيير في الملبس ، ووسائل المواصلات والمحادثات ، واللغة

وطرق المعيشة ، وانفاق الوقت الفراغ ، بين المصريين الذين اخذوا بالحضارة الاوربية فاذا عبرنا عن هذا الفعل بالفاظ اجتماعية قلنا ان هذا الجانب الصغير من الامة المصرية قد اقتبس بعض المميزات الفنية والصناعية المتطرفة بعض التطرف ولأءموا ملائمة سريعة بينها وبين طبائعهم وافكارهم . ولكنهم اذا حاولوا ان يطبقوا بعض هذه الافكار على سواد الامة لقوا من التباين في الافكار ما يفضي الى النزاع ، لان السواد لم يتبع في تحوله طريق التطور المادي اولاً فالتحول الفكري

اتجاه التحول أو التقدم

لنعد الآن الى موضوع التحول الاجتماعي ولنعالجه من ناحية التحول وغايته . هنا ندخل ميدان « ادب النفس » الذي يعالج العلاقات الاجتماعية كما يجب ان تكون ، وكيف نحقق ذلك . هنا نجد اختلافاً في الآراء والمذاهب ، الدينية وغيرها ، ولكل جماعة اقتراح أو طريقة تعتقد ان فيها العلاج الناجع . وقد دعا بعضهم اتجاه التحول الاجتماعي بالتقدم — اذا كان هذا الاتجاه متفقاً مع آرائهم الادبية — وبالاتخايط — اذا كان مخالفاً لها . ولكن هل يمكن ان نتفق على تحديد معنى « التقدم » ؟ اني اشك في امكان ذلك الآن أو في المستقبل القريب : فاننا متفقون ان ثمة تحول ، ولكننا لسنا على يقين هل هذا التحول « تقدم او لا . ونحن في حاجة الى التفريق بين « الحضارة » و « التقدم » . فانهما ليسا شيئاً واحداً . ان الحضارة تشير الى التقدم في اساليب الصناعة على الاكثر ، في كثرة الآلات الجديدة ، وزيادة البراعة في استعمالها

اما القول بان الحضارة تحسّن بحكم الطبع العلاقات بين الانسان وتمهد سبيل التقدم الاجتماعي فقول لم يقم عليه دليل بعد . والواقع ان الحرب العالمية ، اثبتت نقيض ذلك ، والضائقة المالية والصناعية الآخذة بخناق العالم الآن ، جلت لنا الضعف المستحكم في علاقات الناس اذا قيس بارتقائهم الصناعي والفكري . وقد حاول احد اساتذتي السابقين — الاستاذ سنغر استاذ الفلسفة في جامعة بنسلفانيا — ان يوفق بين التقدم والارتقاء الصناعي في كتابه « المفكرون المحدثون والمشكلات الحالية » فقال « ان التقدم يقاس بدرجة تعاون الانسان في غزو الطبيعة » فهو يشير الى علاقات الناس بعضهم ببعض في قوله « تعاون الانسان » والى « الارتقاء الصناعي » في قوله « غزو الطبيعة » وهو حد جامع اذا شمل لفظ « الطبيعة » الانسان كذلك واطن انه يقصد بها ذلك

مسألة السكان

ورغمًا عن الصعوبة التي نكادها في تحديد معنى « التقدم » أريد أن أذكر بعض نواح من علاقات الناس بعضهم ببعض ، يستطاع تحقيق التقدم فيها ، بانياً أفكارى على بعض الحقائق الحديثة المكتشفة في علم الاجتماع

فأولاً ما يرتبط بعدد الناس أو ما يعرف « بمسألة السكان » . لنفرض وجود جزيرة صغيرة مساحتها ميل مربع ينمو عليها قدر سوي من النباتات المنوعة وتعيش فيها طوائف من الحيوانات . ولكن ليس ثمة على سطحها ناس . انقل إليها رجلين فيتاح لهما الحياة عليها رديحاً من الزمن . ولكن إذا كانا طموحين ويرغبان في ترقية حالهما لبقيا في ذلك اشد المصاعب لعجزهما عن الحصول على من يساعدهما في سعيهما ، فهما إذاً يتوقان الى طائفة من الناس تساعدهم في استثمار الجزيرة . فسكان الجزيرة في هذه الحال اقل مما يجب أن يكونوا . ثم لنفترض أن سفينة حملت الى الجزيرة طائفة من المهاجرين ، عددها بضعة مئات ، فزلوا في الجزيرة واستقروا على سطحها ، فتم للرجلين المساعدة اللازمة — ولكنها في هذه الحال قد تزيد عسراً يلزم لهما ، لأن استهلاك السكان الجدد لموارد الجزيرة الغذائية اسرع من تجديد لهما ، وحينئذ نرى الرجلين الاولين يندبان سوء الحال وكثرة السكان وشح الموارد . فسكان الجزيرة في هذه الحال اكثر مما تكفي لهم مواردها . واخيراً يجد الرجلان الاولان وسيلة لارجاع معظم المهاجرين وابقاء نحو مائتين منهم فقط ، لانهم يحسبون أن موارد الجزيرة تكفي معيشة هذا العدد من الناس على احسن حال ، ولأن هذا العدد يكفي للقيام بكل الاعمال اللازمة . فسكان الجزيرة في هذه الحال يبلغون « العدد » الامثل أو المستوى الامثل (optimum)

ويبدو كأن هذا المثل يمكن تطبيقه على اي بلاد . فثمة عدد من السكان في كل بلاد ، اذا قل تأخر تسمير مواردها الطبيعية فيخسر الاهلون ، واذا زاد تعذر على البلاد تزويده بكل ما يلزم من ادوات المعيشة على مستوى معين فيهبط المستوى العام . وعلى كل امة ان تبحث عن العدد الامثل من السكان الصالح لبلادها وهذا البحث يقوم على اساس « مستوى المعيشة » و « درجة الثقافة » التي تود ان يتمتع بها ابناءؤها . ومن الواضح أنه اذا هبط مستوى المعيشة زاد عدد السكان الى ان يبلغ هبوطه درجة يفتك عندها الجوع أو المرض بجانب كبير من الامة . واذا فعدد السكان الامثل في اي بلاد يختلف باختلاف وجهة النظر . فالحكومة الامبريالية التي تتطلب عدداً كبيراً من الجنود لا يكلفونها نفقة كبيرة ترغب في شعب كبير يعيش على مستوى واطر جداً . ومن ناحية الدين ترغب الكنيسة مثلاً في طائفة كبيرة من المؤمنين لزحم المؤمنين وتخرجهم . واذا نظرنا الى المسألة من الناحية الاقتصادية

وجدنا ما يسوغ تحديد السكان لكي يتمتع الباقون بدخل واف. ثم اذا نظرنا من الوجهة الادبية وجب ان يكون السكان بحيث يضطر كل فرد الى العمل الشاق ويكون دخله كافياً لحاجاته الضرورية فلا يفيض منه ما يبذره في التمتع بالملهي والمفاسد. والمقرر ان الميل المربع في بلاد زراعية يكفي عدداً من السكان اقل من العدد الذي يكفي الميل المربع في بلاد صناعية. وقد يحسن بجماعة من الجماعات اذا استطاعت، ان تعين مستوى معيشة ابنائها والحد الأدنى لحاجاتهم الاجتماعية ودرجة ثقافتهم وهلم جرا ثم تسعى الى تعليم الناس المعيشة على هذا المستوى. نقطة « اطلاق حرية العمل » وما نجم عنها من السير على غير هدى، ضارة كاخلطة العمياء التي ترغب في زيادة السكان على اي حال ومن دون اي نظار الى مستوى معيشتهم، وهذا في الوقت نفسه ضار كالدعاية الى تحديد السكان وضبط التناسل المطلقين من كل قيد

الزيادة والنقص والتخدير

والباحثون الآن ما كفون على درس مسألة السكان، وقد اسفرت مباحثهم عن حقائق كثيرة، قد تقضي اخيراً الى استخراج احكام اجتماعية. فنحن نسمع مثلاً، ان سكان الارض يزيدون زيادة سريعة تجعل المجاعة العامة امراً لا ندحة عنه بعد بضع سنوات. ويرى « نيز » Knibbs أن سكان الارض وعددهم ١٩٥٠ مليوناً اذا مضوا يزيدون بمتوسط زيادتهم في القرن التاسع عشر (اي ٨٦٤ ر. في المائة) (متوسط الزيادة في مصر في العشرين السنة الاخيرة بلغت ١١ ر. في المائة) بلغ عددهم بعد ٢٤٠ سنة ١٥٦٠٠ مليون ولكن هذا متعذر لأنه يعني ان ازدحام السكان في كل بقعة من بقاع الارض يكون حينئذ مثل ازدحامهم في حي العباسية بالقاهرة الآن او ٦٣٠٠ نسمة في الميل المربع الواحد وهو ستة اضعاف متوسط ازدحامهم في القطر المصري. ولا بد من حدوث حادث قبل بلوغ هذا العدد. وبفضل تقدم المواصلات والسيطرة على الاوبئة والتنظيم الصناعي، زاد سكان العالم في القرن الماضي زيادة تحمل على التفكير فيما قد يحدث اذا اطردت هذه الزيادة. فبعضهم يعزينا بقولهم انه بارتقاء الحضارة يقل متوسط المواليد، وانه بالتوسع نطاق التعليم تكثر المستنبطات التي تجعل الحياة اكمل رفاهية وأقل نفقة، او تحدث كارثة طبيعية او تنشب حرب، فيقل عدد السكان قد يكون ذلك...

لننظر في مسألة قلة المواليد. فانها قد تعني ضعف الخصب الانساني، او السيطرة على التناسل الناشئ عن ارتفاع مستوى المعيشة. او قد تكون نتيجة مماشية لانخفاض متوسط المواليد القائم على ترقية وسائل الصحة. فلنفرض وجود جماعة عددها ٣٠٠ الف نسمة. في سنة ما يولد فيها ٣٠٠٠ مولود ويحدث ١٠٠٠ وفاة. فهذا يعني ان متوسط المواليد فيها ٣٠

في الالف ومتوسط الوفيات ١٠ في الالف فعدد الجماعة يكون في آخر السنة ١٠٢٠٠ نسمة. ولنفرض ان عدد المواليد والوفيات في السنة التالية مثله في السنة السابقة فلمتوسط السنوي في السنة التالية اقل منه في الاول فيبلغ للمواليد ٢٨٦٤ وللوفيات ٩٨٨ وقلته تزيد بزيادة العدد الاصلي ، والعدد الاصلي يزيد بزيادة طول الحياة . ذلك ان زيادة طولها تفضي الى بقاء كثيرين على قيد الحياة فوق السن الذي يخلف فيه النسل . وقد بلغ من اضطراب الطرق المستعملة لتحديد متوسط الوفيات والمواليد ان مال بعض الباحثين الى اهمالها والبحث عن وسائل ادى . فالاستاذ كوزنسكي يجعل اساس طريقته النساء اللواتي في سن التوليد اي من سن ١٥ الى سن ٥٠ ويقابل عددهن بالبنات اللواتي يخلفن ويتعهدن الى ان يبلغن سن التوليد فاذا كانت كل انثى تخلف بنتاً تحمل اولاداً او ولدين ليحلا محل الام وزوجها فعدد السكان مستقر على حال واحد لا يزيد ولا يقل مع ان تقدم وسائل الصحة العامة تجعله يزيد بزيادة ظاهرة. لان هذه الزيادة اذ تبلغ حداها الطبيعي تقف عند حد وتستقر. وقد اثبت كوزنسكي ان هذه « الزيادة » اقل من واحد صحيح في غرب اوربا وشمالها اي ان شعوب هذه البلدان آخذة في النقص . ومعظم هذا النقص في بريطانيا وفرنسا والمانيا والنمسا وتشكوسلوفاكيا واستونيا ولتفيا . اما البلدان الاخرى كإيطاليا وبلغاريا والمجر واسوج ودنمارك وفنلندا فاما مستقرة بلا زيادة ولا نقص او ان زيادتها قليلة جداً . اما البلدان الصقلية كروسيا فأخذة في الزيادة بزيادة ظاهرة . ويقدر ان النقص يبدأ فعلاً في فرنسا سنة ١٩٣٧ وفي انكلترا سنة ١٩٤٢ وفي المانيا سنة ١٩٤٦ والاحصاءات التي يمكن الاعتماد عليها في الولايات المتحدة الاميركية تدل على ان عدد السكان فيها مستقر فاذا نقص متوسط المواليد عما هو عليه الآن افضى الى نقص في عدد السكان . فيظهر مما تقدم ان الامم التي منيت بمشكلات العمال العاطلين الناشئة عن زيادة السكان على العدد الامثل مقبلة على حل بيولوجي لهذه المشكلات بنقص طبيعي في عدد السكان

* * *

لم يجز احد مثل هذه المباحث في القطر المصري . وقد تصبح ممكنة بارتقاء فن الاحصاء فيه . وانما عملت حسابات وضحت في اطلس مصر وبعض مطبوعات الحكومة . وجدير بالذكر ان مصر من اكثف البلدان سكاناً يقطنها نحو ١١٠٠ نسمة في كل ميل مربع من الارض المنتجة ويقابل ذلك نحو ٧٠٠ في انكلترا و ٦٥٠ في بلجيكا ونحو ٧٠٠ في جاوى . ويذهب بعض علماء الاقتصاد الى ان وجود ٨٠٠ نسمة في ميل مربع من البلاد الزراعية هو الحد الأقصى فاذا زاد عددهم عن ذلك اصبحوا في خطر من الجوع . وكذلك اقترح بعضهم ان تحل هذه العقدة في

مصر باستيراد الآلات الزراعية . فإذا استعملنا الآلات الزراعية هنا مدى استعمالها في الحقول الأميركية اكتفينا بنحو $\frac{1}{3}$ من عدد الفلاحين المشتغلين بالزراعة وعدد هم نحو ٣٤٨٠٠٠٠ — اي اكتفينا بعمل ١٨٠٠٠٠ فلاح — والباقيون — اي نحو ٣٠٠٠٠٠٠ يتفرغون لأعمال أخرى في الصناعة إذا اتاحت لهم الفرصة أو يصبحون عاطلين . فمن الوجهة العملية نرى ان المشكلات المرتبطة بحالة الفلاحين الاقتصادية والثقافية والصحية ، هي في مقدمة المشكلات التي تسترعي عناية مصر الحديثة

السيطرة الاجتماعية

لم يبقَ عليّ إلا أن ابدي بعض ملاحظات تدور حول موضوع « السيطرة الاجتماعية » . فمن الواضح ان اتساع نطاق الجماعة الناشئة عن كثرة المستنبطات ، حتى يشمل جماعات أخرى ، وكثرة السكان التي تقضي الى اشتباك المصالح ، يقتضيان نظاماً من السيطرة . كانت القوة أولاً أساس هذا النظام إذ يخضع القوي الضعيف لأرادته . ولكن هذه الوسيلة أصبحت صعبة التطبيق لزيادة التعقيد في علاقات الناس بعضهم ببعض . وكأن البشر ملزمون الآن ان يتخذوا من النظام الادبي أساساً بدل هذا الأساس المضطرب . فالتوسع نطاق التعاون بين الأفراد ، في بلاد واحدة أو بين سكان الأرض — بين التجار والعمال والمشتغلين بالشؤون العقلية — اخذ يصبح امرأ لا مندوحة عنه . فلا بد للجماعة ان تتنازل عن بعض آرائها الخاصة ، ولا بد للأفراد من التنازل عن بعض ما يعرف « بحقوقهم » . ولكي يكون النجاح نصيب هذه السيطرة الادبية ، فلا بد ان يكون بمحض ارادة الناس . ولا بد من التعليم الذي يلقي « طرائق التفكير » بدلاً من « موضوعات التفكير » . ولا نستطيع قبل اتساع هذا النوع من التعليم ان نطرح ما نعرفه عن نظام السيطرة الادبية . وحينئذ نصبح معينين بتقديم النوع الانساني قاطبة عنايتنا بتحسين صنف القطن . فنحن نعلم اننا نستطيع تحسين الناس من ناحيتين — ناحية عوامل الوراثة بالتأصيل وناحية البيئة وهي تشمل احوال الحياة من التلقيح الى ساعة الوفاة . وقد يظهر لبعض الناس ان القول بالسيطرة على الوراثة سابق لاوانه الآن . ولعله كذلك . فقد لا نكون على جانب كاف من الحكمة يؤهلنا للعبث بأساس الحياة — العوامل الوراثية . ولكن محاولة تحسين البيئة اذا اخطأت لا تضر الانسان ضرراً باقياً . فنحن نستطيع ان نحول المجتمع ، بحسب فهمنا لمعنى التقدم ، اذا تمكنا من اقناع عدد كافٍ من الناس بصحة ما نقول وهذا هو عمل المعلم والمهذب

السَّاعِر

كنتُ خمرًا معصورةً من قلوبٍ أنبَسَتْهَا إِلَهَةُ العشاقِ
عَرَّشْتُ كَرَمِي زَمَانًا عَلَى الْحَبِّ وَغَطَّتْ جِدْرَانَهُ أُرَاقِي
وتَلَاقتُ فَوْقِي عَصَافِيرُ تَشْدُو مِنْ تَسَامُؤٍ فِي الْحَبِّ خَيْرَ تَلَاقٍ
مَا سَقَّتَنِي جِدَاوِلُ الْأَرْضِ لَكِنْ كُنْتُ أَسْقَى بِفَائِضٍ مِنْ مَاقٍ
كُنْتُ أَسْقَى فَيْضَ الْجَمَالِ نَقِيًّا لَمْ تَشْبُهُ كِدَارَةً مِنْ نَفَاقٍ
يَغْسِلُ الْفَجْرُ بِالنَّدَى أَعْنَابِي وَهَوَلَامٍ مُسْتَعْرِقٍ فِي عَنَاقِي
فَإِذَا سَارَ رَدَّدَ الصَّبْحُ فَوْقِي ذَكْرِيَّاتِي فِي جَلْوَةِ الْإِشْرَاقِ

وَأَتَنِي الْأَيَّامُ تَقْطِفُ مِنِّي
عَصْرَتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ خَمْرًا
فَتَوَلَّى فَضُّ الدَّنَانِ غِرَامِي
فَتَمَشَّتْ فِي الْحَالِ فِيهِ حَمِيًّا
أَلَصْتُ الْفَجْرُ لِلصَّدَى فَارْتَقَاهُ
فَتَلَاشَيْتُ فِي الْأَثِيرِ بَقَايَا
فَاسْمَعُونِي فِي رَنَّةِ الْعُودِ لَحْنًا
وَاسْمَعُونِي فِي ثَوْرَةِ الرِّعْدِ الْقِي
وَاسْمَعُونِي فِي صَدْحَةِ الطَّيْرِ أَشْدُو
فِي النَّسِيمِ الْعَلِيلِ يَهْمَسُ لِلْبَحْرِ
فِي حَدِيثِ الْأَطْفَالِ ، فِي صَوَاتٍ
لِنَغْمَاتِي : يَهْمَسُ مِنَ الرُّوحِ سَامٍ

كُلُّ غَضٍّ مِنْ كَرَمِي رِقَاقٍ
وَدَعَّتَنِي لِلشَّعْرِ أَعْظَمَ سَاقِي
وَاحْتَسَانِي فِي غَمْرَةِ الْأَشْوَاقِ
يَ فَغْنَى أَغْنِيَّةِ الْإِطْلَاقِ
خَاشِعَ النَّفْسِ ، صَامِتًا وَهُوَ رَاقٍ
لِغَنَاءِ يَرْبُ فِي الْآفَاقِ
وَاسْمَعُونِي فِي صَرْخَةِ الْأَبْوَاقِ
تَمَّتِ السَّلَامُ فِي الْإِبْرَاقِ
فِي حَفِيفِ الْأَغْصَانِ وَالْأُورَاقِ
رَ حَدِيثًا ، وَفِي أُنَيْنِ السَّوَاكِي
لِلشَّبَابِ الْمَرْنَجِ الْخَفِيقِ
وَحَدِيثِي : شَبَعٌ مِنَ الْأَعْمَاقِ

مِنْ لَمَلِ الصَّبْرِ فِي

انتقل الذهب ، على مرّ العصور من يد الى يد ، ومعه الصولة والسلطان . ولكن حدث من نحو قرنين ونصف قرن ، حادث لم يكن ذا شأن في نظر الناس حينئذٍ ، ولكنه غيّر وجه الارض ذلك انه في مطلع القرن الثامن عشر ، اذ كان لويس الرابع عشر يقضي شيخوخته في فرساي ، مثقلة بالمجد ، وأعداؤه ينتظرون وفاته ، لكي يثأروا لنفوسهم من خلفه ، كان عالم فرنسي متواضع ، قد طرد من فرنسا بموجب « منشور نانت » فذهب الى المانيا حيث والى تجاربه رغم فقره ، في قوة بخار الماء ، بل انه بنى مركباً صغيراً شبيهاً بعربة تدور عجلاته الاربع بقوة البخار . فخطمه بخارة مُسندن ، خوفاً من ان يسد في وجوههم سبيل الرزق وظالت فكرة — دينيس يابان — مطوية نحو قرن وفي اوائل القرن التاسع عشر صنعت الآلة البخارية وشاع استعمالها في الصناعة ومن ثم اصبحت ثروة الامة رهناً بما تملكه من مناجم الفحم ، لا مناجم الذهب والفضة والحجارة الكريمة . وهكذا تمّ للام التي اخذت بالآلة البخارية في صناعتها الوف من العبيد — الآلات التي اغنت عن العبيد — تشتغل لها . فكان عصر الفحم واخذت السفن البخارية تتجارى لغزو البحار ، والسكك الحديدية لافتح القارات . واتسع نطاق الصناعة الآلية ، فتغلبت على الصناعة اليدوية ، وسيطرت على الاسواق البعيدة ، فاتجهت تيارات الثروة نحو البلدان الصناعية الغنية بمناجم الفحم ، لان الامم التي تملك الذهب لم تتأخر عن ان تستبدل بذهبها ما تخرج المصانع من البضائع . فاثرت الولايات المتحدة ومانيا وانكلترا من هذا الطريق . بل يصح القول بان بريطانيا بنت امبراطوريتها على الفحم ومن البلدان التي فقدت مقامها في عصر الفحم والبخار ، لقلة الفحم في ارضها ، ايطاليا . فانها لما حاولت ان تجاري الامم الصناعية ، اضطرت ان تستورد الفحم الضروري لمصانعها ، فاضطرت من ناحية اخرى ان تنقص اجور عمالها وتحفض مستوى معيشتهم ، لتتمكن من مباراة الامم الصناعية الاخرى ، بعض المباراة في اثمان مصنوعات ، وهكذا اصبحت ايطاليا — وقد كانت الغنية في عصر الذهب — فقيرة في عصر الفحم : انها لمن المفارقات وما لبث العلماء ان اخذوا يبدون قلقهم من مجيء يوم ينفد فيه الفحم المخزون في بطن الارض ، وجعلوا يحسبون بالارقام ميعاد ذلك اليوم وصوّروا العالم فيه بصورة قائمة تنقبض لها النفوس ، اذ تقف الآلات في كل المصانع عن العمل . اما الامم الصناعية ، فضت في استخراج الفحم من المناجم غير عابئة بما ينطوي عليه الغد

ولكن في السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر كان عالم مكبّ في سكون معمله على البحث في موضوع لم يعره الجمهور حينئذٍ عناية ما . وكان اسم هذا العالم « بوده روشا » . فانه استعار فكر الاب هو ثقيل الذي حاول سنة ١٦٧٨ ان يصنع محركاً يدور باحداث انفجارات صغيرة متتالية ، مستعملاً البارود لاحداث هذه الانفجارات . ثم طالع مباحث المهندس النابغة

لنوار الذي تصوّر سنة ١٨٦٠ امكان توليد قوة متحركة من مزيج من الغاز والهواء المضغوط وهكذا استنبط المحرك الذي يدور بالانفجار على مثال محرك السيارة فكان ذلك ايداناً بانقلاب جديد في الصناعة بعيد الاثر واسع النطاق ، فثلّ عرش الفحم ، ونصب البترول ملكاً وكان الطبيعة تحب التوازن ، خربت الامم التي امتازت بمناجم الفحم من منابع البترول واذا انكلترا والمانيا وفرنسا وبلجيكا لا تجد في ارضها من هذه المادة الثمينة ما يشفي غليلاً وكان الانكليز اسبق هؤلاء الى ادراك فداحة الخطر . وزاد قلقها لما اكتشفت طريقة لتكرير البترول باحمايه في مرجل ، وفهمت انه اذا لم تملك من منابع البترول ما يكفي سفنها التجارية والبحرية ، اصبحت تحت رحمة الولايات المتحدة الاميركية . واذا ضاعت صولة اسطولها فقل على ارتقاءها الصناعي ، وتجارتها ، وسلامتها ، ومكانتها العالمية ، السلام

فهل تسمح للقدر ان ينزع منها القوة التي منحها اياها مناجم الفحم ؟ هل تفقد سيادتها البحار ، وسيطرتها على الاسواق العالمية ، وامبراطوريتها المنشورة في مشارق الارض ومغاربها وهي واقفة مكتوفة اليدين ؟ لانه رغماً عن كثرة مناجم الفحم فيها لست تجد في كل امبراطوريتها الا نحو ٤ في المائة من منابع البترول العالمية . فعزمت ، طائفة من رجالها الممتازين ببعد النظر وصدق الوطنية ان تخرجها من هذا المأزق . فدبروا الامر بينهم ، بمعزل عن الشعب والبرلمان ، والولايات المتحدة الاميركية قانعة بسيطرتها الظاهرة ، لانها كانت تخرج ٨٥ في المائة من مقدار البترول المستهلك في العالم . فلم تنقضي بضع سنوات حتى كان الانكليز قد بسطوا سيطرتهم على منابع البترول اللازمة لحياتهم الاقتصادية وسيادتهم البحرية ، فلما تنبته الولايات المتحدة الى ذلك ، وعرفت ان احتكارها للبترول بات في خبر كان ، كان قد سبق السيف العذل

من هنا يتبين للقارئ كيف تسيطر مسائل البترول على سياسات الامم . ففي كل بقعة وجد فيها نبع بترول ، أو يظن ان فيها نبعا ، ترى النزاع قائماً فيها بين الامم ، آناً في وضح النهار ، وآناً تحت ستر الخفاء ، ولكنه نزاع على كل حال ، هدّد السلام العالمي غير مرة ، ولا يزال يهدّده . ولكن ، لعل عالماً يقوم ، ونحن نكتب هذه السطور ، بتجارب من شأنها ان تحدث انقلاباً في الصناعة كما احدث استنباط الآلة البخارية وآلة الاحتراق الداخلي . فيضطرب التوازن الدولي مرة اخرى ، ويعود الفقير غنياً والغني فقيراً . وليس هذا من بنات الخيال . فالعالم الفرنسي جورج كلود ، يقيم من سنوات في احدى الجزائر النائية ، محاولاً ان يبدع طريقة عملية تجارية لاستعمال القوة التي لا تحد ، الكامنة في حركة مياه البحار

هذه هي السنّة التي تجري عليها حضارتنا ، القائمة على الآلة وتطبيق العلم واستعمال القوة . فرب استنباط يخرج عالم مجهول ، او اكتشاف بسيط يقوم به باحث منزوي ، يكون من شأنه ان يقلب التوازن الكائن بين الامم ، فيضع العالي ، ويرفع الوضع . هكذا تتحول ايجاد العالم !

تقاليد الزواج و اصولها النفسية

د. محمد عطية الله

— ٤ —

الزواج الفردي — الحب والزواج — تعدد الزوجات — الاسباب الداعية اليه — تعدد
الازواج — الزواج الجمعي — زواج المبادلة — المهر وقطوره
احصائيات عن تعدد الزوجات وسن انتزاج في مصر

بين من يحصل هذا التعاقد ، او بمعنى آخر من هما الطرفان في الزواج ؟ لان الزواج كماي
تعاقد لا بد له من طرفين . ولعل اسرع ما يتطرق الي الذهن ان الطرفين رجل وامرأة ، وإذا
توسعنا قلنا رجل واحد واكثر من زوجة ، وهذا ما نعرفه بتعدد الزوجات . ولكن هل
هذا كل ما هنالك ؟ كلا ! فكما أن هنالك تعدد للزوجات . فهناك أيضاً تعدد للازواج .
أي أنه قد يكون لعدة رجال زوجة واحدة ، كما ان هنالك زواج جمعي اي ان مجموعة من
الازواج واخرى من الزوجات تتضامن وتشترك في عقد الزواج . والتقاليد الدينية التي تحرم
هذا او تحلل ذلك ، تعتمد كثيراً على أسس سيكولوجية ، واقتصادية في وقت واحد لذلك
نرى ان خروج الفرد على هذه النصوص كثير ، ومنتشر ، لأنه ليس من الميسور أن تطبق
الحالات او النظريات العامة على الافراد او الشعوب المختلفة ، دون مراعاة لمؤثرات البيئة
فاذا نظرنا الى الشعوب الهمجية . وجدنا أن الزواج الفردي ، وتعدد الازواج منتشر
بينها لما للبيئة وللحالة الاقتصادية من اثر في نظمها

فالشعوب التي تعتمد على الصيد ، أو ذات البيئة الجبلية ، او التي تعتمد على الصناعة ،
او التجارة او البلاد الفقيرة ينتشر عادة بين اعضاءها الزواج الفردي ، ولو كانت في دور الهمجية
ففي مثل هذه الشعوب حيث تكون تكاليف المعيشة باهظة ، لا يتسنى لكل فرد ان يعول
فيها من الزوجات اكثر مما يلزمه . لهذا نجد ان الزواج الفردي كان منتشراً في اكثر
انحاء القارة الاوربية منذ اقدم الازمنة ، وان كان قد تحدد منذ عهد الرومان ، ثم عند انتشار
المسيحية . ولا ريب في أن الزواج الفردي اقرب الى الطبيعة لان علاقة الصداقة لا تتوثق
ولان تبادل الحب لا ينمو عادة إلا بين فردين فقط

أما عند كثير من الشعوب كالتي تعتمد على رعاية الاغنام ، او على الزراعة والتي تتطلب
بحكم بيئتها كثرة الايدي العاملة ، نجد ان تعدد الزوجات هو التقليد المتعارف بينهم ، لاسيما
وان كثرة النسل وازدياد عدد افراد العائلة مظهر من مظاهر القوة والسيادة ، كما هو الحال

عند الشعوب التي تعيش متفرقة كالعشائر او القبائل التي تقطن البادية . ومما يساعد على تعدد الزوجات قلة مطالب المعيشة او وفرة الحاصلات الغذائية

بل ان بين الشعوب المنتشر فيها الزواج الفردي ، نرى ان تعدد الزوجات معروف بين الطبقات الثرية ، كالامراء والملوك . ففي القرن السادس قرأ عن ملوك ارلندا ، ان المتعارف بينهم ان يكون لكل منهم زوجتان ، وكذلك الحال في الممالك السلافية (الصقلية) المختلفة ثم ان في بعض الحالات الشاذة كالحروب مثلاً التي تنتهي عادة بفقد عدد كبير من الرجال ينتشر تعدد الزوجات بطبيعة الحال ، كما حصل ذلك بعد حرب الثلاثين سنة لما صدر قانون في بعض مناطق المانيا يحتم على كل رجل الزواج باثنتين على الاقل

ويجب ألا نفرض النظر عن الصعوبات التي تعترض الشعوب او الديانات عند تطبيق قوانين الزواج الفردي ، وذلك لأن هذه القوانين مبنية على اساس ان نسبة عدد الرجال الى عدد النساء في العالم متقاربة ، ولكن كيف يمكن تطبيق هذا على بعض الشعوب التي يزيد فيها عدد النساء كثيراً عن عدد الرجال ؟ كما حدث نتيجة للحرب العالمية الاخيرة في اوربا

ونتيجة ذلك كما يقرر الفيلسوف الانكليزي برتراند رسل — « ان فوضى اخلاقية كبيرة عمت اوربا ، يندر ان نجد رجلاً متزوجاً من دون ان تكون له علاقات جنسية باخرى » . ولكن العلاقة الزوجية يجب ان تكون اوثق اساس للمحافظة على الزواج الفردي لاننا نجد حتى بين تلك الشعوب التي تسمح التقاليد فيها للملوك ومن في مقامهم بتعدد الزوجات انهم يميزون عادة واحدة من بين نساؤهم العديداً ويدعونها « بالزوجة الاولى »

وكتب علم حضارة الانسان ممتلئة بذكر امثال هذا . فسلیمان الحكيم مع ما نسمة به من الحكمة نعرف عنه انه قد كانت له الف زوجة . ولكن من المشاهد لا سيما بين الشعوب الهمجية كما في غرب افريقيا ان لبعض امراء الزنوج نحو ٣٣٣٣ زوجة !

ثم هنالك النوع الثالث من العلاقات الزوجية وهو تعدد الأزواج : بمعنى ان تكون هنالك زوجة واحدة لمجموع من الأزواج في وقت واحد . وهذه التقاليد وان لم تكن عامة الانتشار كالنوعين الاولين إلا انها معروفة بين كثير من الشعوب ، بل هي شائعة الى الآن في بلاد التبت . والعادة هنالك ان يكون الأزواج اشقاء او اقارب ، فاذا تزوج رجل بفتاة فبحكم العرف تصبح هذه الفتاة زوجة ايضاً لاشقائه ، ويعرف اكبر الاشقاء سناً « بالزوج الاول » واليه ينسب الابناء . والاسباب التي حدت الى ايجاد مثل هذه التقاليد عديدة : اهمها عدم التناسب بين عدد الفتيات والرجال في القبيلة في حين ان التقاليد تمنع التزاوج من خارج هذه القبيلة . ثم فقر البلاد وقلة الموارد الاقتصادية التي تضطر افرادها الى الافلال من عدد النسل ، لكي يمكن رعايته — او قد يكون السبب فقر العائلة بمعنى ان الرجل يكون عاجزاً عن

اقتناء زوجة اذا كان التبادل التجاري هو اساس الزواج — وكذلك كثرة غياب الازواج سواء في القنص في الغابات ام في الحروب والغارات التي تنشب دوماً بين هذه القبائل . وهذا النوع من الزواج يكون عادة سبباً لظاهرة اجتماعية اخرى وهو الزواج الجمعي . ومعناه ان مجموعاً من الازواج والزوجات يشتركون معاً في تكوين اسرة واحدة . وهذا يحدث نتيجة لتعدد الازواج . فالاقرباء الذين يتضامنون مع واحد منهم في زواجه بفتاة ، يصبح له هذا الحق اذا تزوج احد اشقائه او اقاربه . وقد ذكر يوليوس قيصر وصفاً لمثل هذا النوع من الزواج في انكلترا عند غزوه لها . اما الاطفال فينسبون الى الزوج الاول

ولا يحصل الاتفاق أو التعاقد في غالب الاحيان مجاناً ، إذ أنه لا بد من دفع ثمن لهذه الموافقة لا سيما لو ولد العروس الذي يفقد بزواجه فتاته فرداً من افراد عائلته كان له عوناً في الأعمال المنزلية — لهذا السبب نرى تبادل الزوجات شائعاً في كثير من الشعوب الهمجية ، بمعنى أن الزوجين يتبادلان اختيهما . فالقلى الذي لديه أخت أسعد حظاً في العثور على زوجة له ، لاسيما عند القبائل التي تحظر الزواج باجنبيات عنها

فاذا تعذر التبادل وجب دفع ضريبة أو دية أو ثمن للزوجة ، وهذا الثمن يدفع للأب ويكون عادةً من بين الادوات ذات الفائدة له . وإذا تعذر ايضاً دفع ثمن للزوجة فقد يستعاض عنه بخدمة يؤديها الرجل لعائلة الزوجة — ومن المعروف لدينا ان موسى قد تزوج ابنة شعيب بان استخدمه هذا في عمله وعاونه فيه سنين

وهذه المدة لا تقل عادة عن عام واحد وقد تبلغ خمسة عشر عاماً أو حتى ولادة الطفل الاول وقد لا يكون الغرض من هذه الخدمة دفع ثمن للزوجة ، ولكنه يتخذ دليلاً على قدرة الزوج على العمل وعلى إعالة زوجته . لذلك نرى ان الزوج الجديد كثيراً ما تطلب منه أشق الأعمال ، ثم انه لا يعامل من افراد اسرة زوجته الجديدة إلا بكل قسوة ، فلا يعطى إلا أحقر الاطعمة ولا ينام إلا على الارض في أفقر مكان كما هي الحال في بعض جزائر الهند الشرقية وهذا المبلغ الذي يدفعه الزوج لوالد الفتاة يأخذ اوضاعاً مختلفة ، فقد يكون هدايا يبعثها الزوج الى الفتاة ، لا كسمن ولكن كرمز لتقديره لها واعجابه بها . فارسال الخطيب هدية في وقتنا الحاضر الى فتاته دليل ايضاً على تقديره واثبات لهذه العلاقة الجديدة — وقد يكون المهر الذي يدفعه الزوج معناه شراء حقوق زوجته من أبيها — كما انه في بعض الاحيان قد يدفع الزوج ايضاً مبلغاً من المال لوالد الفتاة بعد ولادة الاطفال كسمن لشراء حقوق هؤلاء الصغار في البلاد التي صار ارسال الهدايا أو تقديم المهور شائعاً بين افرادها ، تقدر قيمة الفتاة بمقدار هذا الثمن فقيمتها بين اهلها تتناسب مع القدر الذي دفع في سبيلها لذلك كان التفاخر بدفع المهور تفاخراً بقيمة هذه الزوجة ، إلا أن هذه التقاليد أخذت

في الاضمحلال ، لا سيما عند دخول عوامل جديدة مثل حرية المرأة في الموافقة على الزواج والعوامل الاقتصادية الأخرى . وقد يحدث في بعض البلاد ان التغالي في دفع هذه المهور يحدو بالسلطات القائمة — كما حدث في بعض انحاء روسيا القديمة أو حديثاً على ما ظن في بلاد فارس — ان تحدّد مقداراً من المال لاتعده المهور لكي يساعد هذا على اقدم الفتيان على الزواج ومن المتعارف أن جزءاً من هذا المهر الذي يدفعه الزوج يكون حقاً للفتاة . وهذا بدوره يرجع حقاً للزوج يتصرف فيه . فالنتيجة التي قد تتدرج اليها هي ان الزوج بينما يراه يقدم بعض الهدايا اذا بالزوجة تدفع مهراً للرجل كدليل على ان عائلة الزوجة لا تسعى الى ثمن مادي من الزوج كقيمة لفتاتهم . ويحدث ان الزوج عند مقابلة زوجه للمرة الاولى ان يقدم لها هدية أو مبلغاً من المال . ففي بعض انحاء مصر تمتنع الفتاة (كما رأينا) عن التكلم الى زوجها الجديد — تحت تأثير التعاليم التي تلقنها اياها أمها — حتى يقدم لها جعلاً أو ضريبة وقد يتأخر ذلك الى الصباح ، فيقدم الزوج الى الفتاة ما نعرفه بهدية الصباح التي ليست في الحقيقة مهراً جديداً ولكنها دليل يقدمه الزوج اعترافاً بعفاف زوجته وطهرها

جدول يبين العلاقة بين التزاوج وبين سن المترجيين والمتزوجات في مصر

الذكور			الأناث		
السن	التعداد	غير المتزوجين	المتزوجون	التعداد	غير المتزوجات
١٩—١٥	٦٦٩,٨٠٠	٦٤٢,٠٩٨	٢٤,٥١٤	٦٠٢,٨٩٢	٣٧٤,٤٦٦
٢٩—٢٠	١,٠٧٦,٥٣٠	١,٠٤٥,٥١٣	٣١,٠١٧	١,٠٢٠,٧٣٤	٩٣,٤٦٠
٣٩—٣٠	٩٦٩,٠٣٣	٧١,٣٢٢	٧٦١,٧١٠	٩٩٤,١١٧	١٥,٩٧٩
٦٠ وما فوق	٤٢٣,٢٨٤	٤,٩٩٥	٣٦٠,٦٥١	٩٤١,٠٥٨	٣,٨٤٣
المجموع	٦,٩٤٥,٨٥٧			٧,٠٠٦,٤٠٧	

النتائج (١) ان عدد الاناث من المصريين يزيد بنحو ٥٢ الف عن عدد الذكور

(٢) النسبة المئوية لغير المتزوجين بعد سن الستين هي ١٢ ٪

(٣) النسبة المئوية لغير المتزوجات بعد سن الستين ٢ ٪

وهذا يؤيد انتشار الزواج (في مصر)

(٤) السن الذي يكثر فيه تزوج الفتيات هو بين ٢٩,٢٠

(٥) السن الذي يكثر فيه عدد المتزوجين هو بين ٣٩,٣٠

(٦) عدد المتزوجين من (الشبان) بين ٢٩,٢٠ يقدر بنصف عددهم في بند (٥)

جدول يبين احصاء المتزوجين (المساكين) في مصر ، مع بيان المتزوجين
بزوجة واحدة او اكثر ، ثم النسبة المئوية لتعدد الزوجات

المحافظة او المديرية	عدد المتزوجين	ذوو زوجة واحدة	المتزوجون باكثر من زوجة	النسبة المئوية لتعدد الزوجات
جرجا	١٦١٦١٥٧	١٥٦٦٩٨٩	٤١٦٨	٢٠٥٨
القنال	٢١٦٦٥٨	٢١٦٠٩٥	٥٦٣	٢٠٥٩
اسيوط	١٧٦٦٨١٩	١٧٢٦٢١٠	٤٦٠٩	٢٦٠
اسكندرية	٨٩٦٧٧٢	٨٦٦٩٤٦	٢٨٢٦	٣٦١٤
المنيا	١٣٩٦٥٨٦	١٣٤٦٩٧٣	٤٦٦١٣	٣٦٣١
اقسام الحدود	٣٦٥٧٨	٣٦٤٤١	١٣٧	٣٦٨٢
القاهرة	١٨١٦٤٨٦	١٧٤٦٥٣٠	٦٦٩٥٦	٣٦٨٣
قنا	١٦٣٦٠٤٠	١٥٦٦٧٦٩	٦٢٧١	٣٦٨٤
بني سويف	٩٧٦٢٥٩	٩٣٦٢٤٢	٤٠١٧	٤٦١٣
اسوان	٤٥٦٣٠٩	٤٣٦٣٨٤	١٩٢٥	٤٦٢٥
الصحراء الجنوبية	٥٦٠٤٨	٤٦٨٣٣	٢١٥	٤٦٢٥
الجيزة	١٢١٦٢٥٣	١١٥٦٨٢٧	٥٤٢٦	٤٦٤٧
المنوفية	٢١٧٦٤٨٨	٢٠٧٦٥٤٣	٥٩٤٥	٤٦٥٧
القليوبية	١١٣٦٤٩٦	١٠٨٦٠٠٣	٥٤٩٣	٤٦٨٤
الفيوم	١٠٨٦٨٨١	١٠٢٦٩٥٩	٥٩١٢	٥٦٤٣
الغربية	٣٢٠٦١٦٠	٢٩٩٦٥٤٨	٢٠٦٦١٢	٦٦٤٣
الدقهلية	١٩٦٦٥٢٦	١٨٥٦٠٤٨	١١٦٤٧٨	٦٦٨٦
الشرقية	١٨٦٦٢٥٨	١٧٢٦٩٠٧	١٣٦٣٥١	٧٦١٦
الصحراء الغربية	١٠٦٠٦٠	٩٦٣٢٨	٧٣٢	٧٦٢٧
البحيرة	١٦٨٦٨٤٨	١٥٥٦٩٨١	١٣٦٨٦٧	٧٦٦٢

جملة عمومية | ٢٥٤٢٦٨١٨ | ٢٤٢٠٣٦٢ | ١٢٢٦٤٥٦ | ٤٦٨١
(نتائج) ١ - نسبة تعدد الزوجات اقل في المدن لاسيما الساحلية وكذلك في المناطق الفقيرة

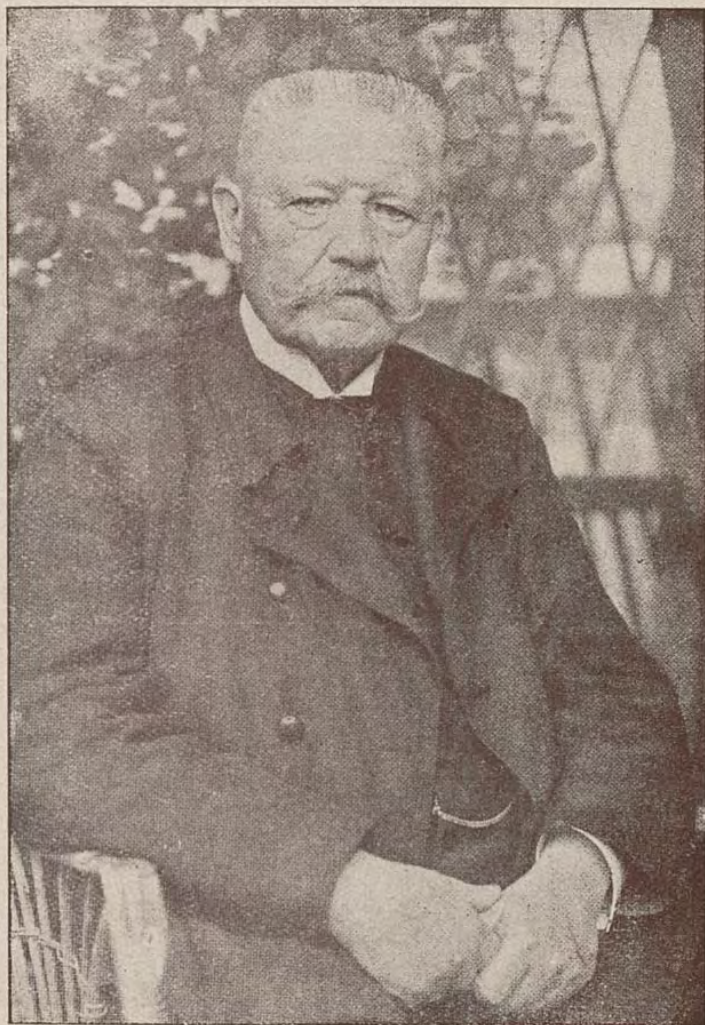
٢ - » » » اكبر في المناطق الصحراوية

(وهذه النتائج تؤيد النظريات التي ذكرت بالمقال) مأخوذ عن احصاء سنة ١٩٢٧

(للبحث بقية)

احمد عطية الله

مدرس التربية بمعلمات حلوان



هندنبرج
عملاق الحرب والسلام

هندنبرج

عملاق الحرب والسلام

خطب مسيو كايو منذ أسابيع ، وهو كما تعلم وزير فرنسا المالي ، فقال بان فرنسا في مركز مالي خطير وان ميزانية الدولة الفرنسية ستصادف في آخر السنة الحالية عجزاً عظيماً . فاذا كانت هذه هي حالة فرنسا التي تعتبر خزانة الذهب في العالم بعد الولايات المتحدة الاميركية ، فكيف ببقية الدول ، وعلى الاخص المانيا ، بعد ان توقفت عن دفع التعويضات وبعد ان نشطت فيها روح الاشتراكية نشاطاً استطاع به زعيمها «هتler» ان ينافس رجل المانيا العظيم المارشال «بول فون هندنبرج» . لعل الناس لا يعرفون عن هذا الرجل العظيم الا انه رسول الحرب والجلاد ، ولعلمهم فوق ذلك يرون فيه رجلاً لم يمرّ على مواجهة الحكم المدني في بلاد كالمانيا أكلت الحرب فيها الاخضر واليابس ، واحتلتها الدول بمعاهدة «فرساي» خمسة عشر عاماً وتركت اهلها في احط دركات الفقر والخصاصة

انتخب الفيلد مارشال هندنبرج رئيساً للجمهورية الالمانية في ٢٦ أبريل ١٩٢٥ . واليوم وهو في الخامسة بعد الثمانين من عمره ، لا يكتفي بان يكون رئيساً للجمهورية ، بل يأخذ بضلع كبير في معالجة أمور المانيا الداخلية والخارجية . وعلى الرغم من ان الهرم قد كتب على جبين ذلك الرجل العظيم بعض آياته ، كالتخلف قليل في اعلى كتفيه ، وتقوُّس في رجله لا يكاد يراه الا المدقق ، فانه لا يزال عملاقاً كما كان ايام الحرب ، طويل القامة ، عظيم الهامة ، عبوساً لا يتسم . وعلى الرغم من انه لم يمرّ مرة منذ أن وضعت الحرب العظمى اوزارها في بزه الحربية ، فانه لا يزال يلوح في كل جزء من اجزاء جسمه ، وكل لمحة من لمحات خلقه ونفسيته ، هندنبرج القائد العام لجيوش المانيا ايام الحرب ، ويد القيصر النماني . ثم انه لا يزال هو بذاته هندنبرج الهرم العجوز . لم يتغير فيه شيء ، منذ عقد الهدنة سنة ١٩١٨ حتى الآن . عقد ونصف عقد من السنين المثقلة بالهموم ، المليئة بالاحزان والخاوف ، المحفوفة بالخطار والالو هام ليست كافية لان تغير في هندنبرج شيئاً ما . فهو اليوم ، وقد كاد يحتّم منتصف العقد التاسع من العمر ، كما كان في ختام العقد السابع من حياته

نعم لم يتغير هندنبرج . ولكن العالم كله قد تغير . حتى الفكرة التي قامت من حوله في اذهان اهل أوروبا قد تغيرت تغيراً كلياً . فقد خيل الى اوروبا لما انتخب عملاق الحرب ، ورجل الامبراطورية العسكرية ، رئيساً للجمهورية ، ان الحرب لا بد واقعة ، وان انتخاب الرجل انتصار للحزب العسكري الامبراطوري . ولكن هندنبرج لم يكن ليعرف القيصر على انه غليوم هو هنزلرن بل كان يعرفه اولاً على انه قيصر المانيا . اما وقد زال القيصر وزالت القيصرية ، فان المانيا باقية لا تزول . و المانيا دائماً فوق الجميع

اذا قلت هندنبرج ، فكأنك كنت تقول العسكرية الالمانية . كان اسمه علم على الروح العسكرية وعلى الولاء المفرط لملاك الحرب غليوم الثاني . فلما وضعت الحرب العالمية أوزارها بعد أن تغلب الحزب الاشتراكي الالمانى مغترباً بوعود ولسن ، ظهر اسم هندنبرج بعد اسم الامبراطور مباشرة في الجدول الاسود المحتوي على اسماء مجرمي الحرب الذين اراد الحلفاء ان يحاكموهم . لم يسبقه في الترتيب الا صاحب الجلالة الامبراطورية

في ختام سنة ١٩١٤ كان هندنبرج في الاستيداع مقيماً في بيته بهانوثر . فلما اعلنت الحرب اخذ على عاتقه قتال الروسيين في الميدان الشرقي . ولقد ظن العالم بعدئذ ان حياته الحربية قد اختتمت في سنة ١٩١٨ ، بعد ان قاد جيوش المانيا مقاومة بها اكثر من خمس وعشرين دولة من دولات الارض بما لديها من معدات ومستعمرات وموارد . في حين ان المانيا كانت محصورة من جميع جهاتها برّاً وبحراً وجواً ، واحاط بها الاعداء من كل جانب كما يحيط السوار بالمعصم

فلا عجب اذا تلبدت سحب الشك والخوف في سماء اوروبا عندما رُشّح عملاق الحرب ليكون رئيساً للجمهورية الالمانية . فقد رأوا في المانيا الجمهورية وعلى رأسها هندنبرج ان خطراً يهدد سلام اوروبا المنهكة المكدودة ، وتخيلوا ان صولجان العسكرية الالمانية اخذ يرفع رأسه الخوف في جو الدنيا مرة اخرى . ورأى آخرون ان المانيا التي عمدت الى النظام الجمهوري زهداً في العسكرية والحرب وبغضاً في من كانوا سبباً في بث هذه الروح ، سوف تنسى مشقاتها دراكاً وتجنح بعد قليل الى فكرة الانتقام من الحلفاء ، فتدق الساعة ، وتأكل المدينة ناراً الحروب

وكان من اول المؤيدين لهندنبرج في الانتخاب الاول الاميرال ثون « تريز » منظم حرب الغواصات ، ورمز الروح العسكرية الالمانية ، فوق البحار ، كما كان هندنبرج رمزها فوق الارض . ولا شبهة في ان « هندنبرج » يؤيده « تريز » لا بد من ان يتركاً في نفسية الشعب الالمانى اثرأ ، يملأ شعوب الاحلاف وهماً وشكاً . حتى لقد اعتقد كل المشتغلين بالسياسة الدولية في انجلترا وفرنسا وايطاليا وامريكا ، أن ترشيح هندنبرج خطوة اولى لرجوع

آلهو هنزلرن الى اعتلاء عرش المانيا، او على الاقل لتنصيب اسرة اخرى من اسر المانيا الملكية ولقد اتفق الرأي على هذا . ففاضت به صفحات الجرائد والمجلات ، وترددت به اعواد المنابر وجنابات المجالس النيابية. ولما اخذ العالم الدهول بعد ان هزم المارشال هندنبرج منافسهُ الدكتور «ولهم مركس» وهو احد غلاة الجمهوريين، وواجه العالم كله رئيساً ثانياً للجمهورية الالمانية ، اخذ الناس في جميع اقطار الارض وعلى رأسهم جمهوريو المانيا نفسها ينعون الحرية ومضوا في رثاء طويل يندبون به آخر ظل للديمقراطية فوق الارض

اما اذا قارنت بين النعمة التي ضربت عليها الصحف والمجلات في ذلك الحين ، بما تكتبهُ الآن ، لا أخذك العجب . لم تؤيد صحيفة واحدة من صحف الدنيا المارشال هندنبرج سنة ١٩٢٥ ولا تكاد تجد الآن صحيفة واحدة في ركن من اركان الدنيا الاربعة ، لا تؤيد المارشال هندنبرج سنة ١٩٣٢ . والواقع ان انتصار هندنبرج على الدنيا في ميدان السياسة المدنية ، يطفى لمعان ذلك النجم الذي تألق في سمائه ابان حياته الحربية

كتبت احدي صحف امريكا العظمى عندما اعلن انتصاره سنة ١٩٢٥ ما يأتي :

« نجح هندنبرج ، وهزم العسكريون الالمانيون ، جمهوري المانيا . لقد تركت المانيا الجديد لتتظر الى القديم » . وكان هذا احسن تعبير عما انطوت عليه قلوب الجمهوريين في المانيا وكل محنك بالسياسة الدولية في روما وباريس ونيويورك ولندن

وقالت جريدة اميركية اخرى : « لقد قالت المانيا كلمتها . وبعد ان خيل للعالم ان المانيا قد انتفعت بالدرس الذي تلقته بالهزيمة في ميدان الحرب وبعدت عن فكرة اخضاع العالم بالقوة أخذ رأس التين المزعج يرتفع مرة اخرى بعد ان فاز في المانيا زعيمها الحربي واوسع رجال العالم مطامع ، ليكون رئيساً للجمهورية المانيا »

ولم يكن الشعور في اوربا اذافوزه أقل منه في امريكا . فان مسيو « بريان » وزير فرنسا المعروف - وكان لما بلغته اخبار انتصار هندنبرج ، وكان قد اخذ يعمل في نطاق واسع ليعيد السلام الى اوربا وبقية على قواعد ثابتة - هز رأسه في تشاؤم قائلاً ان اوربا سوف تضطر الى الرجوع مرة اخرى الى السياسة القديمة ، سياسة السلم المسلح ، الذي لا يخرج في مدلوله عن الاستعداد للحرب بأوسع ما يمكن ان يصل اليه جهد الدول ، لتكون على اهبة لها تخوض غمراتها في طرفة عين وقالت جريدة فرنسية شبه رسمية - ان انتخاب هندنبرج رئيساً للجمهورية في المانيا ، ليس الا تحدياً صريحاً للحلفاء ، بل ولا امريكا وأوربا كلها » - « والحقيقة ان ليس نبوغ هذا الشيخ الذي عاد الى الميدان من عزلته في «هنوفر» هو الذي يزعجنا . انها قوى الرجعية والانتقام الوحشي » ، هي التي نراها محتفية وراءه ، تعمل على تعجيل الساعة التي تصبح فيها المانيا قادرة على حمل السلاح وخوض غمرات الحرب مرة اخرى . وكذلك كان الحال في ايطاليا .

فان فوز هندنبرج للرئاسة ، ومن ورائه شبح فون « تريتز » ملأ إيطاليا غمًا وفزعًا . اما كيف انقلبت آية الافكار في أوروبا على اثر انتخابه من امل في السلام العالمي ، الى عقيدة راسخة في احتمال وقوع الحرب في كل أزمة دولية ، فلا ادل عليه من كلمات تضمنها مقال لجريدة التيمس : « نريد ان نذكر المعجبين بشخصية هندنبرج أن هزيمة الدكتور ماركس ، ليس معناها ان المارشال « فوش » قد خرج من الميدان »

مع هذا ، وفي أول دورة رئاسة هندنبرج ، لم ترتفع إلا بضعة اصوات ظهرت خافتة ضعيفة في المانيا وممالك اخرى ، تحاول ان تخفف من وطأة الحادث وتهديء شعور الفزع والخوف وقلة الثقة الذي سيطر على النفوس بعد فوز عملاق الحرب ليكون على رأس جمهورية السلام . ولقد دأبوا بهذا على انهم اعرف بطبيعة المارشال على رأس جمهورية المانيا ، من كل اهل اوربا وامريكا ، وانهم كانوا اصح حكاما على ما سوف يتمخض عنه انتخاب هندنبرج رئيساً للجمهورية الالمانية

قالوا ان الشيخ العظيم قد اقسم يمين الاخلاص للجمهورية فاهماً ما يقول ، عارفاً بما يحوم حوله من الشكوك والالوهام قانعا بان الحرب لا يعقبها الا السلام ، لتعمر المانيا ويعمر العالم . اما وانه اقسم فانه لا يحنث بقسمه . وانه سوف يخدم الجمهورية بولاء لا يقل عن ولائه للامبراطورية تحت لواء هو هنزلرن . اعتقدوا بان هندنبرج لن يعمل على اعادة الملكية في المانيا . قالوا احترسوا للذين اخذهم الفزع . وقالوا انتظروا للذين شكوا . ومضت اوربا وامريكا على حذر واحتراس ، وانتظر الناس ما سوف تنجلي عنه الايام

ولم يتوان المارشال الكبير في ان يحقق نظر الذين حاولوا ان يطمئنوا ويعيدوا الثقة بالمانيا . على ان متطري الحزب الملكي في المانيا قد اظهروا الغضب والحزن . ذلك لانهم رأوا ان هندنبرج اخذ يعمل على تثبيت قواعد الجمهورية ، بدل ان يضع تحت اساسها الالغام ، كما ظنوا انه سوف يفعل . لم يظهر بمظهر الملكي المتطرف ولا المعتدل . بل لم يظهر على تصرفاته اقل ظاهرة تدل على تأثره بالروح الملكية ، وهو على رأس الجمهورية . وأخذت اسود الحرب تزار من حول سيدها ، حتى قال الكونت « رثنلتو » النساري الروح الملتهب المزاج ، ان موقف هندنبرج غير مفهوم وغير محبوب من متطري الوطنيين . كل هذا والاسد الاعظم رابض في مكانه لا يتحرك ، عبوس كما كان ، ثابت كما عرف في ميدان القتال ، لا يفتر لغره عن ابتسامته ، ولا ترسل عيناه بنظرة غضب الكل امامه سواء والمانيا فوق الجميع

قال الكونت « وستارب » يوماً للمارشال هندنبرج ان مما يملؤه حزناً ان يراه يضحي بآمال الحزب الملكي الذي يدين هندنبرج بتأييده في الانتخاب لرئاسة الجمهورية ، وان يقضي على كل الآمال التي عقدها متطرو الوطنيين على انتخابه . وظل هندنبرج في عبوسه ، وفي

وصمته ايضاً . وانصرف الكونت من غير ان يحظى من عملاق الحرب بكلمة ولا بنظرة لم يعر « رقتلو » التفاتاً ولا اقام لكونت « وستارب » وزناً ، ولا حفل بما التف حولهما من رجال الحرب والرجعية . ظل صامتاً حتى قيل له في صراحة انه اذا لم يعمل وهو رئيس للجمهورية على اعادة الملكية الى المانيا فانه سوف يعتبر اكثر من خائن لوطنه ، وللآلاف المؤلفة من الالمانيين الذين اقترعوا له في الانتخاب . ولكن اسد المانيا ان احتمل كل شيء ، ان احتمل عبء الشيخوخة وآلام الهرم وان واجه شك العالم فيه وريبتهم في صحة ما اقسم به على ملاء من الدنيا ، فانه لا يحتمل الاهانة تنال من كرامته . فلما رمي بالخيانة تحركت فيه نخوة العسكرية ، فعاقب الذين رموه بها وفيهم الكونت والبرنس والمركيز ، وفيهم الشريف والضيع ، كما يعاقب المارشال هندنبرج اصغر ضابط في احقر فرقة من فرقته ، لا في ميدان القتال ، بل في ميدان الاستعراض . فلم يكن في ذلك رحيماً ، ولكنه كان عظيماً في عقابه ، كما كان عظيماً في صمته وتسامحه ، ولكن في كل ما بعد عن كرامته ، وانفصل عن شرفه . اذا اقسم هندنبرج ، فقد اقسم . أما وقد اقسم فلا بد له من ان يقدر القسم . لهذا مضى في سبيله يعمل الواجب ويؤيد الحق في منصب لم يسع هو اليه مؤيداً من المانيا كلها . لم يقل ان رئاسة الجمهورية لي ، بل قيل له هي لك . فقبلها عالماً ما ينطوي وراءها من هموم وآلام . ولكن الواجب كان امامه ، وألمانيا على حافة الهاوية يهددها الخراب والفقر ، وفرنسا تحتل اغنى بقاعها ، وكل مواردها في يد الاحلاف ، الذين غرروا بالاشتراكيين من اهلها فضربوا الجيش من الخلف في ساعة كان هندنبرج لا يفكر إلا في المقاومة والهجوم ، ان لم يكن في الانتصار ! مضى في سبيله من غير ان يفكر إلا في المانيا ، أما في شخصه فلا . لأن هندنبرج ليس فرداً بل هو قطعة من المانيا ، وجزء منها لا يتجزأ

لم يحدث في اوربا من حدث بعد الحرب ، وكان من اثره ان يحجب الامل في السلام ، بقدر ما يقضي على شبح الحرب ، مثل عهد « لوكارنو » . ولقد عمل على نجاحه ثلاثة رجال من افاذا هذا العصر . بريان في فرنسا ، واستن تشمبرلين في انكلترا ، وجوستاف شترزمان في المانيا . ولكن الانسان قد يتخيل ان هندنبرج كان يحفر من وراء العهد هوة يقبره فيها . لان الناس لم يستطيعوا ان يدركوا ان آله الحرب ، يمكن ان ينقلب بين عشية وضحاها من اكبر المؤيدين للروح التي املت على اوربا ، بل وعلى العالم كله ، عهد لوكارنو .

لقد خرج هندنبرج من ميدان الحرب ، الى ميدان السلام . واقسم على ان يكون اميناً للجمهورية . اذن فليؤيد رجل المانيا السياسي ، وليعقد عليه كل امل في تقرير مصير المانيا . لهذا أيد « شترزمان » في سياسته التي دعى فيها الى السلام . والحقيقة انه في خلال تلك المعارك

السياسة الكبيرة التي ادارها شترزمان داخل المانيا وخارجها ليعيد حسن التفاهم والسلام في اوربا ، تلك المعارك التي اذوت غصن حياته ربطاً ، كان يعمل معتمداً على الشيخ الكبير والمحارب القديم وهو على رأس الجمهورية الالمانية . لقد رأى بعين السياسي الماهر ان السياسة التي رسمها شترزمان ، خير وسيلة يمكن ان تخدم بها مصالح المانيا الجمهورية . لقد اقتنع هندنبرج بهذا . وما دام قد اقتنع فلا بد من ان ينفذ في ميدان السياسة بنفس الروح التي كان ينفذ بها في ميدان الحرب . رماه « جنكرز » بالخيانة ، فصمت . واتهمه « رفرنلو » بملاأة اوربا ، فصابر وصبر . وقال « وستارب » انه شيخ ابله ، فما زاد قطوبه ، ولا تحرك في جسمه عرق واحد بحب الدفاع عن نفسه او الانتقام من اعدائه . ولا عجب في ان يقول « شترزمان » بعد ان فاز في سياسته فدخلت المانيا عصبة الامم ، وعقد عهد لوكارنو ، وعادت الثقة بنيات المانيا المسالمة نحو اوربا والعالم ، ان هندنبرج هو الرمز القائم اليوم على تجديد المانيا المنهكة

لما قال شترزمان قولته هذه كان المارشال في حدود الثمانين من عمره . وبعد عامين مات شترزمان ، الذي ضحى بحياته وأمنه وهدوئه في سبيل الاحتفاظ بالسلام يرفرف على ربوع اوربا ، وسئل هندنبرج وهو في الثانية بعد الثمانين من عمره هل ينوي ان يشيع وفاة السياسي العظيم . قال سائله « سنهيء لك سيارة » . اما المحارب القديم فقال « سأمشي على قديمي » . ومشى عملاق الحرب ليودع رسول السلام الوداع الاخير . اخترق شارع ولهم حيث كان يعمل شترزمان ليل نهار لنجدة المانيا ، وقبعته في يده ، محمداً بعينه الحزينتين في النعش الذي يضم الجثمان العزيز الطاهر ، وأمر بحمله على الاعناق . لقد اخرست هذه الفعلة مئات من السنة النقاد ، وأسكنت مئات اخرى من الحساد والشامتين . ولأنهم عرفوا أخيراً أية وقفة يقف هندنبرج من الديمقراطية والملوكية معاً

بعد ان شيع هندنبرج نعش شترزمان الى مقره الاخير ، تصرف في حادثتين تصرفاً قضى على كل شك كان يمكن ان يكون باقياً في نفوس بعض المتريين كانت احداهما هتك الاسرار التي اختفت وراء الدعوة التي دعاها الرجعي « هوجنبرج » ضد مشروع « يونغ » في الاستفتاء العام . فقد اغضب تصرف هذا الرجعي رئيس المانيا الجمهورية ، ففضح اسراراً اخرجت من يد هوجنبرج وحزبه آفاقاً من الاصوات في الاستفتاء العام ، وزاد هذا العمل الجمهورية الالمانية التي حاولوا ان يلغموها اساسها ثباتاً واحتراماً . ثم وقع هندنبرج الوثيقة التي اعتبر بها مشروع يونغ قانوناً في المانيا ، وشفع هذا بتصريح جاء في نهايته : « لقد قت بواجبي نحو وطني ، من غير ان افكر في نفسي » . هنا عرف العالم هندنبرج على حقيقته . هنا عرف الناس من هو عملاق الحرب والسلام [ابن طفيل]

التعاون والاقتصاد الزراعي

لما رأينا ما للحركة التعاونية من الشأن الخطير في مصر وما ينتظر لها من عظيم الاثر في الحياة الاقتصادية والاجتماعية العامة افردنا هذا الباب لنشر مقالات ورسائل عن كل ما يهم الجمعيات التعاونية واعضاءها ويساعد على نشر التعاون وتقدمه . وقلم التحرير ينتهز هذه الفرصة ليعرب عن ترحيبه بنشر ما يرسله اليه اعضاء الجمعيات التعاونية من رسائل واخبار . وخير الكلام ما قل ودل

الضائقة الاقتصادية والتعاون والعالم الجديد

بقلم السير اصمحر مراد البكري

هناك تشابه في كثير من النواحي ، بالرغم من اختلاف الاحوال ، بين ضائقة سنة ١٩٠٧ والضايقة الحالية . فكما ان ضائقة سنة ١٩٠٧ أدت الى التفكير في مشاريع اقتصادية كان يقصدها تخفيف الضيق والارتباك العامين فان الضائقة الحالية كانت ولم تزل مصدراً خصباً لمجموعة لا يستهان بها من المشروعات العامة التي عادت على البلاد بأجل الفوائد وأعظم المزايا في وقت عصيب فقدت فيه الثقة بين الناس واطلم المستقبل للجميع وتهددت زراعة البلاد بالكساد والبوار من جراء هبوط الاسعار وتدهور النقد وتضخم الانتاج . فاذا ذكرنا التعاون فلنذكر المشروع القومي الذي جاء وليداً لأزمة سنة ١٩٠٧ ونبتت فكرته وترعرعت الى أن وضع حجر اساسه بتشريع سنة ١٩٢٣ وهو أول تشريع تعاوني عرفته مصر . وقد صحب هذا التشريع انشاء قسم خاص للتعاون بوزارة الزراعة لتعهد هذه الحركة والاشراف عليها . وفي سنة ١٩٢٧ صدر التشريع الثاني الذي بمقتضاه عُدلت أنظمة الجمعيات التي كانت مؤسسة بحسب قانون سنة ١٩٢٣ وقد كان تدرج عدد الجمعيات التعاونية كالآتي : —

٢١٧	جمعية	في سنة ١٩٢٩	٩٣١	جمعية	في سنة ١٩٢٥
٥١٤	»	١٩٣٠	١٥٠	»	١٩٢٦
٥٣٩	»	١٩٣١	١٤٧	»	١٩٢٧
			١٦٢	»	١٩٢٨

وبمقارنة عدد الجمعيات في كل من السنوات الثلاث الاخيرة نرى ان سنة ١٩٣٠ امتازت بعدد من الجمعيات يكاد يكون ضعف عددها في سنة ١٩٢٩ وتعليل ذلك أن سنة ١٩٣٠ كانت مشبعة ببيادر الضائقة الاقتصادية ولما شعر بها الفلاح وبما تحبئه له من الضيق والشقاء كان أول من هرع الى التعاون ليدرأ عنه شر غائلة الازمة فتطورت الحركة التعاونية بفضل

الضائقة تطوراً لم يعهد له مثيل كما يتبين من الجدول الآتي : —

السنة	١٩٢٩	١٩٣٠	١٩٣١
عدد الجمعيات	٢١٧	٥١٤	٥٣٩
عدد الاعضاء	٢٢٣٣٦	٤٤٠٠٠	٥٤٠٠٠
رأس المال المدفوع	٨٠٩٨٥ ج. م.	١٣٣٠٠٠ ج. م.	١٥٤٠٠٠ ج. م.
الاحتياطي	٩٥٥٨ ج. م.	١٣٠٠٠ ج. م.	١٨٠٠٠ ج. م.
ارباح	١١٦٨٠ ج. م.	—	...
القروض التعاونية	١٢٧٦٩٤ ج. م.	٢٧٣٨٠٥ ج. م.	...

وان ما رأيناه من ضعف الحركة في سنة ١٩٣١ كان نتيجة مباشرة لاشتداد وطأة الازمة وفقدان الثقة العام ، إلا أنه بالرغم من كل ذلك فإن عدد الجمعيات زاد بمقدار ٢٥ جمعية وعدد الاعضاء بمقدار ١٠٠٠٠ عضواً ورأس المال المدفوع بمقدار ٢١٠٠٠ ج. م. والاحتياطي بمقدار ٥٠٠٠ ج. م. (وهذه الزيادة أكبر من زيادة الاحتياطي في سنة ١٩٣٠ عما كان عليه في سنة ١٩٢٩) ، كذلك طرأت على الحركة التعاونية في سنة ١٩٣١ تطورات ذات صبغة لم تكن معروفة في السنين السابقة وأهم هذه المظاهر الآتي : —

أولاً : اظهر كثير من الجمعيات ميلاً الى الاخذ بالمشروعات الجديدة الخاصة بالصناعات الزراعية مثل صناعة الالبان وتربية النحل ودودة القز كما ان عدداً كبيراً من الجمعيات أظهر اهتماماً جدياً باقتناء الآلات الخاصة بدراسة الارض وتبييضه وبتصريف المحصولات الزراعية المختلفة تصريفاً تعاونياً . ثانياً : أوجدت الضائقة الاقتصادية بواعت قوية لاشتراك الجمعيات بعضها مع بعض في الاعمال التي تعود عليها بالنفع المشترك . ثالثاً : من بين تلك المظاهر التي اوجدتها الضائقة تقوية الرغبة في الاطلاع والدراسة لدى اعضاء الجمعيات مما حدا بقسم التعاون الى حث الجمعيات على اقتناء مكاتب تضم عدداً كبيراً من المؤلفات النافعة

﴿ اثر الضائقة في اعمال الجمعيات المالية ﴾ ظهر هذا الاثر بأجلى مظهر في حركة التحصيل والتسديد فإنه لم يمضِ النصف الاول من سنة ١٩٣١ الا وكانت ١٥٤ جمعية قد سددت قروضها عن سنة ١٩٣٠ تسديداً كاملاً و ٨٥ جمعية سددت تسديداً جزئياً من بين ٢٥١ جمعية مقترضة . وقد بلغ ما سدد ٢٠٣ ٨٦٠ جنيهاً مصرياً من اصل قدره ٢٨٣ ٦٨٢ جنيهاً مصرياً . وقد صرح لبنك مصر في خلال سنة ١٩٣١ باقراض الجمعيات التي سددت أكثر من نصف ما عليها فأعشت هذه القروض الحركة التعاونية خلال تلك السنة العسيرة وبلغ مقدار الاعتمادات التي صرح بها البنك ١٨٨ ١٨٦ جنيهاً مصرياً موزعة على ٢٨٥ جمعية . وقد اوقفت حركة الاقراض في شهر يوليو سنة ١٩٣١ بتأسيس بنك التسليف الزراعي المصري . (عن

مقال الدكتور ابراهيم رشاد مدير قسم التعاون في صحيفة التعاون عدد يناير سنة ١٩٣٢ (**بنك التسليف الزراعي المصري**) تنتج مصر سنوياً من المحاصيل الزراعية ما قيمته على وجه التقريب ١٢٠ مليوناً من الجنيهات المصرية لذلك كانت نفقات الانتاج وكيفية الحصول عليها من اهم المسائل الحيوية التي اولتها الحكومة دائماً شطراً عظيماً من عنايتها . فقد قامت منذ سنة ١٨٩٤ بسلسلة طويلة من التجارب لتنظيم كيفية حصول الفلاح على نفقات زراعته بقصد انتشاله من براثن المرايين والتجار الجشعين الذين يرهقونه إما ارهاق بما يفرضون عليه من الفوائد الباهظة والاسعار التي تكاد لا تفي بتغطية نفقات الزراعة . فتارة كانت تقوم الحكومة مباشرة بتسليف الزراع وتارة كانت تكلف البنوك بالقيام بهذه العملية — بالنيابة عنها وفي كثير من الاحيان كانت تتبع كلتا الطريقتين ، الا ان تلك الجهود التي بذلت ليحصل الفلاح على ربح معقول من زراعته لم تتعد كونها مجموعة من التجارب الدقيقة — كان الغرض منها تعرف مواطن الضعف فيما يفشل من الانظمة ومواطن القوة فيما ينجح منها بقصد الوصول الى نظام مدعّم يستند الى أساس متين يضمن للفلاح بصفة مستمرة الحصول على ما يلزمه من مال بأقل الفوائد واحسن الشروط سواء أكان لنفقات زراعته او مقابل رهن محاصيله حتى تحين الفرص لبيعها بأثمان معقولة

وقد استمرت الحكومة في اتباع خطة التجارب المشار اليها حتى انضجت اخيراً النظام المنشود فأسس بنك التسليف الزراعي المصري برأس مال قدره مليون جنيه ا كتبت الحكومة بنصفه وضمنت له فيما عدا ذلك الحصول على قروض مجموع قيمتها ستة ملايين من الجنيهات فتقدم له ثلاثة ملايين جنيه في السنة الاولى ومليون جنيه في كل من السنة الثانية والسنة الثالثة والسنة الرابعة من تاريخ تأسيسه ولا تتقاضى فائدة تزيد عن $\frac{2}{3} \%$ عن هذه القروض اما النصف الباقي من رأس مال البنك فقد ا كتبت به معظم البنوك الكبيرة التي بالقطر وفي مقدمتها البنك الاهلي الذي ا كتبت بمبلغ ٢٠٠.٠٠٠ جنيه وبنك مصر بمبلغ ١٠٠.٠٠٠ جنيه والبنك العقاري المبلغ ١٠٠.٠٠٠ جنيه وبنك درسدن بمبلغ ٢٣.٥٠٠ جنيه

ولقد ا وضحت المادة الثانية من العقد الابتدائي للبنك الغرض من نشائه وهذا نصها « يكون غرض الشركة التسليف الزراعي وعلى وجه الخصوص العمليات الآتي ذكرها »
اولاً — عمليات لاجل قصير لا يتجاوز اربعة عشر شهراً بضمانة حق الامتياز الوارد في المرسوم بقانون رقم ٥٠ لسنة ١٩٣٠ وبالشروط المقررة فيه . (ا) تقديم سلفيات للجمعيات التعاونية الخاضعة للقانون رقم ٢٣ لسنة ١٩٢٧ ولصغار ملاك الاراضي الزراعية لنفقات الزراعة والحصاد . (ب) تقديم سلفيات على الحاصلات للجمعيات التعاونية سالفة الذكر ولصغار المزارعين (ج) بيع الاسمدة والبزور لاجل جميع المزارعين على السواء

ثانياً — عمليات لمدة لا تتجاوز عشرين سنة (١) تقديم سلفيات لشراء الآلات الزراعية والماشية
(ب) تقديم سلفيات لأصلاح الاراضي الزراعية بواسطة حفر المساقى والترع والمصارف .
وفيما عدا الاحوال الاستثنائية ، يكون هذان النوعان من التسليف مقصورين على صغار
الملاك او جماعاتهم وعلى الجمعيات التعاونية المشار اليها ، للمساعدة على تكوينها وانتشارها
ثالثاً — عمليات لمدة لا تتجاوز عشرين سنة . تقديم تسليف لاستغلال ولاصلاح الاراضي
التي يمكن ان تفيدها اعمال الري والصرف العامة

رابعاً — تمويل المنشآت التي تعمل لمنفعة الزراعة — بقصد المساعدة على ايجاد هذه
المنشآت وانتشارها وتكون السلفيات لأجل يزيد على اربعة عشر شهراً — عدا ما يتعلق
من هذه السلفيات بجماعات صغار ملاك الاراضي الزراعية والجمعيات التعاونية — مضمونة
بتسجيل رهن عقاري له الدرجة الاولى الا اذا قرر مجلس الادارة بصفة استثنائية غير ذلك
وكان الفرق بين قيمة العقار المرهون ومبلغ الرهن الاول يسمح بتسجيل رهن ثان
هذا وقد صرّح رئيس مجلس الوزراء في جلسة مجلس النواب المنعقدة في ٧ يولييه سنة
١٩٣١ بأن بنك التسليف الزراعي سيصبح البنك التعاوني الرئيسي متى انتشرت الجمعيات
التعاونية وقويت . وتمهيداً لذلك خص البنك هذه الجمعيات بمزايا عديدة تلخص فيما يأتي :
اولاً — ليس هناك الآن حد معين للاعتماد التعاوني الحكومي كما كان من قبل عند
ما كانت الجمعيات تصرف سلفيات من بنك مصر وكان الاعتماد المذكور ٣٥٠٠٠٠ جنيه
ثانياً — يتقاضى البنك فائدة قدرها ٠.٥٪ من الجمعيات التعاونية بخلاف الافراد فانه
يتقاضى منهم فائدة قدرها ٠.٧٪

ثالثاً — يعد البنك الجمعيات بأربعة انواع من السلفيات

(١) سلفيات لجني الاقطان وهي اذا اعطيت للجمعيات تشمل المستأجرين والملاك
بخلاف ما اذا اعطيت للافراد فانها مقصورة على الملاك منهم فقط . (٢) سلفيات برهن اقطان
وهي من حيث المقدار المقدم من اية جمعية تعاونية لا حد لها بينما هي محدودة للافراد بمائة
قنطار . (٣) سلفيات لنفقات الزراعة وتوريد التقاوي والبزور والاسمدة بالاجل . (٤) سلفيات
لمدة سنتين بضمان شخص لشراء مواشي وهي ميزة تتمتع بها الجمعيات التعاونية دون الافراد
رابعاً — يقبل البنك انشاء شون بمقار الجمعيات التعاونية متى توافرت الشروط الاتية :
(١) ان تقدم الجمعية — الشونة بلا اجر (٢) ان يكون مقر الجمعية على مسافة لا تقل
عن خمسة كيلومترات من أي شونة أصلية للبنك (٣) ان تتعهد الجمعية بتشوين ما لا يقل
عن الالف كيس من القطن

خامساً — يقدم البنك للجمعيات التعاونية سلفيات على السمسم والبقول السوداني والمحاصيل

المائة القابلة للتخزين بواقع ٧٥٪ من قيمتها وقت التسليف

ومما سبق ذكره عن بنك التسليف الزراعي يتضح ان هذا البنك وقد اصبحت له ١٣ فرعاً و ٦٣ توكيلاً قد ملاً فراغاً حقيقياً كان يشعر به الجميع وهو لا بد ان يصبح عما قريب قوة يرتكز عليها صرح البلاد الاقتصادي (من مقال للمؤلف نشر له بصحيفة التعاون عدد نوفمبر سنة ١٩٣١)

✽ بعض المظاهر التعاونية التي تخللت سنة ١٩٣١ ✽ حفلت سنة ١٩٣١ بالمعارض والمؤتمرات والاجتماعات التي كان لها شأن عظيم في رفع مستوى الثقافة وحب الاطلاع لدى التعاونيين منها المعرض الزراعي الصناعي الذي كان في مجموعه مدرسة عملية علمية لكل من تأقت نفسه الى الاستزادة من الاطلاع على الاساليب الحديثة زراعية كانت أو صناعية ثم كان الاجتماع التعاوني بسينا جوزي پلاس حيث عرضت اشربة سينماوغرافية فيها نواح كثيرة من حركة التعاون في بريطانيا العظمى ثم بعد ذلك كان اجتماع الجامعة الاميركية حيث ألقى كل من حضرة صاحب المعالي وزير الزراعة وسعادة وزير امريكا المفوض خطبة ضافية في موضوعي الزراعة والتعاون وعرضت اشربة سينماوغرافية جدي بها خصيصاً للمعرض في هذا الاجتماع من مصلحة الزراعة الاميركية وهي تبين الاساليب التعاونية المعمول بها في أميركا لتصريف القطن تصريفاً تعاونياً لمصلحة منتجيهِ . كذلك قامت رابطة مملكة النحل بتنظيم وعقد مؤتمر ومعرض للنحلة في اوائل نوفمبر سنة ١٩٣١ وحضر اجتماعات هذا المؤتمر جمع غفير من اعضاء الجمعيات التعاونية فتعلموا الشيء الكثير عن هذه الصناعة الزراعية واقبلوا على تربية النحل الامر الذي يبشر بانهاض هذه الصناعة الزراعية وجعلها مصدراً عظيماً للثروة العامة على أيدي التعاونيين

✽ المشروعات التعاونية ✽ كان من بين النتائج المباشرة للمعرض الزراعي الصناعي أن اتجه نظر الجمعيات التعاونية الى نواح عديدة من الانتاج لم تكن من قبل موضع اية عناية مثل صناعات الالبان والمربيات والمحفوظات ووسائل تحضير وتصريف المحصولات الزراعية الامر الذي جعل روح النشاط تدب في الجمعيات مذ درست مشروعات جديدة من هذا النوع وفعلاً اقدم عدد من الجمعيات على تنفيذ بعضها ومن بين تلك المشروعات صناعة الالبان ودراسة الارز وتبييضه وتصريف المحاصيل . وهناك جمعية تعاونية مركزية في سبيل التأسيس الآن في مديرية الشرقية كما ان الوزارة جادة في انشاء جمعية تعاونية مركزية للتجار بالجملة اغراضها توريد حاجات الجمعيات زراعية كانت أو منزلية وتصريف حاصلاتهم والاهتمام بالصناعات الزراعية . وهذه الجمعية تضم ٤٣١ جمعية مكتبته برأس مال قدره ٢٣٢٥٢ جنهماً مصرياً

✽ نظرة الى المستقبل ✽ أقبلت سنة ١٩٣٢ والازمة العالمية لم تزل بين ظهر انيناطاحنة

شديدة الوطأة إلا أن بالرغم من هذا الضيق الشامل فإن حركة التعاون وهي كما وصفنا تدلنا حقيقة على أن التعاون هو الملجأ الوحيد للنجاح في هذا الوقت العصيب إذ برهنت الاختبارات القاسية على أن الجمعيات التعاونية دون غيرها من الهيئات على اختلاف نحلها من اثبت المنشآت واضمنها لا يعرف الافلاس اليها بآباً فهي خلاص الفلاح ومطمح املة ، فإن لم تعلمنا الضائقة شيئاً آخر فهي قد علمتنا ان المستقبل للتعاون

مقتطفات تعاونية

١ — عن صحيفة التعاون — عدد يناير سنة ١٩٣٢ : —

(١) — الحركة التعاونية في آخر سنة ١٩٣١ بقلم حضرة الدكتور ابراهيم رشاد مدير قسم التعاون : تضمن هذا المقال النفيس شرحاً موجزاً لأعمال الجمعيات التعاونية وكيفية تأثرها بالازمة وخدمات بنك التسليف الزراعي لها وما ينتظر من تقسيط دفع القروض التعاونية على مدة خمسة سنوات

(ب) — حركة التعاون المنزلي في سويسرا بقلم حضرة عبد اللطيف فهمي عامر افندي بقسم التعاون : استهل الكاتب مقاله بنبذة تاريخية عن حركة التعاون المنزلي بسويسرا وكيف انها ترجع الى النصف الاول من القرن التاسع عشر فتأسست اول جمعية منزلية في زيورخ سنة ١٨٥١ وتكوّن اول اتحاد لجمعيات التعاون المنزلي في سويسرا سنة ١٨٩٠ وجعل مركزه بال وكانت اغراضه في بادىء الامر اجتماعية محض الا أنه في سنة ١٨٩٣ ادرجت الاعمال التجارية ضمن هذه الاغراض . ويشير الكاتب الى أنه من مظاهر الحركة التعاونية المنزلية في سويسرا ان البضائع تباع بأثمان تنقص في الغالب عن الاثمان الجارية في السوق وينص عقد تأسيس الجمعيات المنزلية في سويسرا على وجوب اتباع مبدأ البيع نقداً ، ويقوم عدد كبير من هذه الجمعيات بأعمال انتاجية تقدر قيمتها السنوية بحوالي ٦٠ مليون فرنك معظمها منتجات مخايز وتورد الجمعيات ما يقرب من ١٤ ٪ من مجموع ما تستنفده سويسرا من الحاجيات المنزلية

(ج) — الحركة التعاونية والازمة الاقتصادية العالمية بقلم اتنوت ديتل سكرتير اتحاد الجمعيات الاقتصادية الالمانية بيراج : في رأي الكاتب ان الازمة الحالية بما تجره من العواقب السيئة على الانتاج وعلى تبادل البضائع وتوازن العرض والطلب اظهرت وجود اختلال في نظام الحياة الاقتصادية ويرى ان تدفق الذهب الى الولايات المتحدة الاميركية في سنة ١٩٢٨ ادى الى زيادة المضاربة والى ارتفاع اثمان البضائع حتى اذا كان ديسمبر سنة ١٩٣٠ هبطت

السندات الاميركية الى مستوى لا تتحملها اغنى البلاد فقامت البطالة وما يتبعها من مضار. ويرى الكاتب ان الاسباب الاساسية اللازمة هي الحرب العالمية وتناقصها من تغيير جغرافية اوربا وقيام الحواجز الجمركية، ونشوب الحروب الجمركية وانتشار البطالة حتى ان عدد العاطلين الذي بلغ خمسة وعشرين مليوناً داخل اوربا وخارجها ليهدم قوة الشراء لما يقرب من مائة مليون شخص وقد زاد الى جانب هذا المنتج في العالم من المواد الخام بقدر ٦٠ ٪ عما كان عليه في سنة ١٩٢٩ فأدى ذلك الى نزول عام في الاسعار وأتى الكاتب في ختام مقاله على مجموعة من الارشادات التي يحسن ان تتبعها الجمعيات التعاونية حتى لا تتأثر اعمالها بعوامل الازمة بقدر المستطاع

٢ — عن المجلة الزراعية المصرية — عدد فبراير سنة ١٩٣٢ : —

(١) — بحث في حشرات الحبوب المخزونة لحضرة رزق عطيه افندي : جاء هذا المقال جزءاً من تممة بحث شرح الكاتب فيه الطرق الشائعة الآن في القطن في تخزين الحبوب وهي تختلف كثيراً عما كان متبعاً في غابر الازمان وهي تنحصر في الآتي :

(١) طمر الحبوب في جوف الارض (٢) التخزين في العراء (٣) التخزين في زكايب مرسومة يتخللها ويغطيها التبن والقش (٤) تخزين الذرة بأغلقته (٥) تخزين الحبوب في عنابر كثيرة النفقة (٦) التخزين في غرف عادية بالقرى (٧) التخزين في صوامع طينية

ثم تكلم الكاتب عن الاشتراطات الواجب توافرها في تخزين الحبوب وهذا البحث في نظرنا يستوجب عناية مجالس ادارة الجمعيات التعاونية الذين عليهم تقع تبعة اذاعة مثل هذه المعلومات والارشادات بين اعضاء جمعياتهم بصفهم مزارعين

(ب) — بحث في زراعة الغابات والاشجار بمصر ، وهو ملخص المذكرة التي رفعها حضرة الاستاذ محمد صالح سليمان افندي لحضرة صاحب المعالي وزير الزراعة

بدأ الكاتب مقاله بلوحة تاريخية عن زراعة الغابات في مصر في عصور الفراعنة والبطااسة ثم في عصور الفاطميين حيث كانت الغابات لها ادارات خاصة وكانت تبلغ مساحتها ما يربو على الثلاثين ألفاً من الافدنة وكانوا لا يقدمون على قطع شجرة الا بقيود وعند ماتمس الحاجة الى ذلك — ثم بيّن ان الاعتناء بالاشجار الخشبية استمر على ايام الاتراك المماليك وفي عصر محمد علي باشا الكبير حتى انه كانت هناك في عهد العائلة المحمدية مدرسة لتعليم صناعة السفن وتعميرها يشغل بها نحو ٨٠٠٠ عامل من الاهلين الذين تربوا على يد المعلمين الافرنج مما دعا الى استغناء الحكومة عن شراء المراكب من الخارج وقد بلغ ما بُني وعمر في اول مدة المدرسة ٤٥ سفينة حربية لم يستورد لها خشب من الخارج مطلقاً ، هذا ولم يكن اسماعيل باشا اقل عناية من محمد علي باشا الكبير وابراهيم باشا بالغابات فانه بانشاءه شركة البواخر المعروفة بالقومبانية العزيزية اتسعت تجارة مصر في البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر

مما دعا الى انشاء المدارس البحرية واعادة دار صناعة المراكب . وذيل مقاله بذكر الاشجار التي تزكو في مصر وتصلح لان تزرع منها غابات وهي السنط والعبل (الاتل او الطرقاء) والجازورينا والفرغاج والبسخ والبلوط والسرو والكافور والنبق والتوت

٣ — عن تذكّر التعاون الذي اعده قسم التعاون بوزارة الزراعة بمناسبة المعرض الزراعي الصناعي لسنة ١٩٣١ : تصفحنا هذا التذكّر الجميل فوجدناه كتيباً صغير الحجم عظيم القيمة تصدر بصورة جميلة لحضرة صاحب الجلالة الملك الذي بفضلها العظيم وبتشجيعه ورعايته الساميتين تقدم التعاون هذا التقدم السريع الذي يبشر بمستقبل باهر لهذه الحركة المباركة ، ويحتوي الكتيب على صور ملوّنة عديدة ما هي الا مزايا التعاون مجسمة وعناوينها كالآتي (١) الى الامام تحت لواء التعاون (٢) التعاون قوة (٣) يدفع التعاون عن الناس شر المرابي والوسيط (٤) يحقّ الله الربا ويربي الصدقات (٥) كم سهل التعاون من عسير الامور (٦) القرية قبل التعاون (٧) القرية بعد التعاون (٨) في خزائن التعاون كنوز لا تقنى (٩) للناس في التعاون آي من الخير والنعم (١٠) تقدم الحركة التعاونية المصرية (احصائيات) (١١) التعاون للمستهلك والمنتج زارعا كان ام صانعاً . كذلك يشمل التذكّر بجانب هذه الرموز المشار اليها كلمات عن الحركة التعاونية في مصر والمبادئ التعاونية والخدمات الاجتماعية التي تؤديها الجمعيات التعاونية لاعضاءها ، ونقتطف من بين هذه الكلمات ما ذكر عن علم التعاون وشعاره ويومه : « للتعاون مظاهر عالمية يؤدي كل منها معنى سامياً من المعاني التي يدين بها التعاونيون

في كل بقعة في بقاع الارض . فالتعاون علمه ، وللتعاون شعاره ، وللتعاون يومه « يستظل التعاونيون بعلمهم الدولي ايضاً كانت حكومتهم أو عقيدتهم ، وهو مجموعة ألوان قوس قزح المتحدة التي ألفت الناس ظهورها في كبد السماء عقب العواصف والامطار تدعو الناس الى الطمأنينة وتبشرهم بالخير في جو من الهدوء والسكينة ، فيأله من خيال دقيق المعنى جميل التصوير ، ينبئ بما في التعاون من معنى السلام العام والانتقال من الظلمات الى النور وشعاره الخالد الذي يرمز به الى مذهبهم ويميزه عما عداه من المذاهب الاقتصادية الاجتماعية الاخرى هو « الفرد للمجموع والمجموع للفرد » أو بعبارة أوضح وأجلى أن يسعى الفرد لمصلحة المجموع في غيره واخلاص ، كما يسعى المجموع من جانبه لمصلحة الفرد بنفس هذه الروح . تكاتف وتساند في أخاء ومساواة ، أو ليس هذا شعار الديمقراطية التي طالما نشدتها الشعوب لتحرير بنيتها والنهوض بهم ؟ أما يومهم فأسببت الاول من شهر يولييه في كل عام . وهو اليوم الذي قرر الاتحاد التعاوني الدولي منذ ثمان سنوات الاحتفال به في المشرق والمغرب وجعله عيداً تعاونياً عاماً تقام فيه الحفلات وتُعقد الاجتماعات وتلقى الخطب ليسمع العالم صوت التعاونيين عالياً يدعو الى التضامن في العمل لخير الانسان في ظل الحرية والاخاء والمساواة

مكتبة المقتطف

المجلد الثامن من الاكليل

مؤلف هذا الكتاب هو العلامة ابو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب بن يوسف بن داود المشهور بالهمداني والمتوفي في سجن صنعاء سنة ٣٣٤ هجرية (٩٤٥ م) وهو كتاب في محامد اليمن ومساندها ودفائنها وقصورها ومرآتي حمير والقبوريات . واصل الكتاب عشرة مجلدات لم يحفظ منها على ما يعلم الا المجلد الثامن والمجلد العاشر . والثامن يشتمل على ذكر قصور حمير ومدنها ودواوينها وما حفظ من شعر علقمة والمرآتي والمساند

اما كتب الهمداني الاخرى فاشهرها في وصف بلاد العرب واسمها « صفة جزيرة العرب » وكتاب « الحيوان المفترس » وسماه السيوطي في بغية الوعاة كتاب « الحيوان » . وله كتاب « اليعسوب » في القسي والرمي والسهام والنصال وسماه السيوطي « القوس » وله كذلك « زيج » معتمد في اليمن

وقد عني العلامة الأب انتاس ماري الكرملي باخراج نسخة مصححة من الجزء الثامن من الاكليل بعد معارضة اربع نسخ مخطوطة ، اولها كتبت في صنعاء سنة ٥٢١ هجرية ، والثانية كانت محفوظة في القسطنطينية والثالثة في خوي بفارس والرابعة اتصلت بالناشر من الكاظمية ثم انه عهد الى الاستاذ الدكتور كرنكو في معارضة الصفحات الخمسين الاولى بما يقابلها في نسخة لندن

ومما لا ريب فيه ان معظم النسخ كان غير متوفر على الجغرافية والتاريخ والمصطلحات العلمية ، فاخطأ في النسخ كثيراً . ولذلك اعتمد الاب انتاس على اقدم المخطوطات — وهي مخطوطة صنعاء — فآخذها اساساً للمقابلة ، وقد ابى تواضعه الا ان يقول بانهُ يعتقد انه وصل الى نص على جانب من الصواب

ولا تعرف سنة ولادة الهمداني مؤلف الاكليل وانما يعرف انه ولد في صنعاء وفيها نشأ وغدا من اعلم علماء زمانه فقبض على اعنة اللغة والفلك والرياضيات وقرض الشعر ومعرفة الانساب والحديث والتفسير والفقه والفرائض الى نحوها من العلوم الشائعة في عصره (ملحق الاكليل ص ٢٩٨ و ٢٩٩) وكانت وفاته في سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٥ — ٩٤٦ م) على ما يروى في سجن صنعاء

ومنزلة كتاب الاكليل من الآداب العربية قائمة على انه يردُّ زعم الزاعمين من الغربيين ومن اتبعهم من الناطقين بالضاد ان العرب لم يكن لهم قبل الاسلام علوم وفنون وصنائع وآداب. « فهو يكشف لنا ان قدماء اليمانيين بلغوا اقصى الغاية من الرياضيات وجرَّ الاثقال لانهم عرفوا كيف يشيّدون قصوراً فنية ، متعددة الطباق ، حتى بلغت عشرين سقفاً ويقاوم بناؤها مرَّ الايام ، وطوارىء الحداث لانك تعلم ان فن البناء والرياسة (فن المعمارين) لا يتقن الا بعد الوقوف على الرياضيات وقوفاً صادقاً » . (ملحق الاكليل ص ٣٠٥) ثم انه يبين لنا كيف كانوا ينتحون تماثيل البشر والحيوانات والطيور ، ويطلعنا على احكامهم عمل الآلات المتحركة من نفسها وكذلك الساعات المائية العظيمة المعروفة بالقطارات . فقد جاء عن قصر غمدان قوله :

يسمو الى كبد السماء مصعداً عشرين سقفاً سمكها لا يقصر
وبكل ركن رأس نسرٍ طائرٍ او رأس ليث من نحاسٍ يزأر
متضمناً في صدره قطارة لحساب اجزاء النهار تقطر

وحبذا الحال لو اتسع المقام لبيان كل الفوائد التي يجلوها لنا الاكليل ولعلنا نعود اليها وهذا المجلد مخدوم بملحق في بيان نسب المؤلف ومؤلفاته ومقام الاكليل ونقدم وذكر مخطوطاته المعروفة . ثم يلي ذلك فهرس او مجموعة فهراس تملأ نحو ١٥٠ صفحة ، على مثال الفهراس الشائعة التي يعنى بوضعها علماء المشرقيات في ذيل ما ينشرونه من الكتب القديمة ، فتمة فهرس للفصول وثانٍ للقواعد العربية وثالث للمعمرين من العرب ورابع للشعراء وخامس للقوافي وسادس للمحدثين والرواة وسابع عمراني يتعلق بمحاضرة العرب في جزيرتهم وثامن للاسداد وتاسع للمدافن والقبور وعاشر للجبال وحادي عشر للحصون والقلاع وثاني عشر للقصور وحدها وثالث عشر للالفاظ العربية وما يقابلها عند الفرنسيين مما يصعب الحصول عليه في المعاجم العربية الفرنسية . ورابع عشر للتأليف والمطبوعات الوارد ذكرها في المتن والهامية ثم مفتاح لمغلق الالفاظ وآخر للمواضع على اختلاف انواعها . واخيراً فهرس لاسماء الرجال وآبائهم واجدادهم خلافاً لما في سائر الفهراس التي لا تحوي الا اسماء الابناء من الرجال وقد اسهبنا في بيان موضوعات هذه الفهراس ، لنذكر على الجهد العظيم الذي بذله العلامة الكرملي في اخراج هذا الجزء من الاكليل على اتم واوفى ما يستطيعه عالم راسخ العلم ، بعيد المهمة ، لا يرضى بصحة او وقت في سبيل التحقيق العلمي . فهنته ، ونطلب ان يمد الله في عمره لينفعنا بعلمه ، ونهني انفسنا بان عالماً شرقياً اخرج مثل هذا السفر النفيس على هذا الوجه من الكمال

الرسالة النباتية

الامير مصطفى الشهابي عالم راسخ التقدم في العلم ، ولكنه لا يقتصر على النظري منه فيتعداه الى العملي . لذلك تراه مديراً لاملاك الدولة في دمشق ومؤلفاً لكتب عملية في الزراعة مثل كتاب « الزراعة العملية الحديثة » و « زراعة الاشجار والانجم المثمرة » و « كتاب البقول » و « كتاب الدواجن » وغيرها . ثم انه يمتاز بصفة ثالثة . ذلك ان لكتابته رواء الادب ورزانة التحقيق اللغوي . فهو لا ينفك عن التنقيب في امهات الكتب اللغوية للعثور على ما استعمله كبار الكتاب الاقدمين من الالفاظ لمدلولات معينة نوعية كانت او معنوية وقد عني الآن بوضع « رسالة نباتية » تشتمل على بعض نباتات زراعية لم ترد في معجم اسماء النبات للدكتور احمد عيسى ولا في معجم العلوم الطبية والطبيعية للدكتور محمد شرف . فانه بعد ما اشار الى معجمي شرف وعيسى بما يستحقانه قال « من البديهي ان المعجمين المذكورين لم يتناولوا سوى بعض المهم من النباتات مما جاء في الكتب التي مر ذكرها او في بعض المعاجم الادبية . وما ابعد من ان يتناولوا كل ما تراه في كتب النبات الواسعة من مختلف الاسماء اللاتينية لنباتات شتى مفيدة او غير مفيدة تنبت بالطبيعة في انحاء العالم ولا يوجد لكثير منها اسماء حتى في اللغات الاوربية المشهورة . ومن البديهي اني لا ابغي في هذا البحث الموجز التعرض لتلك النباتات وعددها عظيم وانا اجهل معظمها الا في الكتب . بل غايتي ذكر بعض نباتات زراعية لم يوردها شرف ولا عيسى في معجميهما كبعض الازهار والرياحين واشجار التزيين وجنبتها واشجار الحراج والفواكه ، وهي نباتات زرعتها او رأتها في حدائق النبات وقليل منها لم ازرعه ولم اره ، لكن قرأت عنه في الكتب والمجلات الفرنسية . ولا نعرف لهذه النباتات اسماء عربية (لان اجدادنا كانوا يجهلونها) لكن لاسماها العلمية (معظمها مأخوذ عن اليونانية) معاني وصفوا بها بعض اعضاء النباتات او بعض مميزاتها فيسهل علينا ترجمة تلك الاسماء بمدلولاتها . ثم انهم ينسبون بعض النباتات الى العلماء الذين كشفوها فيسمونها باسمائهم او يطلقون عليها اسم احد الملوك والامراء او آلهة الاقدمين وجميع هذه الاسماء تترك على حالها عند تعريبها او تجعل بصيغة النسبة » ثم مضى يبين انه عني باثبات اسم الجنس Genus فقط لان الكلام يطول اذا توخى ذكر اسماء الانواع (Species) والاصناف (Varieties) ثم انه لم يذكر الا الاسم لانه الغاية من المعجم والمعجم لا يحتمل تحلية انواع النباتات وذكر منابتها وفوائدها وغير ذلك مما لا تستوعبه الا الكتب . واكتفى بالاسم الاشهر ضارباً عن الاسماء المترادفة صفحاً ونورد الآن بضعة امثلة على الاسماء التي ذكرها

الرشيقة Abronia (من اليونانية لرشاقة ازهارها)

الشائكة Acoena (من اليونانية للشوك الدقيق في الكأس والثمرة)

المنحية الرأس *Acroclinium* (لاختفاء ازهارها الانتهاية قبل تفتحها)
 الشجرة العشرية *Decumaria* (اشارة الى اجزاء الزهرة العشرة)
 الجوزة المنحقة *Caryopteris* (لثمارها المنحقة)
 اخت الزيتون *Olearis* (لان اوراق بعض انواعها تشبه اوراق الزيتون)
 وهي اسماء ازهار واشجار لاسمائها العلمية معانٍ وصفوا بها بعض اعضاء النباتات وبعض
 مميزاتا وقد ترجمها بمعانيها
 الدارونية *Darwinia* (منسوبة الى دارون الشهير)
 ديارويلا *Diervilla* (منسوبة الى الجراح الفرنسي *Dieruille*) وهي من اشهر جنبات التزيين
 لاجروستروميا *Lagerstroemia* (باسم النباتي السويدي لاجروستروم)
 هوميا *Humia* (باسم قرينة السر ابراهيم هيوم)
 وهي اسماء منسوبة الى اعلام ولا يصحُ الا تعريبها

قصص اجتماعية

ونماذج من ادب الغرب

مترجمة بقلم محمد عبد الله عنان من مؤلفات بول بورجه. وانا تول فرانس. واندرية تيريه
 وفرانسوى كويه. وجي دي موباسان. ودهبانثيل. ومارسل بريشو. وجان لوران — ومقرونة
 بتراجم نقدية — طبع بمطبعة دار الكتب المصرية — الثمن ١٠ قروش
 انترجم ام نؤلف ؟ مسألة تتغلغل في صميم نهضتنا الفكرية الحديثة . والاستاذ محمد عبد الله
 عنان يحيب عنها في الفاظ لا تحتمل التأويل ، اذ يقول « اننا في عصر ترجمة ونقل . ومازلنا
 بالاخص فيما يتعلق بفن القصص واتخاذ وسيلة لتصوير مناحي الحياة والمجتمع والاخلاق
 والعواطف في بداية البداية . وكل ما يخرج ككتابنا اليوم من ادب القصة ، تافه غث ، عاقل
 من كل فن وخيال وبيان وابتكار حقيقي . ومن الواجب ان نزود في هذا الميدان قبل كل
 شيء بالنقل الصادق الجلد ، عن اساتذة الفن ، وبالدرس العميق المتزن لنواحيه واساليه وصوره
 المختلفة . اما التلخيص الطائر لآثار الادب الغربي ، والدراسة السطحية لبعض مذاهبه ، والتعلق
 ببعض نظريات ونواحيه ، على نحو ما يفعل الكتابان اليومان فعبث واضح واستباق
 لنظام التقدم الطبيعي »

ونحن نعرف غير واحد من زعماء الادب المعاصرين يرون رأي الاستاذ عنان في وجوب
 الاخذ بالترجمة الصادقة عن ارباب الادب الاوربي . لان آداب الامم تتلاقح ولا شك ، والنقل

الطائر» كما يقول المؤلف لا يكفي لاحداث التلقيح . لانه في الواقع ليس الا صورة مجملة - وكثيراً ما تكون مشوهة - لما يراه الناقل او الملخص في المؤلف الذي بين يديه . اما اساليب المؤلف ، وتفصيل تصويره للحياة في نواحيها المختلفة ، وتحليله للشعور والانفعال والتأثر في الحالات النفسية المتباينة فتضيق بالتلخيص ، وتفوت بضياها الغاية من القيام به على ان وجوب الترجمة الصادقة ، يجب ألا يحول دون محاولة الابداع . لان النزعة القصصية في الكتابة ، قد يصقلها الاطلاع ويهذبها ولكنه لا يخلقها . وكما استاذ للادب في الغرب ، واسع الاطلاع على الآداب القديمة والحديثة ، عارف بمذاهب النقد ومواطن القوة والضعف في المؤلفات الروائية ، ولكنه يعجز عن كتابة رواية أو قصة . وإذا فوجب ان لا نكتفي بالترجمة الآن ، بل يجب ان نستعين بها على توجيه اصحاب النزعات الروائية ، في السبل الجديدة ، وتدريب الناقدين على احسان النقد الذي يرمي الى الاصلاح والاتقان والاجادة لذلك نرحب بهذه الصفحات التي اختارها من مؤلفات زعماء الادب الفرنسي ، رجل بصير بادب الغرب ، شديد الغيرة على الادب العربي . بارع في الترجمة الجامعة «بين الحرص على الروح والاساليب الغربية ، والبيان العربي المتين»

وان في اسماء الابداء الفرنسيين ، المنقول عنهم ، وفي حسن اختيار الاستاذ عنان لصفحات من مؤلفاتهم ، وفي الفائدة الكبيرة التي تجني من الترجمة الصادقة ، لا كبركفيل لذئوع هذه المجموعة النفيسة بين جمهور الابداء والمتأدين

مصر وفلسطين

Egypte. Palestine — Edition Arthaud Grenoble—

ان الافرنج ما زالون ينظرون الى الشرق نظرة المتعجب . فانهم يودون لو يظفرون بسائنا الصافية وشمسنا الساطعة . وكثيراً ما يتحدثون عنهما وهام الآن يصورونهما ويكتبون عنهما الشيء الكثير ويضيفون الى وصفها وصف حقولنا وسهولنا وقصورنا ودورنا ثم يشيرون الى قديم تاريخنا في اجلال عظيم وإن ذكروا حاضراً رثوا له أو تنبأوا من ورائه قدماً وفلاحاً

على ان الكتاب الذي نحن بصده الآن مجموعة صور بديعة تمثل ابهى مناظر مصر وفلسطين واجمل مبانيهما واجل آثارهما . ولندكر ان صاحبة هذا الكتاب Mme Gadala من اشد الناس اعجاباً بمصر فهي تذكر الضيافة المصرية في عبارات جميلة وتتحدث عن ذكاء المصريين كأنها مدفوعة الى ذلك وما هي بمدفوعة واما ذكرها تاريخ الفراعنة ففي دقة وبراعة واما بحثها في الفن المصري القديم فليس بشيء فانها وان حاولت أن تذيب آراء المستعصرين لعاجزة عن أن تدل على خصائص الفن المصري في اسلوب واضح لا مطعن فيه

الجزء الرابع من المجلد الثمانين

صفحة

من الخلايا الحية الى السدم اللولبية	٣٧١
الاعداد العلمي ومستقبل النش. للدكتور علي مصطفى مشرفة	٣٧٩
قصة رفيق الشعري	٣٨٤
المذاهب الحديثة في بناء المادة . للمستتر قنדרسل	٣٨٧
حول مؤتمر الموسيقى . لبشر فارس (مصورة)	٣٩٢
هواجس في الانسان وحياته. للامير مصطفى الشهابي	٣٩٩
القضايا الاجتماعية الكبرى . للدكتور عبد الرحمن شهبندر	٤٠٣
شلال تيجوكا (قصيدة) لشكر الله الجر	٤١٢
مهاتما غاندي — ايام المدرسة	٤١٤
موسيقى المصريين القدماء (مصورة)	٤٢١
ابو تمام . للاستاذ انيس المقدسي	٤٢٤
الحضارة الفينيقية . للشيخ بولس مسعد (مصورة)	٢٣٤
مائة سنة على جوته (مصورة)	٤٣٩
جوته . للدكتور علي مظهر (مصورة)	٤٤١
المذاهب الاجتماعية الحديثة . للمستتر كليند	٤٤٧
الشاعر (قصيدة) لحسن كامل الصيرفي	٤٥٤
البتروك في معارك السلام	٤٥٥
تقاليد الزواج واصولها النفسية . لاجد عطية الله	٤٥٨
هندنبرج . لابن طفيل (مصورة)	٤٦٣



باب التعاون والاقتصاد الزراعي * الضائقة الاقتصادية والتعاون والعام الجديد . للسيد احمد مراد البكري . مقتطفات تعاونية	٤٦٩
مكتبة المقتطف * المجلد الثامن من الاكليل . الرسالة النباتية . قصص اجتماعية . مصر وفلسطين	٤٧٧
ملحق خاص موضوعه (جوته) للدكتور محمد عوض محمد	٤٨٣